قواعد وأصول مهمة لقراءة

التراث

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

دار الإيمان
الإسكندرية

دار القمة
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٩٩٢١
الترقيم الدولي
977-331-117-1

جميع الحقوق محفوظة

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فالسعي لإثبات الهوية والمحافظة على التراث، صورة موجودة في حياة الأفراد والدول والجماعات، يصلون بذلك ماضيهم بحاضرهم، ويستشرفون ويتطلعون من خلال هذا السعي الإنطلاق إلى المستقبل، وكثير من الأمم والشعوب عندما تصنع هذا الصنيع تريد أن تثبت عراقة منبتها وحضارتها الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وأنها المؤهلة دون غيرها لخلافة الأرض؛ ولهذا المعنى شواهد كثيرة، فالفخر بالأحساب والتعاظم بمناقب الآباء، وإثبات شرف المحتد واقع ملموس، فعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**» [رواه أحمد ومسلم].

وكانت قريش تقول: نحن أهل بيت الله وحرمه، وكان الحمس - وهم المتشددون في دينهم - يقفون بمزدلفة - لأنها من الحرم - ويرفضون الوقوف بعرفات - لأنها من الحل - ولذلك قيل لهم: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ**﴾ [البقرة: ١٩٩]، أي قفوا حيثما وقف الناس ولا تشذوا عنهم، وكانوا بعد رمي الجمار بمنى يذكرون مفاخر الآباء والأجداد، فإذا فرغوا من عد الأحياء دخلوا إلى المقابر للتفاخر بمن مضى، قال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③**﴾ [التكاثر: ١ - ٣]، وقالوا: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ [الأعراف: ٧٠]، وما فعلوا ذلك إلا إظهارا للأصالة ومحافظة على التراث - بزعمهم -.

وتلمح نفس القضية في الحوار الدائر بين فرعون والملأ، ففرعون يقول للملأ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]، وهم يردون عليه السفه بسفه ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وما اشتداد عمليات البحث والتنقيب عن الآثار والإحتفاظ بالأصنام والطلاسم والألغاز إلاَّ صورة من هذه الصور، وقد حرص أعداء الإسلام على إبعادنا عن ديننا بشتى الطرق، وكان من جملة هذه السهام التي أُطلقت على هذه الأمة محاولة ربطها بالفرعونية والبابلية والآشورية والفينيقية .. وما يسمى بالحضارات القديمة التي أقامها المصريون الهلكى وغيرهم، ولم يكن لله فيها نصيب.

ومازال البعض من جلدتنا وممن يتكلم بلساننا يفتخر بأجداده الفراعنة، ويطالب بإقامة حزب فرعون، والرجوع إلى اللغة الفرعونية القديمة!! والدول اليوم تعتبر مناطق الآثار محميات لا يجوز البناء عليها، وتُحاط بالأسوار ويضفون معاني الإبهار والقدسية على الأحجار والأطلال.

وقد شاهدت في أوروبا الكنائس والأبنية القديمة تُترك على حالتها دون طلاء ويعتبرونها من جملة التراث الثقافي والحضاري والشعبي والفولكلوري، وتعتز الأمم بأمثالها وترصد عاداتها وطباعها ولهجاتها المتوارثة وتُنفق الأموال الباهظة لنشر لغاتها وإقامة اللجان لإحياء وتنقية تراثها وتهيئ الموسوعات وتُقيم الجامعات لهذا الغرض، وقد يندفع الأفراد للدعوة والنشر محبة لماضيهم وتراثهم وإبرازًا لهويتهم.

والسلوك مرآة الفكر، ونحن بعون الله وتوفيقه أحق وأجدر بنشر تراثنا الحضاري العالمي، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم، وهم أمة واحدة وإن تباعدت الديار، واختلفت الألسنة والألوان،

وتناءت الأزمان ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقد بدأت البشرية بنبي مُكلَّم هو نبي الله آدم عليه السلام، ثم تتابع إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، يُذكِّرون الدنيا بدين ربها، وبالغاية من خلق الخلق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦] كلهم كان يدعو إلى الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وعندما ينزل عيسى عليه السلام من السماء في آخر الزمان، فإنه يحكم بشريعة الإسلام ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، فأمتنا أمة واحدة، تاريخها ممتد يأبى التنافر والتقسيم إلى قديم وحديث ووسيط.

ونرفض أن يُطلق وصف الشرق الأوسط على مهبط الوحي، فنحن في وسط الدنيا جغرافيًا ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧] نرفض التلاعب بمعاني التاريخ والجغرافيا، ولغتنا العربية هي أشرف اللغات؛ لأنها لغة القرآن، ونبينا هو سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه.

وقد حفظ لنا سبحانه كتابه وسُنَّة نبيه ﷺ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر: ٩]، ولما سُئل ابن المبارك عن الأحاديث الموضوعة قال: تعيش لها الجهابذة، والإسناد من الدين، وهو مفخرة هذه الأمة؛ إذْ ليس لدى أهل الكتاب إسنادٌ متَّصل، والنص الوحيد المتصل عند النصارى يتعلق بالطلاق، وفي سنده كذاب، وقد اصطفى سبحانه وتعالى هذه الأمة على سائر الأمم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهي أمة خيرية وهداية، ولديها من الخصائص والمميزات ما يؤهلها لقيادة البشرية ولإقامة حضارة على منهاج النبوة، حضارة يسعد بها العالم أجمع في العاجل والآجل، لا هذا المسخ المشوه الذي تسعى أمم أخرى

لإقامته بعيداً عن واجب العبودية، ويُكررون به صور الهلاك التي تُدمر البلاد والعباد ويُضيعون به حق الخالق والمخلوق؛ ولذلك كان لابد من سعيٍ حثيث وجهاد كبير بالعلم والعمل لنشر تراثنا الحضاري العالمي، تتكاتف فيه الجهود لتأدية الرسالة وإبلاغ الأمانة وإبراء الذمة؛ حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بيّنة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهذه كلمة أردت بها توضيح معالم وملامح تراثنا الحضاري العالمي والعوائق التي تواجه ذلك، في هذا الوقت العصيب الذي يشبه ألم المخاض، راجيًا النصح لعموم المسلمين والأجر والثواب ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ونسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ويُؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

التراث في المعاجم والتفاسير

التراث والميراث بمعنى واحد، وقد وردت كلمة التراث في قوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].

جاء في كتاب السبعة في القراءات (ج١ ص٦٨٥):

قوله: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠]، قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: تكرمون وتأكلون وتحبون بالتاء، وقرأها أبو عمرو كلها بالياء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: تحاضون بالتاء والألف، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: تحضون بالتاء بغير ألف، والتاء في كل ذلك مفتوحة، وقرأ أبو عمرو: يحضون بالياء من غير ألف.

وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] قرأ الكسائي وحده: لا يعذب ولا يوثق بفتح الذال والثاء، وروى المفضل عن عاصم مثله، وقرأ الباقون: لا يعذب ولا يوثق بكسر الذال والثاء.

وفي التبيان في تفسير غريب القرآن (ج١ ص٤٦٢):

التراث: الميراث، أكلاً لما: يعني أكلا شديداً، يُقال: لممت الشيء إذا أتيت على آخره.

وفي لسان العرب (ج٢ ص٢٠٠):

إخباراً عن زكريا ودعائه إياه ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٥] أي يبقى بعدي فيصير له ميراثي، قال ابن سيده: إنما أراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أن يكون خاف أن يرث أقرباؤه المال؛ لقول النبي ﷺ: **«إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»** وقوله عز

وجل: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦] قال الزجاج: جاء في التفسير أنه ورث نبوته وملكه، وروي أنه كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولدًا، فورث سليمان عليه السلام من بينهم النبوة والملك، وتقول: ورثت أبي وورثت الشيء من أبي أرثه بالكسر فيهما ورثاً ووراثةً وإرثًا الألف منقلبة من الواو ورثة الهاء عوض من الواو وإنما سقطت الواو من المستقبل لوقوعها بين ياء وكسرة وهما متجانسان والواو مضادتهما فحذفت لاكتنافهما إياها، ثم جعل حكمها مع الألف والتاء والنون كذلك؛ لأنهن مبدلات منها والياء هي الأصل يدلك على ذلك أن فعلت وفعلنا وفعلت مبنيات على فعل ولم تسقط الواو من يوجل لوقوعها بين ياء وفتحة ولم تسقط الياء من ييعر وييسر لتقوي إحدى الياءين بالأخرى وأما سقوطها من يطأ ويسع فلعلة أخرى مذكورة في باب الهمز قال: وذلك لا يوجب فساد ما قلناه؛ لأنه لا يجوز تماثل الحكمين مع اختلاف العلتين، وتقول أورثه الشيء أبوه، وهم ورثة فلان، وورثه توريثًا أي أدخله في ماله على ورثته وتوارثوه كابرًا عن كابر.

وفي الحديث: «**أنه أمر أن تورث دور المهاجرين النساء**» تخصيص النساء بتوريث الدور، قال ابن الأثير يُشبه أن يكون على معنى القسمة بين الورثة وخصصهن بها؛ لأنهن بالمدينة غرائب لا عشيرة لهن فاختار لهن المنازل للسكنى قال: ويجوز أن تكون الدور في أيديهن على سبيل الرفق بهن لا للتمليك كما كانت حجر النبي ﷺ في أيدي نسائه بعده.

ابن الأعرابي: الورث والورث والإرث والوارث والإراث والتراث واحد.

الجوهري: الميراث أصله موراث انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، والتراث أصل التاء فيه واو.

ابن سيده: والورث والتراث والميراث ما ورث، وقيل: الورث والميراث في المال والإرث في الحسب. وقال بعضهم: ورثته ميراثًا. قال ابن سيده: وهذا خطأ؛ لأن مفعالاً ليس من أبنية المصادر؛ ولذلك ردَّ أبو علي قول من عزا إلى ابن عباس أن

المحال من قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣ ﴾ [الرعد: ١٣] من الحول، قال: لأنه لو كان كذلك لكان مفعلاً ومفعل ليس من أبنية المصادر فافهم.

وقوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] أي الله يفني أهلهما فتبقيان بما فيهما وليس لأحد فيهما ملك فخوطب القوم بما يعقلون؛ لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثًا له إذ كان ملكًا له، وقد أورثنيه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ ﴾ أي أورثنا أرض الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ من المنازل ﴿ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٧٤] وورث في ماله أدخل فيه من ليس من أهل الوراثة.

الأزهري: ورث بني فلان ماله توريثًا وذلك إذا أدخل على ولده وورثته في ماله من ليس منهم فجعل له نصيبًا.

وفي لسان العرب (ج١٢ ص٥٤٨):

يلمه لمًا: جمع ما تفرق من أموره وأصلحه، وفي الدعاء: «**لم الله شعثك**» أي جمع الله لك ما يذهب شعثك، قال ابن سيده: أي جمع متفرقك وقارب بين شتيت أمرك، وفي الحديث: «**اللهم المم شعثنا**» وفي حديث آخر: «**وتلم بها شعثي**» هو من اللم الجمع، أي اجمع ما تشتت من أمرنا، ورجل ملم يلم القوم أي يجمعهم، وتقول: هو الذي يلم أهل بيته وعشيرته ويجمعهم، قال رؤبة: فابسط علينا كنفي ملم أي مجمع لشملنا أي يلم أمرنا، ورجل ملم معم إذا كان يصلح أمور الناس ويعم الناس بمعروفه، وقولهم إن داركما لمومة أي تلم الناس وتربهم وتجمعهم، قال فذكي بن أعبد يمدح علقمة بن سيف:

لأحبني حب الصبي ولمني ... لم الهدي إلى الكريم الماجد

ابن شميل: لمة الرجل أصحابه إذا أرادوا سفرًا فأصاب من يصحبه، فقد أصاب لمة، والواحد لمة والجمع لمة، وكل من لقي في سفره ممن يؤنسه أو يرفده لمة، وفي الحديث: «**لا تسافروا حتى تصيبوا لمة**» أي رفقة. وفي حديث فاطمة رضي الله عنها

« أنها خرجت في لمة من نسائها تتوطأ ذيلها إلى أبي بكر فعاتبته » أي في جماعة من نسائها. قال ابن الأثير: قيل هي ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: اللمة المثل في السن والترب، قال الجوهري : الهاء عوض من الهمزة الذاهبة من وسطه وهو مما أخذت عينه كسه ومه وأصلها فعلة من الملاءمة وهي الموافقة، وفي حديث عليّ رضي الله عنه : « ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة » أي جماعة.

قال: وأما لمة الرجل مثله، فهو مخفف، وفي حديث عمر رضي الله عنه « أن شابة زوجت شيخًا فقتلته، فقال: أيها الناس ليتزوج كل منكم لمته من النساء ولتنكح المرأة لمتها من الرجال » أي شكله وتربه وقرنه في السن، ويُقال: لك فيه لمة أي أسوة، قال الشاعر:

فإن نعبر فنحن لنا لمات وإن نغبر فنحن على نـدور

وقال ابن الأعرابي: لمات أي أشباه وأمثال، وقوله: فنحن على ندور، أي سنموت لابد من ذلك، وقوله عز وجل: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ قال ابن عرفة: أكلاً شديداً، قال ابن سيده: وهو عندي من هذا الباب كأنه أكل يجمع التراث، ويستأصله، والآكل يلم الثريد فيجعله لقماً قال الله عز وجل: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ ، قال الفراء: أي شديداً، وقال الزجاج: أي تأكلون تراث اليتامى لماً أي تلمون بجميعه.

وفي الصحاح: أكلاً لماً أي نصيبه ونصيب صاحبه، قال أبو عبيدة يُقال: لمته أجمع حتى أتيت على آخره، وفي حديث المغيرة: « تأكل لماً وتوسع ذمًا »، أي تأكل كثيراً مجتمعًا. وروى الفراء عن الزهري أنه قرأ وإن كلا لماً منون ليوفينهم. قال: يجعل اللم شديداً كقوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ قال الزجاج: أراد وإن كلاً ليوفينهم جمعًا؛ لأن معنى اللم الجمع.

وفي تفسير البيضاوي (ج٥ ص٤٨٩):

فأما الإنسان فقائل: ربي أكرمني، وقت ابتلائه بالإنعام، وكذا قوله : ﴿ وَأَمَّا

إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ [الفجر: ١٦]، إذْ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه أي بالفقر والتقتير ليوازن قسيمه، فيقول ربي أهانن؛ لقصور نظره وسوء فقره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين والتوسعة قد تفضي إلى قصد الأعداء والإنهماك في حب الدنيا؛ ولذلك ذمه على قوليه سبحانه وتعالى وردعه عنه بقوله كلا مع أن قوله الأول مطابق لأكرمه ولم يقل فأهانه، وقدر عليه كما قال فأكرمه ونعمه؛ لأن التوسعة تفضل، والإخلال به لا يكون إهانة وقرأ ابن عامر والكوفيون أكرمن وأهانن بغير ياء في الوصل والوقف، وعن أبي عمرو مثله، ووافقهم نافع في الوقف، وقرأ ابن عامر فقدر بالتشديد، ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]، أي بل فعلهم أسوأ من قولهم وأدل على تهالكهم بالمال وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرة، ولا يحثون أهلهم على طعام المسكين فضلاً عن غيرهم وقرأ الكوفيون ﴿ وَلا تَحَاضُّونَ ﴾.

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ الميراث، وأصله وراث ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ ذا لم، أي جمع بين الحلال والحرام، فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر: ٢٠] كثيراً، مع حرص وشره.

وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب لا يكرمون إلى ويحبون بالياء، والباقون بالتاء ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم وما بعده وعيد عليه ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر: ٢١] أي دكًا بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال أو هباء منبثًا ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره.

وفي تفسير القرطبي (ج٢٠ ص٥٣):

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أي ميراث اليتامى وأصله الوراث من ورثت فأبدلوا الواو تاء كما قالوا في تجاه وتخمة وتكاة وتؤدة، ونحو ذلك، وقد تقدم أكلاً لمًا أي شديداً، قاله السدي، قيل: لمًا جمعاً من قولهم: لممت الطعام لمًا إذا أكلته جمعًا،

قاله الحسن وأبو عبيدة وأصل اللم في كلام العرب الجمع، يُقال: لممت الشيء ألمه لمًا، إذا جمعته ومنه يقال: لم الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره. قال النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

ومنه قولهم: إن دارك لمومة، أي تلم الناس وتربهم وتجمعهم، وقال المرناق الطائي، يمدح علقمة بن سيف:

لأحبني حب الصبي ولمني لم الهدى إلى الكريم الماجد

وقال الليث: اللم الجمع الشديد ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة، فالآكل يلم الثريد فيجمعه لقمًا، ثم يأكله.

وقال مجاهد: يسفه سفًا، وقال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب غيره، قال الحطيئة:

إذا كان لما يتبع الذم ربه فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم، وقال ابن زيد: هو أنه إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله، ولا يفكر أكل من خبيث أو طيب، قال: وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم وتراثهم مع تراثهم، وقيل يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك فيلم في الأكل بين حرامه وحلاله.

وفي تفسير ابن كثير (ج٤ ص٥١٠):

يقول تعالى: منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرامًا له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له كما قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا؛ فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويُضيق على من يحب ومن لا يحب،

وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالتين، إذا كان غنيًا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، وقوله تعالى: ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أيوب عن يحيى بن أبي سليمان عن زيد بن أبي عتاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»**.

وقال أبو داود (٥١٥٠) حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان أخبرنا عبد العزيز يعني ابن أبي حاتم حدثني أبي عن سهل يعني ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**» وقرن بين أصابعه الوسطى والتي تلي الإبهام ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعني الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيراً زاد بعضهم فاحشًا.

وفي تفسير الطبري (ج٣٠ ص١٨١):

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفجر: ١٦ – ١٩].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ يقول: وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر، فقدر عليه رزقه يقول: فضيق عليه رزقه وقتره، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ يقول: فيقول ذلك الإنسان ربي أهانني، يقول أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه ورزقه من العافية في جسمه.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ ما أسرع كفر ابن آدم .

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾ قال ضيقه، واختلف القراء في قراءة قوله ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ فقرأت عامة قراء الأمصار ذلك بالتخفيف، فقدر بمعنى فقتر، خلا أبي جعفر القارئ فإنه قرأ ذلك بالتشديد فقدّر، وذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: قدر بمعنى يعطيه ما يكفيه، ويقول: لو فعل ذلك به ما قال ربي أهانني، والصواب من قراءة ذلك عندنا بالتخفيف؛ لإجماع الحجة من القراء عليه.

وقوله: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿كَلاَّ﴾ في هذا الموضع، وما الذي أنكر بذلك، فقال بعضهم: أنكر جل ثناؤه أن يكون سبب كرامته من أكرم كثرة ماله وسبب إهانته من أهان قلة ماله، ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ما أسرع ما كفر ابن آدم يقول الله جل ثناؤه كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي وأهين من أهنت بمعصيتي، وقال آخرون: بل أنكر جلّ ثناؤه حمد الإنسان ربه على نعمه دون فقره، وشكواه الفاقة.

وقالوا: معنى الكلام: كلا أي لم يكن ينبغي أن يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمده على الأمرين جميعًا على الغنى والفقر، وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي ذكرناه عن قتادة؛ لدلالة قوله: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ والآيات التي بعدها على أنه إنما أهان من أهان بأنه لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، وسائر المعاني التي عدد، وفي إبانته عن السبب الذي من أجله أهان من أهان الدلالة الواضحة على سبب تكريمه من أكرم.

وفي تبيينه ذلك عقيب قوله: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ بيان واضح عن الذي أنكر من قوله ما وصفنا، وقوله: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ يقول تعالى ذكره:

بل إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لايكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم؛ فلذلك أهنتكم، ولا تحاضون على طعام المسكين.

واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه من أهل المدينة أبو جعفر وعامة قراء الكوفة: بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون بالتاء أيضًا وفتحها وإثبات الألف فيها بمعنى ولا يحض بعضكم بعضًا على طعام المسكين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة وعامة قراء المدينة بالتاء وفتحها وحذف الألف، ولا تحضون بمعنى ولا تأمرون بإطعام المسكين، وقرأ ذلك عامة قراء البصرة يحضون بالياء وحذف الألف بمعنى ولا يكرم القائلون ﴿ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) ﴾.

وكذلك يقرأ الذين ذكرنا من أهل البصرة يكرمون، وسائر الحروف معها بالياء على وجه الخبر عن الذين ذكرت، وقد ذكر عن بعضهم أنه قرأ تحاضون بالتاء وضمها وإثبات الألف، بمعنى ولا تحافظون، والصواب من القول في ذلك عندي أن هذه قراءات معروفات في قراءة الأمصار أعني القراءات الثلاث صحيحات المعاني فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) ﴾ يقول تعالى ذكره: وتأكلون أيها الناس الميراث أكلاً لماً يعني أكلاً شديداً لا تتركون منه شيئًا، وهو من قولهم: لممت ما على الخوان أجمع، أنا ألمه لماً إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثني عمرو بن سعيد بن يسار القرشي قال: ثنا الأنصاري عن أشعث عن الحسن ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أي الميراث، وكذلك في قوله: ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ يقول: تأكلون أكلاً شديداً، حدثني يعقوب قال: ثنا ابن علية عن يونس عن الحسن في قوله: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ قال: نصيبه ونصيب صاحبه.

حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى وحدثني الحرث قال: ثنا الحسن قال: ثنا ورقاء جميعًا عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله: ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ قال: اللم السف لف كل شيء، حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ أي شديدًا، حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ يقول أكلاً شديدًا، حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾ قال الأكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده، ولا يسأل فأكل الذي له والذي لصاحبه كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار وقرأ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ١٢٧] أي لا تورثونهن.

أيضًا ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ يأكل ميراثه وكل شيء لا يسأل عنه ولا يدري أحلال أو حرام، حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾ يقول سفا، حدثني ابن عبد الرحيم البرقي قال: ثنا عمرو بن أبي سلمة البستي عن زهير عن سالم قال: قد سمعت بكر بن عبد الله يقول في هذه الآية ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾ قال اللم الإعتداء في الميراث يأكل ميراثه وميراث غيره.

والقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٠ - ٢٣] يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وتحبون جمع المال أيها الناس واقتناءه حبًا كثيرًا شديدًا من قولهم قد جم الماء في الحوض إذا اجتمع، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

فلما وردن الماء زرقًا جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن عليّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ يقول شديداً.

وفي الدر المنثور (ج٨ ص٥٠٩):

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ قال: الميراث ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال: نصيبه ونصيب صاحبه، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال سفاً، وفي قوله: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ قال شديداً.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال: أكلاً شديداً، وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ قال: كثيراً،

قال: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم، أما سمعت قول أمية بن خلف: إن تغفر اللهم تغفر جمًا، وأي عبد لك لا ألما، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة بن عبد الله المزني في قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ قال: الميراث، ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال: شديداً، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ قال شديداً.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال: اللم اللف وفي قوله: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ قال: الجم الكثير. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ قال: من طيب أو خبيث، وفي قوله: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ قال: فاحشاً.

وأخرج عبد بن حميد عن كعب رضي الله عنه في قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ قال: يأكل نصيبي ونصيبك، وأخرج ابن جرير عن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ قال: كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد رضي الله عنه في الآية قال: الأكل اللم الذي يلم كل شيء يجده لا يسأل عنه يأكل الذي له والذي لصاحبه لا يدري أحلالاً أم حراماً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا ومال وارثه أحب إليه من ماله**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلاَّ وماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**ليس لك من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت**».

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿**كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ**﴾ بالتاء ورفع التاء، ولا تحاضون ممدودة منصوبة التاء بالألف غير مهموزة، وتأكلون التراث بالتاء أكلاً لماً مثقلة، وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النّبي ﷺ يقرأ ﴿**كَلاَّ بَل لاَّ يُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا يَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَيَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)**﴾ الأربعة بالياء.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان النّبيّ ﷺ يقرأ: ﴿**كَلاَّ بَل لاَّ يُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا يَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)**﴾ إلى قوله: ﴿**وَيُحِبُّونَ الْمَالَ**﴾ بالياء كلها. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿**إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**﴾ قال: تحريكها، وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال: تحمل الأرض والجبال فيدك بعضها على بعض. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ قال: صفوف الملائكة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿**وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ قال: جاء أهل السموات كل سماء صفًا. وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية تغير رسول الله ﷺ وعرف في وجهه حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، فسأله عليّ فقال: «**جاء جبريل فأقرأني هذه الآية ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾**»، فقيل: وكيف يجاء بها؟ قال: «**يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع**».

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«هل تدرون ما تفسير هذه الآية ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ قال: «إذا كان يوم القيامة تقاد جهنم».

وفي أسرار ترتيب القرآن (ج١ ص١٥١):

سورة البلد أقول: وجه اتصالها بما قبلها أنه لما ذم فيها من أحب المال وأكثر التراث، ولم يحض على طعام المسكين ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة.

وفي تفسير الثعالبي (ج٤ ص٤١٢):

وقوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله وإهانته لعبده، وجاء هذا التوبيخ في الآية لجنس الإنسان؛ إذْ قد يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع، وابتلاه معناه اختبره، ونعّمه أي جعله ذا نعمة، وقدر بتخفيف الدال بمعنى ضيق ثم قال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ ردًا على قولهم ومعتقدهم، أي ليس إكرام الله تعالى وإهانته كذلك، وإنما ذلك ابتلاء، فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويُطيع، ومن ابتُلي بالفقر أن يشكر ويصبر، وأما إكرام الله فهو بالتقوى، وإهانته فبالمعصية، وطعام في هذه الآية بمعنى إطعام، ثم عدد عليهم جدهم في أكل التراث؛ لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد، وإنما كان يأخذ المال من يقاتل ويحمي الحوزة، واللم الجمع واللف.

وفي تفسير أبي السعود (ج٩ ص١٥٧):

سورة الفجر (١٨ - ٢٣) معنى الإنسان إذ المراد هو الجنس، أي بل لكم أحوال أشد شرًا مما ذكر، وأدل على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به، وقرئ: لا

يكرمون ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتحاضون أي لا يحض بعضكم بعض ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي على إطعامه، وقُرئ تحاضون من المحاضة، وقرئ يحضون بالياء والتاء ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي الميراث وأصله وراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام، فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرص وشره، وقُرئ يحبون بالياء ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع، أي إذا دكت الأرض دكًا متتابعًا، حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبثاً، وقيل: الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية، فالمعنى إذا سويت تسوية بعد تسوية، ولم يبقَ على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء، وأيًا ما كان فهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من أحكام هيبته وسياسته، وقيل: جاء أمره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي مصطفين أو ذوي صفوف؛ فإنه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء فيصطفون صفًا بعد صف، بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩١] قال ابن مسعود ومقاتل: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير، وقد رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعًا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت، والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ أي يتذكر ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه على أن

الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة.

تفسير البغوي (ج٤ ص٤٨٥):

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر: فقدر بتشديد الدال، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان أي ضيق عليه رزقه، وقيل: قدر بمعنى قتر، وأعطاه قدر ما يكفيه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أذلني بالفقر، وهذا يعني به الكافر تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته.

قال الكلبي ومقاتل: نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر فرد الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: ﴿كَلاَّ﴾ لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره، فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته.

قرأ أهل الحجاز والبصرة: أكرمني وأهانني بإثبات الياء في الوصل، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء، والآخرون يحذفونها وصلاً ووقفًا ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ قرأ أهل البصرة: يكرمون ويحضون ويأكلون ويحبون بالياء فيهن، وقرأ الآخرون بالتاء لا تكرمون اليتيم، لا تحسنوا إليه، وقيل: لا تعطونه حقه، قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيمًا في حجر أمية بن خلف وكان يدفعه عن حقه.

﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا تأمرون بإطعامه، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة: تحاضون بفتح الحاء وألف بعدها أي لا يحض بعضكم بعضًا عليه ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي الميراث ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ شديدًا يأكل نصيبه ونصيب غيره؛ وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون نصيبهم، قال ابن زيد: الأكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل عنه أحلال هو أم حرام، ويأكل الذي له ولغيره يُقال: لممت على الخوان إذا أتيت ما عليه فأكلته.

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيرًا يعني يحبون جمع المال ويولعون به، يُقال: جم الماء في الحوض إذا كثر واجتمع ﴿ كَلاَّ ﴾ ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، وقال مقاتل: أي لا يفعلون ما أُمروا به من إكرام اليتيم وإطعام المسكين، ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم، فقال عز من قائل: ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ مرة بعد مرة وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر، فلم يبقَ على ظهرها شيء.

وفي فتح القدير (ج٥ ص٤٣٩):

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أصله الوراث فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما في تجاه ووجاه والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، وكذلك أموال النساء؛ وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ أي أكلاً شديدًا، وقيل: معنى لماً جمعاً من قولهم: لممت الطعام إذا أكلته جميعًا. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم وكذا قال أبو عبيدة، وأصل اللم في كلام العرب الجمع، يُقال: لممت الشيء ألمه لماً جمعته، ومنه قولهم: لم الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره، ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب

قال الليث: اللم الجمع الشديد، ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة، وللآكل يلم الثريد فيجمعه، ثم يأكله، وقال مجاهد: يسفه سفًا. وقال ابن زيد: هو إذا أكل ما له ألم بمال غيره، فأكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب.

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي حبًا كثيرًا، والجم الكثير، يُقال: جم الماء في الحوض إذا كثر واجتمع والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء، ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر، فقال: ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم، ثم استأنف سبحانه فقال: ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر، والدك الكسر والدق، والمعنى هنا أنها زلزلت وحركت تحريكًا بعد تحريك قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت.

وفي زاد المسير (ج٩ ص١٢٠):

قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾ قال ابن قتيبة: التراث الميراث والتاء فيه منقلبة عن واو كما قالوا تجاه والأصل وجاه، وقالوا: تخمة والأصل وخمة ولماً أي شديداً وهو من قولك لممت بالشيء إذا جمعته، وقال الزجاج: هو ميراث اليتامى.

وفي روح المعاني (ج٣٠ ص١٢٧):

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي الميراث وأصله وراث، فأُبدلت الواو تاء كما في تخمة وتكأة ونحوهما ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾ أي ذا لم أو هو نفس اللم على المبالغة، واللم الجمع، ومنه قول النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه　　　على شعث أي الرجال المهذب

والمراد به هنا الجمع بين الحلال والحرام وما يحمد وما لا يحمد، ومنه قول الحطيئة:

إذا كان لما يتبع الذم ربه　　　فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

يعني أنكم تجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم ويروى أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد فيأكلون نصيبهم ويقولون لا يأخذ الميراث إلاّ من يقاتل ويحمي الحوزة. هذا وهم يعلمون من شريعة إسماعيل عليه السلام أنهم يرثون، فاندفع ما قيل أن السورة مكية وآية المواريث مدنية، ولا يعلم الحل والحرمة إلاّ من الشرع، فإن الحسن والقبح العقليين ليسا مذهبًا لنا.

وقيل: يعني تأكلون ما جمعه الميت المورث من حلال وحرام عالمين بذلك فتلمون في الأكل بين حلاله وحرامه، وفي الكشاف: يجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعًا جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها كما يفعله الوارث البطالون وتعقب بأنه غير مناسب للسياق ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا

جَمًّا﴾ أي كثيراً كما قال ابن عباس، وأنشد قول أمية:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

والمراد أنكم تحبونه مع حرص وضره، ﴿كَلاَّ﴾ ردع لهم عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى آخره استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع، والدك قال الخليل: كسر الحائط والجبل ونحوهما، وتكريره للدلالة على الاستيعاب، فليس الثاني تأكيداً للأول، بل ذلك نظير الحال في نحو قولك: جاءوا رجلاً رجلاً، وعلمته الحساب.

بداية التراث

الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، والعوالم في هذا الوجود ثلاثة: عالم البشر، وعالم الجن والشياطين، وعالم الملائكة الأبرار. ولكل عالم من هذه العوالم الثلاثة خصائصه، وتنقل لنا الآيات البينات مشهداً مما حدث وكان له علاقة وثيقة بهذا التراث الإنساني على ظهر هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٣٠) ﴾ [البقرة: ٣٠]، والملائكة لا تعلم إلاَّ ما أُعلمت ولا تسبق بالقول.

قال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الإستعظام والإكبار؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم، فأفسدوا وسفكوا الدماء؛ فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال، فمن حينئذ دخلته العزة فجاء قولهم: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا** ﴾ على جهة الاستفهام المحض.

قال سعيد بن جبير: إنما سُمي آدم؛ لأنه خُلق من أديم الأرض، وإنما سُمي إنسانًا؛ لأنه نسي. ذكره ابن سعد في الطبقات.

قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة: ٣١]، قال ابن منداد: في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلاً، كذلك قال ابن عباس: علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب، وقيل: علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، هذا كذا وهو يصلح لكذا.

قال القرطبي: الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام، والقرآن يشهد له، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته، وبهذا جاءت السنة، قال ﷺ: «**وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة**».

ولما لقصة آدم من ارتباط وثيق بالتراث الإنساني، ننقل طرفًا مما يتعلق بهذه القصة.

قال الصابوني في النبوة والأنبياء:

قصة آدم عليه السلام هي قصة البشرية بأسرها، وحياته حياة هذا الوجود بأكمله، منذ أن أراد الله - جلّت عظمته - لهذه الدنيا أن تُعْمرَ، ولهذا الوجود أن يَظْهر، ولهذه الحياة أن تكتمل وتزْدان بظهور هذا الإنسان ..

إنها قصة الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتنا، قصة الوجود بأجمعه منذ أن ظهرت هذه الكتل البشرية على ظهر هذا الكوكب الأرضي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، قصة الأحقاب الطويلة، والأجيال التي مرّت على هذا العالم فعاشت فيه ثمّ رحلت عنه، مخلّفةً وراءها هذا المظاهر والآثار البشرية.. ولسان حالها يقول:

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

العبرة من خلق آدم:

لم يكن خلق آدم من تراب، ثم تناسل ذريته من بعده أمرًا عاديًا طبيعيًا.. إنما هو أمر هام، وخلق عظيم، فيه تجلّت مظاهر القدرة الربانية، والعظمة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون، إنه منتهى الإبداع والإعجاز، فإن أهل الأرض جميعًا لو اجتمعوا على خلق ذبابة أو بعوضة لما استطاعوا، فكيف بإنسان له عقل وسمع وبصر وإدراك!! فتبارك الله أحسن الخالقين، إنها القدرة الإلهية الفائقة التي تخلق من العدم وجودًا، وتجعل من الضعف قوة، ومن السكون حركة، ومن الجماد حياة وروحًا، فإذا التراب يتحرك، وإذا الطين يتكلّم، وإذا الجماد بشر سوي، في أجمل

صورة وأحسن تقويم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ ﴾ [الروم: ٢٠].

هذا هو آدم وهذه هي ذريته، بل هذه قصته وقصة الخليقة أجمعين، مخلوق يخلقه الله من طين، ثم يخلق ذريته من نطفة من ماء مهين، ويستخلف هذه الذرية في الأرض، ويملّكها الوجود، ويجعل هذا الإنسان خليفة عن الله، فإذا بهذا المخلوق الضعيف يستعلي على ربه، ويُريد أن ينازعه في ملكه، ويتجرأ على عصيان أوامر الله، أليس عجيبًا أن ينكر وجود الله من لم يكن بالأمس شيئًا مذكورًا!! أليس عجيبًا أن يكفر بنعم الله من وجوده برهان على وجود الله!! وصدق الله حيث يقول: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝٢٣ ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٣]، يا عجبًا ممن ينكر وجود الله، وكل ذرة في الكون ناطقة بوجوده!!.

يا عجبًا ممن يكذب بآيات الله، وكل حركة في الوجود شاهدة بوحدانيته وعظيم قدرته!.

يا عجبًا ممن يغمض عينيه حتى لا يرى نور الشمس الساطع، ويصم أذنيه حتى لا يسمع صوت الكون الرائع!.

وحقًا كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦ ﴾ [الحج: ٤٦]، ولله در القائل حيث يقول:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

أفليست قصة آدم قصة عجيبة؟.. أفليس وجود هذا الإنسان في هذا الكون

يستدعي منه التبصّر والإنتباه؟ أفليس خلقه من تراب وطين يستلزم منه الإيمان واليقين ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⁽⁵⁾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ⁽⁶⁾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⁽⁷⁾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⁽⁸⁾** ﴾ [الطارق: ٥ - ٨]!.

آدم أول البشر:

حدثنا القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام، وأخبرنا أنه أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود، فهو إذاً أبو الخلائق، وأصل هذا العالم، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق، أما من غير البشر فقد كان هناك ملائكة قبله، وكذلك من الجن مخلوقات قبله؛ ولهذا لما اقتضت حكمة الله الأزلية خلق هذا الإنسان، أخبر الباري جلّ وعلا الملائكة بذلك وأخبرهم بأنه سيكون من ذريته أشخاص يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، فتعجبوا وسألوا عن الحكمة الإلهية في خلق هذا الإنسان، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⁽³⁰⁾** ﴾

[البقرة: ٣٠].

قال العلامة القرطبي في تفسير الجامع لأحكام القرآن: «قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلاّ ما علمها الله، ولا تسبق بالقول، لأن قوله تعالى: ﴿ **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٧] خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا** ﴾ والجواب: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال، فجاء قولهم: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا** ﴾ على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا؟ وقيل: إن الله تعالى أعلمهم

أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه؟ أو التعجب من عصيان من يستخلفه الله في أرضه.. انتهى كلام القرطبي بتصرف.

وعلى هذا ينبغي أن نفهم أن سؤال الملائكة لم يكن اعتراضًا على خلق الله أو على مشيئته وإرادته، وإنما كان بغرض الاستفسار عن الحكمة؛ لأن الملائكة لا يعصون أمر الله ولا يمكن أن يتصور منهم المخالفة والإباء.

الأدلة على أن آدم أول البشر:

لقد جاءت النصوص القرآنية مؤيدة أن آدم عليه السلام هو أول المخلوقات، وأنه لم يكن قبله أحد من هذا النوع البشري.. وكذلك الكتب السماوية كلها قد أجمعت على هذا، وبذلك تضافرت الأخبار عن جميع أهل الملل والأديان بأن آدم أبو الخليقة، وأنه أول مخلوق من البشر على الإطلاق، أما الأدلة في القرآن الكريم فكثيرة نكتفي بذكر بعضها وهي كما يلي:

أولاً - تكرّر النداء للبشر بنسبتهم إلى أبيهم آدم عليه السلام مثل قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)** ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثانيًا - أخبر الله سبحانه وتعالى بأن البشر جميعًا هم من أصل واحد ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً** ﴾ [النساء: ١]. وقال تعالى: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [الزمر: ٦].

وليس المراد من النفس الواحدة إلاّ آدم، كما أن المراد من قوله ﴿ **زَوْجَهَا** ﴾ ليس إلاّ حواء؛ لأنهما أصل الخليقة، وقد بينت الآية الكريمة أن الله قد بثّ أي نشر

وخلق منهما الرجال والنساء الكثيرين فمنهما توالد البشر وتناسلوا وكثروا، ثم تفرقوا في الأرض.

ثالثًا -ذكر الله تعالى أن كل مخلوق خلق من أبوين بطريق التزاوج إلاَّ آدم فقد خلقه الله بيده من طين، ثم نفخ فيه من روحه، فآدم لم يخلق من أبوين، إنما جاء نموذجًا فردًا كما قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)** ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى في قصة امتناع إبليس عن السجود: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)** ﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)** ﴾ [السجدة: ٧، ٨]، السلالة: من السّل وهو استخراج الشيء من الشيء، يُقال: سللت الشعر من العجين، فالنطفة سلالة لأنها تستل من الظهر. [أفاده القرطبي].

رابعًا : التصريح بذكر آدم وأنه أبو البشر وذلك كما في حديث الشفاعة المروي في الصحيحين وفيه أن الناس يلتمسون من يشفع لهم من هول يوم الزحام فيذهبون إلى آدم يسألونه الشفاعة فيقولون له: «**يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟ فيقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري..**» الحديث.

هل نظرية داروين تعارض القرآن؟

ومن هذه النصوص الكريمة التي ذكرناها - من الكتاب والسنة - يتبين لنا بجلاء ووضوح بطلان نظرية داروين التي تجعل أصل البشر ليس هو آدم،وإنما تفرع الناس على زعمه.. من سلالات أخرى، وانحدروا من أصل آخر يختلف عن أصل آدم..

إنه يعتقد بأن الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة، ظهرت على سطح الماء ثم تحولت إلى حيوان صغير، ثم تدرّج هذا الحيوان فأصبح ضفدعًا، فسمكة، فقردًا، ثم ترقّى هذا القرد، وتمدّن، فصار إنسانًا.

فالإنسان في نظره قرد متمدّن، وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطوّر ويتغيّر فيصبح إنسانًا ذكيًا بعد أن كان قردًا غبيًا.. وهكذا جعل داروين نسبنا متصلاً بالحيوان وغشيرتنا منحدرة من الضفادع والفئران، وجدّنا هو (الشمبانزي)؛ لأنه أقرب القردة شبهًا بالإنسان.. هذه هي خلاصة نظرية داروين التي تسمى (نظرية النشوء والتطور) وهي تناقض صريح القرآن، وتعارض جميع ما جاءت به الكتب السماوية من أنّ آدم عليه السلام هو أبو البشر، ومنه تناسل جميع الخلق، وأنه هو الأب الأكبر.

ولعلّ هذه النظرية الخرقاء تنطبق على داروين نفسه، وأتباعه المقتنعين بفكرته، المؤمنين بنظريته، المتحمسين لها، فهم - وحدهم - القردة، أما بقية البشر فمن آدم انحدروا، وإليه ينتسبون.. وهل هناك إنسان عاقل يرضى أن يكون من فصيلة (الغوريلا) و(الشمبانزي) وسائر أنواع القردة، ويتبرأ من نسبه إلى آدم عليه السلام؟! اللهم إلا أن يكون (داروينيًا) أحمق سفيه الرأي والعقل، فاقد الإدراك والشعور، ثم كيف يكون الأصل البشري منحدراً من القردة، والله تبارك وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري فقال وهو أصدق القائلين:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]، ويقول جلّ ثناؤه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، فهل من تكريم الله لبني آدم أن يجعلهم من صنف القردة؟ وهل من تفضيله إيّاهم أن يلحق نسبهم بالقردة أو يجعلهم من فصيلة الشمبانزي والغوريلا؟ وإذا قلنا لأتباع داروين: يا بني القردة والخنازير. فهل سيرضون عنّا أم سيغضبون؟!

رب إنّ الـهـدى هـداك   وآياتك حق تهدي بها من تشاء

وإذا كانت نظرية (التّطور) صحيحة، فلماذا لم يتطور سائر القردة ويتمدنوا ونحن نعيش في عصر التطور والتمدن؟!

خطأ نظرية داروين من الناحية العلمية:

لقد نسف الدكتور حليم عطية مذهب داروين، وأبطل نظرية (النشوء والتطور) في كتابه الرائع الذي ألّفه تحت عنوان « تصدّع مذهب داروين، والإثبات العلمي لعقيدة الخلق » ونحن ننقل بعض فقرات منه، تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال في كتابه المذكور: « كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم، وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل، والدب والنمر، وغيرها من الحيوانات المفترسة؟! ولو حدث شيء من التطور والإرتقاء – حسب ما يدّعي داروين – للزم أن تتطوّر القردة الموجودة في زماننا، وتترقّى كما ترقّى أسلافها من قبل، وكما تمدّنوا فأصبحوا بشراً بعد أن كانوا قردة؟ وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصنير البرغوث (فيلاً) وأن تنقلب النملة (نعجة) ويصبح الهر (أسداً) بمرّ القرون وكرّ الدهور؟! ».

الغرض الحقيقي من نظرية داروين:

بقي أن نعرف أن هذه النظرية (الخرقاء) عميقة الجذور، فهي تهدف إلى غرض معين هو (إنكار وجود الخالق جلّ وعلا) فإن داروين اليهودي الخبيث يعتقد بألاّ خالق لهذا الوجود، ولا صانع لهذا العالم، وأن الطبيعة هي التي أوجدت هذا العالم، وخلقت هذا الإنسان، فهو إذاً دهري ملحد، متنكر للأديان السماوية، ولليهودية التي ينتمي إليها، كافر بكل القيم الروحية التي جاءت بها الشرائع السماوية .. ولا عجب أن يأتينا بمثل هذا الهراء والافتراء، فتلك هي طبيعة اليهود في القديم والحديث، فكل دعوة للإلحاد أو للإفساد نجد وراءها يداً يهودية خبيثة.

كما أن (كارل ماركس) مؤسس المبدأ الشيوعي يهودي الأصل، وكذلك (فرويد) الإباحي الفاجر يهودي العِرق والدم.. وكل هؤلاء الخبثاء هم من تلامذة إبليس ومن أعوان الدجال، يتعاونون لهدم الشرائع والأديان، ويعملون ليل نهار لبذر بذور الإباحية والإلحاد، وصدق الله حيث قال: ﴿ **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤].

انخداع بعض المثقفين بهذه النظرية:

ولعل بعض المثقفين، ممن لم يتمكنوا من العلم، ولم يحصلوا منه إلاّ على قشور لا تسمن ولا تُغني من جوع، يعتقدون بصحة هذه النظرية العجفاء، وينخدعون ببريقها الفلسفي ويعتبرونها نظرية مسلّمة لا تحتاج إلى نقاش أو جدال؛ لأنها نظرية مشهورة!!.

ونحن نسارع القول إلى هؤلاء بأن هذه النظرية هي مجرد (افتراضيات) و(أوهام) وأنها لم تصل إلى الدرجة العلمية المقطوع بصحتها، وشهرة هذه النظرية لا تجعلها نظرية صحيحة مقبولة في منطق العلم والعقل، و« إبليس » اللعين له شهرة عظيمة، فهل معنى هذا أنه على سداد وصواب؟!! ونقول لهؤلاء المفتونين بالآراء الغربية: إن كثيرين من علماء الغرب أنفسهم قد استسخفوا هذه النظرية، وأبطلوها بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ومن أظهر ما ألّف للرد على هذه النظرية السفسطائية كتاب « العلم يدعو للإيمان » لمؤلفه الكبير كريس موريسون رئيس المجمع العلمي في أمريكا، وكتاب « الله يتجلّى في عصر العلم » المترجم إلى اللغة العربية ، وهو بأقلام مجموعة من كبار علماء الطبيعة من الأساتذة المختصين. وكلا الكتابين يهدف إلى إثبات وجود المدبّر الصانع الحكيم، ويردّ على القائلين بنظرية التطور، أو القائلين بأنّ « الطبيعة » هي التي أوجدت هذا الكون، وهذه الحياة.

كما ظهر كتاب جديد تحت عنوان « الإسلام ونظرية داروين » لمؤلفه الأستاذ

الفاضل والكاتب البارع السيد محمد أحمد باشميل، يستحسن الرجوع إليه في هذا الموضوع؛ فإنه قد جمع فأوعى، وأتى بآراء كثيرة لكبار العلماء الغربيين في نقض هذه النظرية الفاسدة.

ونقول من جهة أخرى: إننا نحن المسلمين نعتقد بأنّ كل ما خالف القرآن الكريم المقطوع بصحته وصدقه، فإنه باطل مردود على قائله، لا يمكن أن يقبله مسلم مهما كان حال قائله، ومهما بلغ من الرقي والعلم، فكيف بهذه النظرية الخرقاء التي لا تستند على دليل أو برهان؟!.

رأي وجيه للأستاذ النجار:

ويستحسن أن ننقل هنا رأيًا وجيهًا للأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» فقد نقل فيه عن بعض علماء الألمان رأيًا على نقيض رأي داروين تمامًا، خلاصته: أن القرد إنسان متقهقر، وليس الإنسان قردًا مترقيًا، ثم قال: وعلى الجملة فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب، فإنها لا تكون حجة لأحد أبدًا.

ثم قال: «هبوا أن الطبيعة (١) قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزًا عنيفًا بغير شفقة، وزلزلتها زلزالاً شديدًا، فدكّت فيها كل بناء شامخ، وانهار فيها كل صرح باذخ، وألحقت القصور بالأكواخ، وأزالت معالم الدنيا ودورها ومصانعها وقصورها، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل من بني الإنسان، فهل يتصور أن الغوريلا، والشمبانزي وسائر الفصيلة القردية تهبّ لعمران الأرض كما عمرها الإنسان، ويكون فيها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون، ويقوم فيها أمثال «سقراط» و«أفلاطون» ويقوم بينهم العلماء فيرسمون الكرة الأرضية، ويخترعون الآلات الهندسية، ويأتون بالعجائب فيوجدون الراديو والتليفزيون، والطائرات والغواصات، إنني كلما فكرت في ذلك جزمت بأن ذلك محال، وقطعت بأن القرد سيبقى قردًا على مدى الدهر، وأن القردة لا تلد إلاّ قردة».

(١) ننبه على أن نسبة الغضب والزلزلة والدك.. وغيرها من الأفعال للطبيعة مخالف للشرع.

المراحل التي مرّ بها خلق آدم:

أولاً - المرحلة الترابية: لقد كان أساس تكوين آدم عليه السلام، ومصدر نشأته إنما هو التراب، فحين تعلّقت إرادة الله جلّ جلاله في خلق آدم أمر الملائكة أن يجمعوا ترابًا من أنحاء الأرض، ومن ألوان التربة العديدة، فجمعوا، فكان هذا التراب هو الأساس في تكوين آدم عليه السلام، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** (٢٠) ﴾ [الروم: ٢٠] وجاء في الحديث الصحيح: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك**».

ثانيًا - المرحلة الطينية: أخذ هذا التراب ثم جبل بالماء فأصبح طينًا لازبًا (أي متماسكًا) يلتصق بعضه ببعض، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ** (١١) ﴾ [الصافات: ١١]، بقي آدم مدة طويلة من الزمن في الصورة الطينية تقدّر بأربعين عامًا حتى جفّ ويبس، فأصبح له صوت يُشبه الفخّار إذا نقر باليد، وهو المراد من لفظ الصلصال، كما قال تعالى: ﴿ **خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** (١٤) **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** (١٥) ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

ثالثًا - المرحلة التكوينية: ثم توجّهت إرادة العلي الكبير لجعل هذا الطين بشرًا سويًا، وإنسانًا سميعًا بصيرًا، فنفخ فيه من روحه، فإذا هو إنسان كريم وخلق عظيم في أحسن صورة وأكمل تقويم، وهذه المرحلة هي آخر المراحل في خلق آدم عليه السلام، وهي التي تُسمى المرحلة التكوينية، وقد وردت بعض الآثار تدل على أن آدم بقي في المرحلة التكوينية أي قبل نفخ الروح مدة طويلة تقدر بأربعين سنة ولعلّ الآية الكريمة في سورة الدهر تُشير إلى هذه المدة التي بقى فيها آدم وهي قوله تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** (١) ﴾ [الإنسان: ١] والمراد بالإنسان هنا إنما هو آدم عليه السلام.

ذرية آدم: أما ذرية آدم وبقية البشر فقد كان خلقهم عن طريق التناسل والتزاوج، وقد مروا بأدوار في الخلق تختلف عن الأدوار التي مرّ بها آدم، وهي: النطفة، العلقة، المضغة، ثم مرحلة نفخ الروح ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ** ﴾ [الحج: ٥].

سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

بعد أن نفخ الله تبارك وتعالى الروح في آدم، أمر الملائكة بالسجود له، وكان ذلك السجود سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر أحداً بالتوجه بالعبادة إلى سواه، ويرى بعض المفسرين أن السجود إنما كان في حقيقته لله عز وجل ولم يكن لآدم، وإنما كان آدم كالقبلة بالنسبة للمصلي، فالمصلي يتوجه إلى القبلة وصلاته وسجوده لله رب العالمين، وكذلك كان الأمر بالنسبة لآدم عليه السلام، حيث جعله الله قبلة للملائكة الأطهار.

ولقد كان ذلك الأمر الإلهي احتفالاً بتمام تكوين آدم، وفي هذا إظهار لعلو شأنه، كما أنّ فيه تكريمًا لهذا النوع البشري، حيث أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام، وقد خصّ الله آدم بأربعة مزايا، هي آية الفضل وعنوان الشرف الرفيع وهي:

أولاً - خلقه الله بيده.

ثانيًا - نفخ فيه من روحه.

ثالثًا - أمر الملائكة بالسجود له.

رابعًا - علّمه أسماء كل الأشياء.

قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)** ﴾ [البقرة: ٣١] وجاء في الحديث الشريف ما يؤيد هذه المزايا والأوصاف الجليلة في قصة موسى مع آدم حين قال له: «**يا آدم أنت أبو البشر، الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، ما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة..**» الحديث.

ولما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم سجدوا جميعًا امتثالاً لأمر الله إلاّ إبليس، فقد امتنع عن السجود واستكبر وكان من الكافرين، وادّعى أنه أفضل من آدم وأشرف منه، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ وقال قولته الخبيثة: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص: ٧٦]، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤].

هل إبليس من الملائكة:

ظاهر النصوص الكريمة يشير إلى أن إبليس كان من الملائكة بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [الكهف: ٥٠] وإلى هذا الرأي ذهب بعض العلماء، وقالوا: إنه لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كلف بالسجود لآدم، وحجتهم في ذلك الاستثناء المذكور في الآية الكريمة، وذهب المحققون من العلماء إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، واستدلوا ببضعة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً – لو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله؛ لأن الملائكة لا يعصون أمر الله كما ورد في القرآن: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

ثانيًا – الملائكة من نور، وإبليس من نار، وهو يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] فلو كان من الملائكة لقال خلقتني من نور وخلقته من طين، وفي الحديث الصحيح: «**خُلق الملائكة من نور، وخُلقت الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».

ثالثًا – ورد نص صريح في سورة الكهف يدل على أن إبليس كان من الجنّ وأنه امتنع عن السجود لآدم لفسقه وضلاله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وتأويل بعض المفسّرين أن لفظ الجنّ هنا يراد به طائفة من الملائكة يسمون الجن تأويل بعيد، والذي تطمئن إليه النفس، ويرتاح له الوجدان أن إبليس اللعين لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن والشياطين؛ وذلك لأن الملائكة لا تتناكح ولا تتناسل، والله تعالى قد أخبر عن إبليس بأنّ له ذرية فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان من الملائكة لما كان له ذرية ونسل، وقد قال الحسن البصري – رحمه الله – : «لم يكن إبليس من الملائكة طرف عين، وإنما هو من الجن».

وقد ذكر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» عن بعض العلماء أنه قال: «كان إبليس من الجن، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة، فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أُسر فأخذته الملائكة إلى السماء فكان هناك، فلما أُمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه فطرده الله من رحمته» والله تعالى أعلم.

خلق حواء:

بعد أن خلق الله تعالى آدم أسكنه الجنة، فكان يمشي فيها وحيداً فريداً ليس معه زوج ولا أنيس، فنام نومة ثم استيقظ فإذا عند رأسه امرأة خلقها الله له؛ لتسكن إليها نفسه، تُسمّى حواء، وسُميت بهذا الاسم؛ لأنها خُلقت من حيّ. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها خُلقت من أحد أضلاع آدم وهو نائم دون أن يحس بألم، واستدل بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، والله تعالى أعلم هل كان خلقها استقلالاً أم بواسطة آدم.

وتدل ظواهر الآيات الكريمة على أن الجنة التي أسكن فيها آدم وحواء عليهما السلام هي جنة الخلد التي في السماء، وهذا رأي الجمهور من علماء أهل السنة، وذهب المعتزلة والقدرية إلى أن الجنة ليست جنة الخلد، وإنما هي جنّة في الأرض، وهي أرض عدن وشبهتهم أنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس، ولما وقعت فيها معصية آدم؛ لأنها جنة القدس.

أدلة الجمهور على أن الجنة هي جنة الخلد:

استدلّ الجمهور على أن الجنة التي كان فها آدم وحواء عليهما السلام هي جنة الخلد ببضعة أدلة أهمها:

(أ) أن الله سبحانه قد عرّف الجنة فقال: ﴿**اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ [البقرة: ٣٥]، وأل التعريف للمعهود في الذهن وهي جنة الخلد.

(ب) أمره تعالى بهبوط آدم يدل على أنها في السماء؛ لأن الهبوط يدل على العلو والإرتفاع ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ [البقرة: ٣٦].

(ج) وصف الله تعالى الجنة بأوصاف تدل على أنها جنة الخلد ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ** ﴿١١٨﴾ **وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

(د) ما ورد في حديث الشفاعة أن الناس يأتون آدم فيقولون: «**يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم..**» الحديث.

وباختصار فقد حكى القرطبي في تفسيره أن أهل السنة مجمعون على أنّ جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام.

تغرير إبليس بآدم عليه السلام:

وبعد أن سكن آدم وحواء الجنة أباح الله تبارك وتعالى لهما جميع أشجارها وثمارها إلاّ شجرة واحدة نهاهما عنها ابتلاءً منه جلّ وعلا، ولم يذكر القرآن الكريم هذه الشجرة ما هي أو ما اسمها؟ فلا حاجة إلى الخوض فيها بغير بيّنة ولا برهان، قال ابن كثير: «وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا» «انظر البداية والنهاية».

وقد حذّر الله تعالى آدم وحواء من كيد إبليس اللعين، ولكنهما نسيا ذلك سيّما بعد أن أقسم لهما إبليس الأيمان المغلّظة بأنه ناصح لهما، وأنهما إذا أكلا من هذه الشجرة فسيخلّدان في الجنة، وقال: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا**

أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما (عوراتهما) ثم أُهبطا إلى الأرض بسبب المخالفة، وقد قال بعض المفسّرين: إنّ آدم أكل من الشجرة متأولاً، اعتقاداً منه أن الله تعالى نهاه عن شجرة بعينها فأكل من جنسها غير تلك الشجرة، والصحيح أنه أكل من الشجرة ناسيًا الوعيد الإلهي ويدل عليه قوله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾** [طه: ١١٥] «انظر القرطبي».

قصة قابيل وهابيل ابني آدم:

ذكر المؤرخون وأهل العلم أن آدم عليه السلام رُزق من حواء أولادًا كثيرين وأنها وضعت له عشرين بطنًا في كل بطن ذكر وأنثى، فكان آدم يزوج كل ذكر من بطن بالأنثى من البطن الأخرى، ولا يزوج الذكر بالأنثى من بطن واحدة، فأراد هابيل أن يتزوج بأخت قابيل، وكانت أخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إيّاها فأبى، وقال: أنا أحق بأختي، فأمرهما أن يقرّبا قربانًا، فمن تقبّل قربانه أخذ تلك الأخت، فقرّب هابيل جذعة سمينة – وكان صاحب غنم – فقدّم أجود ما عنده، وقدهم قابيل حزمة من زرع رديء – وكان صاحب زرع – فقدّم أسوأ ما عنده، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب عند ذلك قابيل، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال له هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.. وكانت نهاية القصة أن أقدم قابيل على قتل أخيه هابيل فقتله فأصبح من الخاسرين قال تعالى: **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾** [المائدة: ٢٧، ٢٨]، وجاء في الحديث الشريف: «**لا تقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل**».

الحكمة من استخلاف آدم في الأرض:

ولاستخلاف آدم في الأرض حكمة جليلة أشارت إليها الآيات الكريمة في قصة خلق آدم عليه السلام.. هذه الحكمة ترمز إلى علم الله الواسع، وإرادته الأزلية الحكيمة، في عمارة الأرض بذرية آدم وبنيه، فلو لم يخلق الله تعالى هذه المخلوقات لما عمرت الأرض، ولما كانت هناك شعوب وأمم، وخلائق وأجيال، وهذا ما غاب عن علم الملائكة الأطهار، ولم يُدركوا حكمته الدقيقة حتى جلا الله تعالى لهم الأمر وأطلعهم على الأسرار في استخلاف هذا المخلوق الجديد، ذي الشأن العجيب، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [البقرة: ٣٠].

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» : ولا يخفى أن استخلاف آدم في الأرض، يشتمل على معنى سامٍ من الحكمة الإلهية، التي خفيت عن الملائكة.. فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض، لما عرفت أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة، فإنّ الملائكة ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذْ هم على وصف يُخالف وصف الإنسان، فما كانت السفن لتصنع، ولا الأرض لتزرع، ولا تعرف خواص الأشياء والمركبات الكيماوية، ولا الفوائد الطبيعية ولا الفلكية ولا المستحدثات الطبيّة، ولا الطبائع النفسية، ولا شيء من هذه العلوم الكثيرة التي تفني السنون ولا يدرك الإنسان لعلم منها نهاية.. فسبحانه وتعالى من عزيز حكيم.

هل آدم من الأنبياء؟:

من المقطوع به أن آدم عليه السلام من الأنبياء، وهو رأي جمهور العلماء لم يخالف فيه أحد، وإنما الخلاف هل هو رسول أم لا؟ ولمن أرسل؟

أما الأدلة على نبوته فقد وردت في الكتاب والسنة.. ولكنها في القرآن

الكريم لم تكن صريحة، فلم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء الكرام كإبراهيم وإسماعيل، وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة، وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه، وأحلّ له وحرّم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو معنى النبوة كما أسلفنا.

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، فيرى بعض العلماء أنه رسول وأنه أرسل إلى ذريته، ويرى الآخرون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان نبيًا، ويستدل هؤلاء بحديث الشفاعة الوارد في صحيح مسلم أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون له: **«أنت أول رسل الله إلى الأرض»**، فلو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول، والقائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، والله أعلم بحقيقة الأمر، والرأي الأرجح أنه من الرسل.

أما الأدلة على نبوته فهي:

أولاً - قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وظاهرٌ من الآية أن المراد الإصطفاء بالنبوة والرسالة.

ثانيًا - قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ٣٨]، ففي هذه الآية وعد من الله تعالى بالهدى، وإشعار بالرسالة.

ثالثًا - قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٢٢].

والظاهر أن اجتباء الله له وتوبة الله عليه، إنما هو اصطفاء الله إياه بالنبوة والرسالة، وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على نبوته صراحة وذلك في حديثين:

الأول- عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر»** [رواه الترمذي].

الثاني – عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله، ونبيّ كان؟ قال: «**نعم، نبيّ مكلّم**» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً**» [رواه أحمد].

لهذه الأدلة نرى علماء المسلمين متفقين على نبوته لم يخالف في ذلك أحد، والله تعالى أعلم.

شبهة حول نبوّة آدم:

وقد يقال: إذا كان آدم من الأنبياء فكيف عصى أمر الله، والأنبياء معصومون عن المعصية؟

والجواب عليه:

أولاً – إن ذلك حصل نسيانًا منه، لا قصداً وعمداً بدليل قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (١١٥) ﴾ [طه: ١١٥]، وهذا ما اختاره القرطبي.

ثانيًا – إن آدم عليه السلام قد تأول في أكله من الشجرة؛ لأنه ظنّ أن المراد من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ [البقرة: ٣٥] عين تلك الشجرة فأكل من شجرة أخرى من جنسها فوقع في المخالفة.

ثالثًا – أن أكله من الشجرة كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية، فلم يكن نبيًا حين أكل منها بدليل قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** (١٢٢) ﴾ [طه: ١٢٢].

ما الفرق بين الملائكة والجن؟

يعرف علماء التوحيد الملائكة بما يلي:

الملائكة: أجسام نورانية لطيفة، قادرة على التمثل والتشكل بأية صورة

أرادوا، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، وأنهم مجبولون على العبادة والطاعة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⁽٦⁾ ﴾ [التحريم: ٦]، وأنهم لا يتناسلون ولا يتناكحون ولهم قدرة خارقة، ولا تحكم عليهم الصورة.

وأما الجن: فهم أجسام نارية سفلية، مخلوقون من مارج من نار (أي من أخلاط نار صافية) وأنهم قادرون على التشكل بأية صورة أرادوا، وأنهم يتناسلون ولهم ذرية، وفيهم الذكر والأنثى، وهم مكلفون كالبشر، وفيهم المؤمن والكافر، وأنّ الصورة تحكم عليهم.

ومن هذا التعريف يتضح لنا بجلاء أن بين خلق الملائكة وبين خلق الجن تفاوتًا واضحًا، وتباينًا ظاهرًا في أصل الجبلّة والخلقة.

فالملائكة مخلوقون من نور، والجنّ مخلوقون من نار، يدل لذلك قول النّبيّ ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**» [رواه مسلم] وقوله تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ⁽٢٧⁾ ﴾ [الحجر: ٢٧].

والملائكة ليس لهم نسل ولا ذرية، بخلاف الجن، فإنهم يتناسلون ويتناكحون ولهم ذرية كما قال تعالى عن إبليس: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ⁽٥٠⁾ ﴾ [الكهف: ٥٠] فالملائكة يخلقهم الله تعالى خلقًا جديدًا مبتدءًا؛ لأنه ليس فيهم ذكر أو أنثى حتى يحصل التناسل، أما الجن ففيهم الذكر والأنثى، ويقع بينهم التناكح والتناسل كما هو الحال بين البشر.

والملائكة قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بالأشكال الجسمانية المحسوسة، فقد ثبت ذلك في النصوص العديدة من الكتاب والسنّة، قال تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⁽١٧⁾ ﴾ [مريم: ١٧].

وقال تعالى عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الأبرار: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ⁽٢٤⁾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ⁽٢٥⁾ ﴾

[الذاريات : ٢٤]، فقد دخلوا عليه في صورة رجال، وحين قدّم لهم الطعام امتنعوا عن الأكل، فأوجس منهم خيفة فأخبروه أنهم ليسوا بشراً، إنما هم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط.

وحين قدم الملائكة على نبي الله لوط عليه السلام جاءوه على صورة شباب مرد حسان، ممّا جعل السفهاء يطمعون بفعل الفاحشة بهم، حيث جاءوا يتسابقون إلى لوط عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ **وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** (٧٨) ﴾ [هود: ٧٨].

فالملائكة إذاً قادرون على التصور والتشكل بأي صورة شاءوا، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد، فسأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعن الساعة فأجابه الرسول عنها بالتفصيل، وأخيراً سأل الرسول أصحابه: «**أتدرون من السائل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

والجن أيضاً قادرون على التمثل والتشكل بأي صورة شاءوا، فقد اجتمعوا برسول الله ﷺ في صورة نفر من الرجال، وسمعوا القرآن، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** (٢٩) ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فهم يشبهون الملائكة من هذه الناحية، وهي قدرة التمثل والتشكل بأي صورة شاءوا، ولكنهم يختلفون عن الملائكة في أنهم تحكم عليهم الصورة بينما الملائكة لا تحكم عليهم الصورة، بمعنى أنّ الجني لو تصوّر وتشكّل في صورة إنسان أو طير، وصوّب إنسان سهماً نحوه فإن الجني يموت، كما لو قتله إنسان بسيف أو رمح، فيجري عليه حكم الصورة، بخلاف الملك فإنه لو تصوّر بصورة

ما فإنّ هذه الصورة لا تحكم عليه، فلا يقتل الملك إذا ما سدّد إنسان سهماً نحوه أو جنى عليه بجناية، فلا يناله شيء من الأذى فيما لو تشكّل بصورة إنسان أو غيره، ثم إنّ الملائكة يختلفون عن الجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم نزوع إلى الشر، وليس عندهم استعداد للمعصية، بل خلقوا على الإستقامة، وجبلوا على العبادة والطاعة كما قال تعالى: ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** (٢٠) ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وكما قال تعالى: ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** (٦) ﴾ [التحريم: ٦] .

وأما الجن ففيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فهم كالبشر في هذه الناحية كما قال تعالى عن إبليس: ﴿ **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في سورة الجن: ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا** (١٤) **وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** (١٥) ﴾ [الجن: ١٤، ١٥] وهم مكلفون كسائر البشر بالتكاليف الشرعية قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولهم رسل وأنبياء يبلغونهم أوامر الله ونواهيه كما قال تعالى: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** (١٣٠) ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فقوله تعالى: ﴿ **مِّنكُمْ** ﴾ يدل على أنّ هناك رسلاً من الإنس، ورسلاً من الجن، وأمّا رسالة محمد ﷺ فهي لجميع الخلق إنسهم وجنهم كما قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** (١) ﴾ [الفرقان: ١].

والجن مخلوقون قبل الإنس يدل لذلك قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** (٢٦) **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** (٢٧) ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧]، الحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر. والسموم: الريح الحارة القاتلة.

والجن يرون البشر بينما البشر لا يرونهم يدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]، ثم إنّ الملائكة يختلفون عن الجن في أنّ لهم قدرة عجيبة خارقة، فهم يستطيعون أن يقتلعوا الجبال، ويغوصوا البحار، ويقلبوا الأرض بأهلها، كما فعل الملائكة بقوم لوط ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، وكما اقتلع جبريل عليه السلام جبل الطور ورفعه فوق بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

[الأعراف: ١٧١].

وللملائكة أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة أو أكثر كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]، وفي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ رأى جبريل في صورته الحقيقية له ستمائة جناح قد سدّ الأفق.

الفرق بين الشياطين والجن:

والشياطين فرقة من الجن، وهم المردة العصاة، ورئيسهم إبليس اللعين عليه لعنة الله، فكل متمرد من الجن يسمّى شيطانًا... كما أن كل عاصٍ من الإنس يسمي فاسقًا، وكل جاحد يسمّى كافرًا، فكل شيطان جنيّ، وليس كل جني شيطانًا، قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج: ٣]، والله الموفق.

العبرة من قصة آدم عليه السلام:

ونستخلص من قصة آدم أبو البشر بعض العظات والعبر وأهمها ما يلي:

أولاً - أن الله سبحانه وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري حين خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة، وجعله خليفة في الأرض، وهذا تكريم لآدم وذريته.

ثانيًا – أن الله تعالى قادر على كل شيء فقد يجعل من الأمر الحقير أمرًا مهمًا وعظيمًا، فقد خلق آدم من تراب ثم جعله بشرًا سويًا، وأفاض عليه من أسرار قدرته وبدائع حكمته ما جعله أهلاً للإستخلاف في الأرض، كما علّمه أسماء كل الأشياء مما عجزت عنه الملائكة الأطهار.

ثالثًا – إنّ على الإنسان أن يحذر مكائد الشيطان، فقد كان السبب في خروج أبينا آدم من الجنة، وعداوته قديمة لنا منذ ظهور آدم ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾ [فاطر: ٦]، فلا ينبغي أن ننخدع بوساوس إبليس اللعين فهو حرب علينا إلى يوم الدين.

رابعًا – إن الإنسان مجبول على الخطأ، معرّض للنسيان؛ لأنه خلق من ضعف وما وقعت مخالفة آدم لأمر الله إلاّ بسبب ذلك الضعف البشري حيث استجاب لنداء اللعين إبليس ونسي أمر الله.

خامسًا – على الإنسان ألاّ يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من عفوه فيما إذا وقع في خطيئة وحصلت منه سقطة أو ألمّ بذنب، فقد علمنا الله كيف نتوب إليه، وكيف نتخلّص من الذنوب والآثام ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾** ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفـــاة آدم عليه السلام:

وفاة آدم عليه السلام: وقد عاش آدم على ما ورد في بعض الآثار (١٠٠٠) ألف عام، ثم مات بعد ذلك ودُفن على المشهور في الهند عند الجبل الذي أُهبط فيه، وقيل بجبل (أبي قبيس) بمكة المكرمة ، ولما حضرته الوفاة جاءته ملائكة من السماء بكفنٍ وحنوط من الجنة، وبعد أن غسّلوه وكفنوه، حفروا له وألحدوه، وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره فوضعوه فيه، ثم حثوا عليه التراب، وقالوا: يا بني آدم هذه سنتكم.. رحم الله أبانا آدم وأسكنه فسيح جنته وجمعنا معه في دار الخلد آمين، والحمد لله رب العالمين» اهـ.

ونُضيف لما ذكره الصابوني عدة مسائل تتميماً للفائدة:

ومن ذلك أن نبيّ الله آدم الآن في السماء الأولى على نحو ما ورد في حديث الإسراء؛ لأن نسم بنيه تُعرض عليه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها أن المعصية المنسوبة لنبي الله آدم لا سبيل لإنكارها، و لكن يُقال: هو تاب إلى الله منها، وقد تاب الله عليه، وقد يكون الإنسان بعد التوبة أفضل منه قبل الذنب، وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون.

ومنها أن نظرية داروين البالية قد أنكرها ورفضها كثير من علماء المادة التجريبيين الغربيين، بل طالب رئيس أمريكا - بوش - بإلغائها ومنع تدريسها، فمن العجيب تدريسها لأبناء المسلمين مع مصادمتها للشرع وللحقائق العلمية، فماذا يصنع الأبناء إذا تربوا على نظريات تزكم الأنوف كنظرية داروين وفرويد ودوركايم، دون تفنيد ودحض، وخصوصًا مع غلبة الجهالة وقلة العلم بآثار الرسالة.

نهاية التراث

المسلم يؤمن أن الحياة ممتدة زمانًا ومكانًا، زمانًا لأبد الآبدين ومكانًا لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالجنة هي دار المتقين، والنار هي دار الكافرين، والإنسان ينتقل من حياة دنيوية إلى حياة برزخية، إلى حياة أخروية، وما يحدث على ظهر الأرض هنا سنُحاسب ويُعرض علينا غداً.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق: ٢١، ٢٢].

فالإنشغال بالتاريخ والجغرافيا والحضارات والعادات وطبائع الشعوب... وسائر صور التراث الإنساني ما ينبغي أن تنسينا الإستقامة على منهج الله، والعمل لما بعد الموت، فما بعد الدنيا من دار إلاَّ الجنة أو النار، ونهاية العالم قريبة، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء: ١]

تصورات بشرية لنهاية العالم:

ما أكثر التصورات المطروحة عن نهاية العالم ودمار كوكب الأرض، مما يترتب عليه من ترقب وقلق يُصاحبه خوف وهلع عند البعض، وهذه التصورات تأتي عن طريق المنجمين والكهان أحيانًا، وقد تكون في صورة أبحاث علمية، كالبحث المقدم عن ظاهرة الإنهمار المطري والذي أثار الرعب في أمريكا وأوربا، وشبيه به ظاهرة النيزك (XF) الذي سيدمر الأرض، وقد وصفه الصينيون بـ «صاعقة الموت» واليابانيون يعتبرونه «الأهوال الأخيرة لكوكب الأرض»، وقد

حددت التقارير العلمية المتخصصة، وعلى ضوء أبحاث ودراسات مضنية يوم السادس والعشرين من أكتوبر لعام (٢٠٢٨م) أي بعد نحو أربعة وعشرين عاماً موعداً لفناء الأرض...

الهوس يجتاح رجال الدين في أمريكا وأوربا.. والمؤسسات العسكرية الغربية، وعلى رأسها البنتاجون راحت تتتبع الخطر الذي يقترب من الأرض، وتبحث عن سبل مواجهته بعد أن اقتربت ساعته ودنت خطورته، وقبل أن ننقل تفاصيل هذا التقرير لنا أن نتعجب من كثرة التحديدات لنهاية العالم، والقطع والجزم بكيفية انتهاء الدنيا، واليوم الذي يحدث فيه ذلك، ثم الإختلافات والتناقضات الكثيرة في هذه التصورات، ولا يكتفون بذلك، بل يعتبرونها حقائق علمية!! .

ولا نتحدث الآن عن الأخطاء والأكاذيب في تنبؤات المنجمين والعرافين التي تتضح كل يوم، وأنَّ هؤلاء ليسوا بشيء كما قال النَّبيُّ ﷺ، لن تنتهي الدنيا حتَّى تحدث جميع الأمارات والعلامات التي وردت في الكتاب والسُّنَّة كظهور الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول المسيح، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى تكلمهم، وثلاث خسوفات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب..

أي تغيرات في العالم العلوي والسُّفلي تسبق قيام الساعة، ونحن نترك الواقع يُفسر لنا الأمارات التي أخبر عنها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، إنَّ الساعة لن تقوم إلاَّ على شرار الناس، ولن تقوم وأحدٌ في الأرض يقول الله، الله. وستُعبد اللات والعزى، وقبل ذلك يُرسل الله ريحًا طيبة تقبض روح كل مؤمن، ويسبق ذلك فتح بيت المقدس والقسطنطينية وروميـة (روما عاصمة إيطاليا اليوم) وينتصر المسلمون على اليهود، وتعود الحياة بدائية، ففي قتال الروم تُستخدم الخيول والسيوف، ويأجوج ومأجوج يرمون بنشابهم إلى السماء.

وورد في الخبر أنَّ المسلمين عندما يأتيهم الصريخ، أنَّ الدجال قد خلفهم في ذراريهم، يرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»** [رواه مسلم].

وجاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال ﷺ: **«أربعون يومًا، يومٌ كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»** وفيه: **«ثم يدعو رجلاً ممتلأً شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيُقبل ويتهلل وجهه يضحك»** [رواه مسلم].

ولا يعلم متى تقوم الساعة، ومتى تظهر الأمارات إلاَّ الله، قال تعالى: **﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾** [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: **﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾**[الأعراف: ١٨٧].

فعلم الساعة مما استأثر الله به، فلم يُطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، قال النَّبيُّ ﷺ: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»** [رواه البخاري]، فجبريل لا يعلم متى تقوم الساعة، وكذلك رسول الله ﷺ.

والقرب المذكور في النصوص إنما هو قرب نسبيّ، قال تعالى: **﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾** [الأنبياء: ١]، وقال: **﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾** [الحج: ٤٧] والساعة ستقوم في يوم الجمعة، ولكن لا ندري أي جمعة هي، ولا يجوز تحديد عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة، ولا بغير ذلك؛ فكلها تخرصات لا دليل عليها.

وإن كانت التحديدات والتصورات البشرية لنهاية العالم تُثير العجب، فمما يُثيره أكثر، أن يعلم المتكلم بذلك قرب القيامة، ثم يظل على كفره وضلاله وظلمه، هؤلاء يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝ ﴾ [الروم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣]، لماذا لم يُسلموا وجوههم لله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولا ينجو من عذاب الله إلاَّ من أتى الله بقلب سليم.

لا نتكلم عن كل التقارير العلمية المتخصصة!! وكلمات المنجمين الكثيرة عن نهاية العالم، ولكن يكفي التقرير الذي رصد ظاهرة النيزك (XF) الذي سيدمر الأرض، ما شأن من أعده وصدّق به، إلاَّ أن يقول: «رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا» ما حال أرباب الدنيا عندما يطالعون الأخبار المرعبة في تقرير النيزك (XF) الذي نقلته جريدة الأسبوع يوم (الأحد ٢٧ من شعبان سنة ١٤٢٥هـ) وقد جاء في التقرير:

«أنه وبحسب الأبحاث الصينية فإنَّ المشكلة بدأت منذ أوائل التسعينيات، عندما غير هذا النيزك توجهه، وليس هناك أي سبب علمي مُقنع يُفسر تحول النيزك - أو تغير توجهه -؛ لأنَّ النيزك - حين غير توجهه - كشف عن أنَّ هناك قوى خفية تتحكم فيه، وأنَّ هذه القوى قادرة على السيطرة على هذا النيزك.

أما اليابانيون فيرون أنَّ تغيّر تحرك النيزك لم يكن بفعل حادث سماوي معين؛ فالأغلفة الجوية.. وحركة الكواكب كانت تبدو إلى حد كبير مستقرة.. ولكن الذي حدث أنَّ هذا النيزك بدأ يزيد من معدلات سرعته العادية حتَّى وصل إلى عشرين ألف كيلو متر في الساعة.

وتبدو المشكلة الحقيقية في النيزك أنَّ سرعته في دورة حركته جعلته يتجه إلى كوكب الأرض.. وقد فسر العلماء الألمان ذلك بأنها إرادة الرب، وأنه إذا لم تكن هناك أسباب علمية لهذا التحول، فهو تعبير عن غضب الرب على سكان الأرض.

وبحسب التقرير فإنه ومن الناحية العلمية المحضة تم التوصل إلى عدّة نتائج مهمة، منها أنَّ النيزك لن يوقف تحركه تجاه الأرض إلاَّ القوى الخفية التي ساعدته في الإنحراف نحو الأرض، وأنَّ احتمالات اصطدامه بالأرض تبلغ حسب التقديرات العلمية نسبة (٩٧٪) حيث تتزايد معدلات انحرافه واصطدامه سنة بعد أخرى.

إنَّ الأرض إذا أُريد لها البقاء بعد عام (٢٠٢٨) فإنها لابد أن تتحرك في اتجاه معاكس؛ حتَّى تتفادى ذلك الاصطدام، ولكن مع اقتراب النيزك (XF) ستحدث عدة ظواهر كونية هامة، فقد ثبت أنَّ هذا النيزك كلما اقترب من منطقة الفضاء الخارجي يُرسل كميات كبيرة من الدخان، وهذا الدخان لا تستطيع الأجساد البشرية تحمّله، وقد يفضي إلى انتشار العديد من الأمراض التي لا تزال مجهولة عن الإدراك حتى الآن.

وبحسب التقارير فإنه وعندما يحدث الاصطدام الذي تبلغ معدلات حدوثه (٩٧٪) حتَّى الآن، فإننا سنكون أمام ما يعادل (٢٫٥) مليون قنبلة نووية أُلقيت على كوكب الأرض.. كل قنبلة منها تُسبب انفجارًا يُعادل عشر أو خمس عشرة مرة انفجارات القنابل النووية.. إنَّ قوة الإنفجار ستكون هائلة إلى الحد الذي تتلاشى فيه الأجساد البشرية، ولا يُصبح هناك رمز للحياة سوى في بعض المناطق التي يُقدر أنها ستكون بعيدة عن مناطق الإنفجار.. ولكن حتَّى إذا حدث ذلك فإنَّ معدلات الإنفجار العالية، وقوة القنابل النووية الأمريكية لابد أن تنتقل بآثارها إلى تلك المناطق التي لابد أن تكون في أطراف الأرض، أو في أحد أجزائها غير المقدرة حتَّى الآن، وأنَّ هذا الإنفجار ستنبعث منه قوة نيران ضيقة

ومحدودة، إلاَّ أنها ذات تأثير قاتل، وأنَّ مياه البحار والمحيطات لن تستطيع أن توقف تلك النيران العالية، بل إنَّ النيران العالية سوف تعمل على ارتفاع سطح المياه في البحار والمحيطات، لتتحرك هي الأخرى بسرعة كبيرة وفي اتجاهات مختلفة من الأرض، ويكون اندفاع المياه إلى الحد الذي يمكن أن يؤدي إلى غرق ثلثي كوكب الأرض بقياس المعدلات الحالية للمياه في علاقتها بكوكب الأرض، وأن أكثر المناطق التي ستكون ذات خطورة عالية هي المناطق القريبة من البحار والمحيطات .. فالمحيط الأطلنطي قد يُبيد القارة الأمريكية، والبحر المتوسط قد يُبيد أوروبا وشمال إفريقيا وغيره من المحيط الهندي والبحر الأحمر، والأنهار في أوروبا وبلاد العالم المختلفة.

ووفق معدلات الإنحراف الحالية للنيزك فإنَّ أمريكا وبريطانيا، ثم فرنسا وألمانيا، ثم تركيا وإيران والعراق، ثم مصر والسودان وتونس ستكون أكثر المناطق العالية خطراً في هذه المرحلة، إلاَّ أنَّ ذلك لا يمكن الإعتداد به كنتائج نهائية .. فما زالت معدلات الإنحراف تتغير كل ثلاث سنوات، ولكن تغيراتها منذ العام (١٩٩٥) وحتَّى الآن تصب في اتجاه التحرك إلى مناطق الأرض وتدميرها .. غير أنَّ اندفاع المياه وغرق العديد من المدن العالمية سيكون أقل الأضرار التي يمكن أن تُصيب الإنسان في هذا اليوم.

وتُشير التقارير إلى أنَّ اليوم المقصود ليس هو اليوم المحدد بـ ٢٤ ساعة فقط، ولكنه يوم ممتد قد يستمر مئة ساعة أو مئتي ساعة أو أقل، ومن أهواله يُمكن أن يفقد البشر إحساسهم بالوقت، أو انقضاء عدد معين من الساعات، أما الضرر الآخر الذي سيسببه هذا الإنفجار فيكمن في انتشار كمّ كبير من الحرائق التي لا يستطيع أحد أن يُسيطر عليها.

والإحتمال الآخر يؤيده أنَّ البشر الذين سينجون من هذه الكارثة عليهم أن يتكيفوا بأجسادهم مع مناخ جديد تنتشر فيه الغازات الكيميائية والأبخرة،

وتقل فيه إلى حد كبير نسبة الأكسچين، وستظهر أنواع جديدة من الغازات على الإنسان أن يتعامل معها، ويُدرك أنها أصبحت تمثل الحقائق الواقعية في العالم الجديد، فإن آثار التقدم العلمي والتكنولوجي إذا كان مقدراً لها أن تُحقق إنجازات غير مسبوقة في السنوات العشر القادمة، وأنَّ بعض العلماء يؤكدون أنَّ المدنية ستصل إلى كامل تطورها في الربع الأول من هذا القرن وتحديداً في العام (٢٠٢٥)، فإنه وبعد ثلاث سنوات، ومع استمرار معدلات الإنحراف الحالية للنيزك (XF) في اتجاه الأرض، فإنَّ المدنية ستتلاشى تماماً، وسيعود الإنسان من حيث بدأ من قبل العصر الحجري، يستخدم أدوات الطبيعة، ويُقاتل الحيوانات المفترسة، كما أنَّ ما تبقى من أجهزة كهربائية لن تستطيع التعامل مع الظواهر المناخية الجديدة».

يُشير التقرير إلى القوى الخفية التي ساعدت النيزك على الإتجاه للأرض، وأنها القادرة على السيطرة عليه على قول الصينيين، ولو أحسنوا التعبير لقالوا: إنَّ الكون يسير وفق نظام محكم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، ولا يكون في ملكه سبحانه إلاَّ ما يريد، فالنيزك وغيره يتحرك وفق مشيئة خالق الخلق ومالك الملك جلَّ وعلا، وما هذا النيزك المرعب إلاَّ نوع ابتلاء، وهو نذير ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، وكما قال عليّ رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلاَّ بذنب، وما رُفع إلاَّ بتوبة».

وهذا على فرض صحة التقارير العلمية وثبوتها وكونها حقيقة واقعة، وإلاَّ فالغيب لا يعلمه إلاَّ الله، وما سيحدث في مستقبل الزمان إن ورد به نصٌّ شرعيّ قلنا به، وإلاَّ فالواجب الإمساك عمَّا طُويَ عنَّا علمه، والتحسب للمخاطر المستقبلية مطلوب ومشروع، ومن أعظم صوره ترك الذنوب والمعاصي والإستقامة على كتاب الله وعلى سُنَّة رسول الله ﷺ، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلاَّ إليه، ولا

عاصم من أمر الله إلاَّ من رحم، والهلكة إذا قُدر لها أن تحدث، فقد تكون بالنيزك أو بغيره، وقبل هذا التوقيت الذي عليه التقرير أو بعده، فلا راد لقضائه سبحانه، ولا معقب لحكمه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

وما أشار إليه التقرير من عودة الحياة بدائية تؤيده نصوص الشريعة، ورغم ضعف البشرية وعجزها وقصورها ونقصها تلمس أمارات الغرور في التقرير، فقد ورد فيه تأكيد بعض العلماء أنَّ المدنية ستصل إلى كامل تطورها في الربع الأول من هذا القرن وتحديداً في العام (٢٠٢٥)!! وبعد ثلاث سنواتٍ – على حد قولهم – تتلاشى المدنية بالنيزك!! والنيزك مخلوق ضعيف مأمور، والسماء مأمورة، وفيها ما لا يُحصيه إلاَّ الله من أمثال هذا النيزك، وكل شيء في الوجود مأمور، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، لا داعي للتطاول والغرور، فما زلنا كأطفال نلعب بشاطئ البحر، ونحن نجهل أعماقه، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

نعم تقدمت البشرية واخترعت واكتشفت، ولكن لابد من تواضع جميل، فما زلنا نجهل الكثير فيما يتعلق بالطب والفلك.. فلابد من إحسان المسير إلى الله؛ فإنَّ اغتراراً بالله حمق، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤].

نهاية العالم خلال خمسون عاماً:

فالخبر عبارة عن تقرير أمريكي يتنبأ بنهاية العالم في الخمسين سنة القادمة، ويُشير إلى أنَّ التغيرات المناخية سوف تؤدي إلى فناء دول وظهور كيانات جديدة تعود معها البشرية إلى العصور البدائية، في ظل عمليات رصد لهذه التغيرات المناخية، والتي بدأت بالفعل من خلال الكواكب الأخرى، والنيازك المدمرة التي

ستضرب الكرة الأرضية في أرجاء متعددة، والطاقة المعتمة التي بدأت التحرك فعليًا في العام (٢٠٠٣م) على الرغم من سكونها الدائم منذ عشرات البلايين من السنين، وأنَّ حياة البشر ستتأثر بفعل الإحتباس الحراري والدخول في مرحلة جديدة لجو الأرض.

ويرى التقرير أنّ منطقة الشرق الأوسط، وبالرغم مما يتهددها من زلازل، ستكون الأكثر أمانًا في كوكب الكرة الأرضية إزاء هذه المتغيرات، وقد استمرت هذه الأبحاث والدراسات (١٢ سنة) كاملة، وأكدت أنَّ النيازك المدمرة ستضرب الأرض في غضون (٢٥ عامًا).

وأن أكثر من (٨٠٪) من الأراضي الأمريكية مهددة بالغرق في الأطلنطي، وأنَّ شلالات مياه سمائية تتصل بالأرض محققة «انهمارًا مطريًا» يهدد الكرة الأرضية، وأنَّ الإحتباس الحراري سيؤدي إلى نقص الأكسجين وموت الآلاف، وأنَّ العالم مهدد بغزوة من الأمراض الجديدة يتضاءل أمامها «وباء الإيدز».

ووفق التقرير فإنَّ هذه الحركة الثابتة للأرض دون أيّ انحراف أو ميل إذا كان الأساس فيها يرجع إلى ثبات «ذرات الطاقة المعتمة» فإن المؤكد والحتمي أنَّ هناك طاقة جبّارة تقف خلف هذا التوازن وتحرسه بعناية بالغة، وأنَّ هذه الطاقة الكبرى لا يمكن أن تكون إلاَّ «العناية الإلهية» لقد لوحظ - كما يرى التقرير- أنَّ التحرك في جزء الطاقة المعتمة كان في زاوية الأراضي الأمريكية والعديد من الدول الأوربية البعيدة عن منطقة المتوسط، وبحسب التأكيدات العلمية فإنَّ دولة كبريطانيا ستشهد موجة من الصَّقيع الشديد الذي يجعلها سيبريا جديدة، وأنَّ هذا سيحدث في الأعوام العشرين المقبلة.

أمّا المشكلة الأكثر خطورة - كما يقول التقرير - هي أنَّ العالم ما زال مكدسًا بمخزون هائل من الأسلحة النووية، الأمر الذي سيؤدي إلى ظهور أمراض جديدة، وكذلك إصابة ملايين الأفراد من البشر بكوارث صحيّة حقيقية، وأنَّ هذه الكوارث قد تعني قتلهم وموتهم بالفعل.

التعليق على الخبر:

أولاً - نهاية قريبة فماذا أعددنا لها:

أخبار مفزعة نسمعها كل يوم في عصر العلم والإكتشافات!! فهل غيَّرت فينا قدر أنملة؟!!، وهل اهتزت لها شعرة ؟!، هل ترك الكافر كفره، وأسلم وجهه لله؟!، وهل تركنا الظلم والبغي والعدوان وعملنا بطاعة الله؟! أين ثمار تصديقنا لهذه الأخبار؟! فتارك الصلاة مازال تاركًا لصلاته!! والمتبرجة لم ترجع للحجاب الشرعي!! والمنهمك في لعبه لم يترك لهوه وغيّه !!...

وهذا الحال يُقرب إلى الأذهان كيف ستقوم الساعة، ولا أحد في الأرض يقول: الله، الله. ولن تقوم الساعة حتَّى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخُلصة، وحتى تُعبد اللات والعزى، ولن تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس، رغم معاينة الناس لأمارات الساعة الصغرى والكبرى، ورغم أنَّ الغيب يصبح شهادة، ونعوذ بالله من الخذلان، وقد أخبرنا سبحانه بقرب قيام الساعة فقال: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** ① ﴾ [الأنبياء: ١].

ومع اقتراب الساعة وظهور مثل هذه النُذر المخوفة لا يبقى إلاَّ الإستعداد للقاء الله، وإحسان المسير إلى الله، وإلاَّ فالموت قريب، والكل سيلقى ربه حتمًا لا محالة، وإن لم تقم عليه الساعة، أتى أعرابيّ لرسول الله ﷺ يسأله بصوت جهوري ويقول: يا محمد، متى الساعة؟ فأجابه النَّبيُّ ﷺ بنحو من صوته وقال له: «**هاؤم، إنَّ الساعة لآتية، فماذا أعددت لها؟**» .[رواه مسلم في باب البر والصلة برقم (٤٧٧٥)].

وقد حذَّر ربنا جلَّ وعلا الخلق والعباد فقال: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** ٩٧ **أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ٩٨ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ٩٩ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

لا داعي للتطاول على الله، ولا داعي للعربدة والطغيان والتجبر في الأرض،

فإنَّ الله يُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

والتخوف مما يقتصر على هذه النذر التي وردت في الأبحاث والدراسات، فقد يأتي الهلاك من مكمن الأمن، فإنَّ العماليق، قوم عاد، لما رأوا الريح استبشروا الخير، وتوسموا أن تأتيهم بالمطر، فكان فيها هلكتهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

فلا تعصي ربك وترجو رحمته؛ فإنَّ لكل مقدمة نتيجة ولكل عقيدة تأثير، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٥ – ١٧].

ثانيًا – دلت الأمارات على عودة الحياة بدائية:

يستلفت النظر، ونحن نُطالع أمارات الساعة، أنَّ الحرب مع الروم في آخر الزمان ستدور على الخيول وبالسيوف، وأنَّ الكعبة ينقضها ذو السويقتين حجرًا حجرًا بمسحاته، وأنَّ يأجوج ومأجوج يرمون بنشابهم إلى السماء، ففي الحديث الذي رواه مسلم: «**أن المسلمين يأتيهم الصريخ، إنَّ الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويُقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة**» .

قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسمائهم، وأسماء آباءهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**» [رواه مسلم].

وحديث هدم الكعبة في الصحيحين ، وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ فذكر الحديث عن يأجوج ومأجوج وفيه: «**ويخرجون على الناس فيستقون**

المياه ويفر الناس منهم، فيرمون سهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وغلبنا من في السماء. قوة وعلواً. قال: فيبعث الله عز وجل نغفًا في أقفائهم، فيهلكهم، والذي نفس محمد بيده أن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً وتسكر سكراً من لحومهم» [رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني].

وفي حديث النواس بن سمعان ﷺ: **«ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتَّى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف (دود) في رقابهم فيصبحون فرسى (قتلى) كموت نفس واحدة..»** [الحديث رواه مسلم].

هذه النصوص وغيرها تدل على عودة الحياة بدائية في آخر الزمان، فلا طائرات ولا صواريخ عابرة القارات.. مما جعل البعض يقول: إنَّ واقع عصرنا وما فيه من مظاهر التطور، قد ينتهي بحرب نووية، تعود الإنسانية فيها إلى بدايتها الأولى، وذكر البعض أنَّ منابع البترول قد تجف، وتُصبح أسلحة العصر المتطورة بلا قيمة!!.

والبحث الأمريكي الأخير يعول على الكواكب والنيازك المدمرة، وحركة الطاقة المعتمة، وأيًا ما كان السبب فالمتيقن حصول هذه الصور التي وردت في أخبار الصادق المصدوق ﷺ، والتي ستحدث قرب قيام الساعة.

ثالثًا - نترك الواقع يفسر لنا علامات الساعة فلا داعي للتكلف:

كان ابن مسعود ﷺ يقول لأصحابه: «أنتم في زمان خيركم المسارع في الأمر، وسيأتي على الناس زمان خيرهم المتوقف المتثبت لكثرة الشبهات».

تتزايد الأراجيف حدة، فما من يوم يمر إلاَّ ونسمع ادعاءً جديداً، فهذا يزعم أنَّ الرياح التي هبَّت على مصر، وأظلمت بسببها القاهرة، هي الدخان المذكور ضمن أمارات الساعة، وأنَّ السلعوة التي عقرت الناس هي دابة الأرض!! ونقلوا

أنَّ بحيرة طبرية قد جفَّت، وأنَّ نخل بيسان قد قُطع، وأنَّ المهدي قد ظهر، وأنَّ فلاناً حاول اللحاق به ولم يدركه!!، وأنَّ الحجر والشجر قد نطق!!.

وبين حين وآخر تُطالعنا وسائل الإعلام بأنَّ نهاية العالم سنة كذا وكذا تحديداً، ويذكرون في ذلك تنبؤات لا حصر لها، وجعلت البعض ينتحر أو يهاجر أو يترك عمله!! والخطر كبير في نقل الأخبار دون تثبت وخصوصًا مع سهولة الإتصال، وقد صارت الدنيا أشبه بقرية صغيرة.

والواجب علينا أنِ نترك الواقع يفسر لنا أمارات وعلامات الساعة، فهي ستحدث - بإذن الله حتما لا محالة- وفق خبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه؛ فلا داعي للتكلف والتعجل.

ولا يجوز التعويل على كلام العرَّافين والكهَّان، ولا اعتداد المنامات في التحديد، ولا يصح الجزم والقطع، وادّعاء معرفة الغيب، قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إتيان العرافين والكهنة والسحرة، ففي الحديث: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**» [رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرطهما].

وقد رأينا ما جرته منامات ظهور المهدي من شر وفساد، فلا يجوز مصادمة الشرع بكلمات المنجّمين والكهان، ولا يصح التعويل على الكشوفات والفتوحات والمنامات؛ فالعلم والإيمان يقوم على الوحي المنزل، بل حتّى الأبحاث والنظريات العلمية لابد من إخضاعها لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ، فلسان حال المسلم ينطق: آمنت بالله وكذبت عيني، فإذا صارت المسائل حقائق يقينية، فلن نجد فيها مخالفة لشرع الله، ولا يُتصور وجود تعارض بين نص صريح وعقل صحيح.

ونحن عندما نرفض ونذم التعجل لا ننكر قدرة الله على أن يجعل الحجر والشجر ينطق الآن وفي كل وقت وحين ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ [يس: ٨٢] فقط نحتاج لصبر ويقين تخالط بشاشته القلوب نتعامل به مع السُّنن الكونيّة والسُّنن الشرعية، وهذه عدة الإمامة في الدين قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)** ﴾

[السجدة: ٢٤].

قال العلماء: لما أخذوا برأس الأمر، جعلهم رؤوسًا، أي لما أخذوا بالصبر واليقين جعلهم سبحانه أئمة.

رابعًا - لن تقوم الساعة حتَّى تستوفى جميع الأمارات:

لا يعلم متَّى تقوم الساعة، و تنتهي الدنيا، ولا متى تظهر الأمارات إلاَّ الله، وقد وردت النصوص تدل على أنَّ علم الساعة مما استأثر الله به فلم يطّلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وقال: ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)** ﴾

[الأحزاب: ٦٣] .

ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال له النَّبيُّ ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» [رواه البخاري]، فجبريل لا يعلم متَّى تقوم الساعة، وكذلك رسول الله ﷺ.

فلا يجوز الرجم ولا تحديد عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة، كما لا يجوز تحديد زمن ظهور المهدي ولا غيره من العلامات استناداً لما عند أهل الكتاب، و علينا أن نعلم أنَّ الساعة لن تقوم حتَّى تستوفي جميع الأمارات الصغرى والكبرى، وما حدث ووقع منها كطاعون عمواس، وانشقاق القمر، ونار الحجاز... فهو معجزة، وما لم يقع منها كظهور المهدي وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع

الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض.. فالإيمان به واجب، والله أعلم بزمان وظروف وكيفية وقوعه، إن ورد في ذلك نصٌ قلنا به، وإلاَّ فالخوض فيما طوى عنَّا نوع من التكلف، والسلامة تركه، والواجب علينا أن نعيش طاعة الوقت، وأن نحرص على طلب العلم النافع، ومتابعته بعمل صالح، وأن نتعرف على السُّنن الشرعية، والسُّنن الكونية، حتَّى نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس.

التراث بين الماضي والحاضر

ما بين البداية والنهاية صفحات كثيرة من التاريخ، وحوادث وأحداث تطالعنا على صفحات الكون المنظور والكتاب المسطور، ولا يعنينا منها ما لا نفع فيه ولا فائدة من ورائه، فربنا يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها، ويجدر بنا أن نذكر عدة مسائل نربط بها بين الماضي والحاضر، ونتواصل بها مع المستقبل، بحيث يصبح التراث وحد واحدة، ننطلق بمقومات تراثنا الحضاري؛ لنؤثر في الدنيا بأسرها، ونصل بين يومنا وغدنا، وبين واقعنا - وإن كان مراً - وبين ما نصبو إليه ونرجوه من إقامة واجب العبودية وتعبيد البشرية بدين الله.

واقع المسلمين والفتنة به:

أصبحت الدول الإسلامية لأسباب عديدة تسمى بدول (العالم الثالث) وفُرض عليها واقع الدول المتخلفة، ثم أطلق عليها فيما بعد اسم (الدول النامية)، وأُضيف إليها دول أمريكا اللاتينية، وبدونها يمكننا أن نسميها العالم الإسلامي، وتم تحريف معاني التاريخ والجغرافيا، فالعصور الوسطى هي العصور المظلمة، وهذا يصح بالنسبة لأوربا، أما بالنسبة للمسلمين فالأمر ليس كذلك، بل على العكس، فهذه الفترة هي أزهى عصور التاريخ.

ولا يفوتنا أن تاريخ البشرية يبدأ بنبي مكلّم أي بمرتبة من أعلى مراتب الهداية، ثم تتواصل حلقات التاريخ في حس المسلم ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)** ﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)** ﴾ [النساء: ٧٣].

ولا ندري كيف صارت أوروبا في وسط الدنيا، بينما وضع العالم الإسلامي شرقًا من الدنيا، بينما الناظر إلى خريطة الجغرافيا يجد أن مهبط الوحي وكأنما أريد له أن يتزحزح عن مكانه في وسط الدنيا.

ولا يخفى على أحد حالة التدهور والضعف التي أصابت المسلمين، فدينهم في وادٍ وهم في وادٍ آخر، وانقسمت العبادات والساعات في حسهم، وانفصلت الأرض عن السماء، والدنيا عن الآخرة في حياتهم، وصارت اللغة العربية – لغة القرآن – في ذيل اللغات، وتم إقصاء الشريعة، وقد تغيرت الكثير من المفاهيم عند المسلمين حتى ما يتعلق منها بالعقيدة، والولاء والبراء، فاتخذوا أعداءهم من اليهود والنصارى والملاحدة.. أحبابًا، وإخوانًا وأصدقاء، وراجت عليهم شعارات الوطنية، والقومية، والسلام، والتعايش السلمي، وزمالة الأديان... متناسين ما يأمرهم به دينهم كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** (٧٣) ﴾ [الأنفال: ٧٣].

قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قوله: ﴿ **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ أي: إن لم تجانبوا **المشركين، وتوالوا المؤمنين**، وإلاَّ وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر في اختلاط المؤمنين بالكافرين، **فيقع بين الناس** فساد منتشر عريض طويل»، وهذا ما حصل في هذا الزمان، والله المستعان.

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاَّ كان من أصحاب النار**» [رواه مسلم].

لقد اهتزت هذه الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، بل كادت الأمة التي تتشرف بالإنتساب لدين الله، وسادت الدنيا حينًا من الدهر أن تنسى سنن الصراع والتدافع بين الخير والشر، والإيمان والكفر، والحق والباطل: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١].

إن الصراع الذي قام بين الكنيسة والعلماء الماديين قد جعلهم يشعرون بحق أن ما تقوله الكنيسة رجعية، وانحطاط، وتأخر، وخرافة، وأنه لكي يتم التقدم والتطور والأخذ بأسباب العلم فلابد من فصل الدين عن الدولة، وأن ينفصل

رجال هذا الجانب عن ذاك، ثم كانت الطامة عندما خيل الأعداء لضعاف البصر والبصيرة من هذه الأمة أن طريقهم الوحيد إلى التقدم هو طريق أوروبا الظافرة، وأن عليهم أن ينبذوا دينهم كما نبذت أوروبا دينها، وإلاَّ فسيظلون سائرين في الرجعية والإنحطاط والتأخر والخرافة!!.

ولا ننكر رواج هذه البضاعة البائرة وسط الكثيرين حتى من أبناء المسلمين، وإلاَّ فلماذا كانت المناداة بالدولة المدنية، والحرص على استمرار العمل بالقوانين الوضعية، بل والهمز والغمز واللمز تارة، والطعن الصريح تارة أخرى في دين الله، والتشهير والتشويه، وإلصاق التهم الكاذبة لكل من يلتزم بشرع الله ويُحاول العودة بنفسه وبالأمة من حوله لكتاب الله، ولسنة رسوله ﷺ.

إن الدنيا بأسرها وهي أشبه بقرية صغيرة تلمس تحولاً كبيراً تجاه التدين، وهذا الأمر لا يقتصر على المسلمين، بل يتعداهم لغيرهم من اليهود والنصارى، وخصوصاً بعد أن تقلص دور الشيوعية، وذاق الناس الأمرين من الإلحاد، وباءَت نظريات كثيرة بالفشل الذريع، ولم تصل البشرية بالعلم المادي التجريبي إلى بر الأمن والأمان، وفي ذلك يقول الكاتب المشهور سومرت موم: «إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها، وآمنت بإله جديد هو العلم، ولكن العلم كائن متقلب؛ فهو يثبت اليوم ما نفاه بالأمس، وهو ينفي غداً ما يثبته اليوم؛ لذلك تجد عبّاده في قلق دائم لا يستقرون».

لقد وجدوا أن الحياة بغير الله سراب وضياع واضطراب وقلق، ومصحات نفسية، ومستشفيات عقلية، وكأس وغانية، وعربدة وانتحار؛ فكان لابد من العودة للدين، استجابة للكتب المنزلة، ولدعوة الأنبياء والمرسلين، وتلبية لنداء الفطرة السليمة، والعقول المستقيمة.

ولكن يبقى أن نحدد ما هو الدين الذي نعنيه ونقصده؟ ما هو الدين الذي سينتشل البشرية من وحل الضياع، وينتقل بها من هذه الدار بسلام إلى دار

السلام؟ ما هو الدين الذي يرضى عنه خالق العباد ورب البشر؟ هل هو اليهودية، أم النصرانية، أم الإسلام، أم القيم الروحية المأخوذة من هذه الأديان؟

إن الدين الذي يحقق لنا سعادة الدارين هو دين الإسلام، لا شيء سواه، بل لن ينصلح آخر هذه الدنيا إلاّ بما انصلح به أولها، فلابد من الرجوع لهدي الأنبياء والمرسلين: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]، من لدن آدم حتى رسول الله ﷺ وكلهم كان على الإسلام ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد ثبتت النصوص الشرعية بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان، يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويحكم بحكم الإسلام، وهذا هو الذي ندين به، وندعو البشرية عامة، واليهود والنصارى خاصة أن يسارعوا للعمل بمقتضاه، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)** ﴾ [الروم: ٤٣، ٤٤]، ولا يشفع لهم كثرتهم وقلة عدد المسلمين، أو قوتهم وضعف المنتسبين للإسلام، أو التبعية الذليلة لليهود والنصارى من المتخاذلين المحسوبين على الإسلام؛ فالإسلام آتٍ وحزب الله هم الغالبون، والحق لا يُعرف بكثرة ولا بقلة، فاعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، فإن أبيتم رددنا معكم قول ربنا: ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)** ﴾

[هود: ١٢١ - ١٢٣].

وهذه دعوتنا لكم مدعمة بالحجج والبراهين تفند كل ما عداها بإذن الله مما

عليه أهل الكتاب (١) من اليهود والنصارى، راجين بها وجه الله والنفع، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وآملين لكم الخير إذا أسلمتم وجوهكم لله، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، ونصيحتي لك أن تتجرد من العصبية المقيتة. والهوى البغيض، وتقليد الآباء والأجداد بالباطل، ولا تلتفت لواقع المسلمين المنحرف عن دينهم، فلعلك تكون واحداً ممن يعالج هذا الأمر الواقع بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز، ولا يختلطنّ عليك التزييف والتمييع، كعبارات أهل الإيمان وأهل الأديان (ويقصدون بها اليهود والنصارى والمسلمين) فدين الحق واحد، والأديان الباطلة كثيرة تنحصر، وكل الطرق مسدودة إلاّ طريق رسول الله ﷺ فهو الطريق الموصل إلى الله.

والتوحيد توحيدان: توحيد المُرسل، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، وهذا مقتضى قولنا: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله.

هل تطورت العقيدة عبر الزمان؟

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه « العقيدة في الله » ما نصه:

يرى كثير من الباحثين الغربيين أنّ الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنّها ترقت، وتطورت في فترات وقرون متعاقبة.

ولا عجب أن يقول بهذا القول الباطل قوم لم يمنحهم الله كتابه الذي يحكي تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه، إلاّ أن العجيب أن يذهب هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم ويعدهم غيرهم باحثين مسلمين، فهذا عباس محمود العقاد يرى في كتابه « الله » – وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية – أنّ الإنسان ترقّى

---

(١) أهل الكتاب هم من يدينون بكتاب سماوي ويتبعون نبيًا من الأنبياء، ومنهم اليهود أتباع نبي الله موسى عليه السلام الذي تنزلت عليه التوراة، والنصارى أتباع عيسى عليه السلام الذي تنزل عليه الإنجيل، ومن بقي على ملة نبيه منهم ولم يدرك زمن بعثة النبي ﷺ أو أدرك زمنه ولم تبلغه دعوته فهو مؤمن، ومن بقي على ملته بعد أن علم ببعثته ودعوته عليه الصلاة والسلام يدخل في ضمن الكافرين.

في العقائد، ويرى أنّ ترقي الإنسان في العقائد موافق تمامًا لترقيه في العلوم. ويقول: «كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى».

بل يرى أنّ تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشقّ من تطور العلوم والصناعات يقول: «وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدِّين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبًا وأطول طريقًا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى».

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجلَّ للناس مرة واحدة، يقول: «فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كلّ ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للنّاس كاملة في عصر واحد».

ثمّ أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أنّ السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء.. وبعضهم يرى أنّ العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات، ويرى البعض أن أصل العقيدة الدينية عبادة «الطوطم» كأن تتخذ بعض القبائل حيوانًا (طوطميًا) تزعمه أبًا لها، وقد يكون شجرًا أو حجرًا يقدسونه، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين.

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية [١] إلى كثير من الكتّاب، واعتنقها جملة من الدارسين [٢] والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور:

---

(١) من جنح إلى القول بهذه النظرية مصطفى محمود في كتابه «الله».

(٢) لست أدري أي عقيدة هذه التي تطورت، أهي العقيدة اليهودية المحرفة أم النصرانية المبدلة، أم عقيدة الفلاسفة.. إن هذه العقائد لا تمثل إلاّ انحرافات عقائدية، ولا تمثل العقيدة السليمة.

الأول - أنهم قدّروا أنّ الإنسان الأول خلق خلقًا ناقصًا غير مؤهل؛ لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

الثاني - أنهم ظنوا أنّ الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلّم يعلمه، ومرشد يوضح له، فما دام الأمر كذلك فلابد أن يترقى في معرفته بالله، كما ترقى في العلوم والصناعات.

الثالث - أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلاّ تلك الأديان المحرفة أو الضالة فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدراسة والتمحيص، وأنّى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة.

القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة:

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلاّ كتاب الله سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير في هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكًا وافيًا لأسباب:

الأول - أن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل القليل، وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئًا؛ لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني.

الثاني - أنّ الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل قل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أنّ كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشقّ الأمور، فكيف بتاريخ يمتدُّ إلى فجر البشرية؟!.

الثالث - أن قسمًا من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض بل في السماء.

لذا كان الذي يستطيع أن يمدّنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝ ﴾ [آل عمران: ٥].

تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم:

أعلمنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق آدم خلقًا مستقلاً سويًا متكاملاً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجه منها كيف شاءا إلاّ شجرة واحدة، فأغراه عدوُّه إبليس بالأكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربّه، فأهبطه الله من الجنّة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله سبحانه بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداه كي يُعَرّف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الأُخرى، وتوعّد المستكبرين بالمعيشة الضنكة في الدّنيا وبالشقاء في الآخرة: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وفي سورة طه يقول: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد:

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال الله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي على التوحيد والدين الحق، فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديث أبي أمامة أنّ رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟ قال: «**نعم، مكلّم**» قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرة قرون**» [رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، وقال ابن

كثير في البداية والنهاية: هذا على شرح مسلم ولم يخرجه]، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: «وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام». ومقدار القرن مئة سنة، و على ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة.

وقد تكون المدة أكثر من ذلك إذ قيّد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا ينفي أن يكون بينهما قرون أُخرى على غير الإسلام.

وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس كما قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** (٣١) ﴾ [المؤمنون: ٣١].

أول انحراف عن العقيدة وأول رسول:

وبعد أن كان النّاس أمة واحدة على التوحيد حصل الزيغ والإنحراف، وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة، ففي صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** (٢٣) ﴾ [نوح: ٢٣]، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم (نُسي ودَرَسَ) عُبدت.

فهذا أول انحراف وُجد في تاريخ البشرية عن التوحيد، فأرسل الله إليهم أول رسله نوح عليه السلام مصداقًا لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للبشرية، والدليل على أنّ نوحًا كان أول رسول مبعوث حديث الشفاعة الثابت في صحيحي البخاري ومسلم وفيه: «**أن الناس يأتون بعد آدم نوحًا فيقولون له فيما يقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاك الله عبداً شكوراً**».

والنصوص التي بين أيدينا من كتاب ربنا تدل دلالة واضحة على أنّ نوحًا قد دعا إلى التوحيد الخالص، فقد قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾ [هود: ٢٦]، وقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

والذين استجابوا لدعوته للتوحيد هم ضعفاء الناس وتنكر لها السادة والزعماء الذين يظنون في أنفسهم العقل والذكاء حيث استكبروا عن متابعة الحق: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) ﴾ [الأعراف: ٦٠] والملأ: السادة والكبراء، وقالوا له: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧] اتبعوك بدون تأمل عميق، وتفكير ونظر، وهذا الذي رموهم به هو ما يجب أن يمدحوا به، فإنّ الحق إذا ظهر لا يحتاج إلى نظر، بل يجب اتباعه.

وتعجبوا أن يبعث الله رسولاً بشرًا فقالوا: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]، ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء والمساكين الذين تابعوه فرفض طلبهم ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) ﴾ [هود: ٢٩].

وقد تطاول الزمان وكثرت المجادلة بينه وبينهم كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، فدعا عليهم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، فأهلكهم الله بالطوفان ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان: ٣٧]. وأنجى نوحًا والمؤمنين برحمة منه، وخلت الأرض من الظالمين، ولم يبقَ فيها إلاّ الموحدون، فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم

رسولاً ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٣١ ، ٣٢] فدعاهم إلى توحيد الله أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وهكذا استمرت رحمة الله وعنايته ببني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم هداه يضيء لهم الظلمات : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾ [المؤمنون : ٤٤] .

هذه هي قصة البشرية الحقيقية، صراع طويل بين الحق والباطل، بين الرسل الذين يعرضون الهدى والحق، وبين الضالين عن التوحيد المتمسكين بما ألفوا عليه الآباء والأجداد، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم : ٩ ، ١٠] .

وبالتأمل في دعوة الرسل التي عرضها القرآن تتبين لنا الحقائق التالية :

الأولى - أنّ الله خلق الإنسان منذ البداية خلقًا سويًّا مكتملاً لغاية محددة، هي عبادته، وأنه خلقه مؤهلاً لذلك .

الثانية - أنه عرفه على نفسه منذ البداية، ولم يتركه لفكره يتعرف على ربه بطريق التفكير والتأمل، بل أرسل إليه رسلاً وقد كان هؤلاء الرسل من الكثرة بحيث أنهم بلّغوا البشرية كلها ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر : ٢٤] . لذا فإننا لا نعلم أسماء جميع الرسل الذين أرسلهم الله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨] .

ومما يدل على ذلك أنّ الأمم المكذبة في يوم القيامة تقرُّ وتعترف بتبليغ الرسل لها دعوة الله، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا

نذيرٌ فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴿٩﴾ ﴾ [الملك: ٨، ٩].

وما هذا التتابع في إرسال الرسل على مدار التاريخ إلا رحمة من الله بعباده ووفاء بوعده الذي وعد به آدم أبي البشرية، وإعذار منه لخلقه، ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴿١٥﴾ ﴾

[الإسراء: ١٥].

الثالثة - دعوة الرسل واحدة فاصل دعوتهم جميعًا ولُبُّها التوحيد: تعريف الناس على ربهم ومعبودهم وبيان للطريقة التي يعبدونه بها.

الرابعة - أن دين الرسل جميعًا الإسلام لا دين لهم سواه: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فنوح يقول: ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال الله عن التوراة: ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال موسى لقومه: ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: ٨٤]، وأمر الله خليله إبراهيم بالإسلام، فقال: ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١]، ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وعندما سأل يعقوب بنيه عن معبودهم من بعده ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وملكة سبأ قالت: ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤]، ويوسف كان من دعائه: ﴿ توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]، والرسول ﷺ يقول: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء إخوة لعلات**»[(١)].

وهذا التنوع الذي نراه في الشرائع لا يدل على أن دينهم كان مختلفًا؛ لأن الله قد يشرع أمرًا لحكمة، ثم يشرع أمرًا آخر في وقت آخر لحكمة أخرى، بل قد يكون هذا في الشريعة الواحدة كما شرع الله في بداية الأمر الإتجاه إلى بيت

---

(١) إخوة العلات: هم الإخوة لأب، أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، وكذلك الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم مختلفة.

المقدس في الصلاة، ثم نسخ ذلك بأن أمر بالتوجه إلى البيت الحرام، فكان الإسلام أولاً التوجه إلى القدس، ثم أصبح التوجه إلى الكعبة، وكذلك شرائع الأنبياء، فالمتأخر ينسخ المتقدم وأصبحت الشريعة المنزلة على محمد ﷺ هي الشريعة الخاتمة الناسخة لما قبلها من الشرائع.

الخامسة: ليس السبب في الشرك واتخاذ معبودات من دون الله ما ذهب إليه (العقاد) والذين تابعهم من الغربيين – الترقي في العقيدة خلال القرون، بل سببه انحراف أتباع الرسل عما جاءت به الرسل وتركهم ما جاءت به الرسل: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٤]، واتباعهم الظن والهوى وتركهم الهدى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)**﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)**﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال في اليهود: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ [المائدة: ١٣]، وقال في النصارى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [المائدة: ١٤]، وقال فيهم مبينًا انحرافهم عن التوحيد الذي أمروا به: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)**﴾ [التوبة: ٣١].

لذا فإن الرسل يتبرءون من الذين انحرفوا عن منهجهم ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾

[المائدة: ١١٦، ١١٧].

تصورات الأمم الضالة للمعبود:

لا نريد من وراء هذا البحث في هذا الموضوع أن نؤرخ للجانب المنحرف في العقيدة، فذلك ليس في مكنة الباحث؛ لكثرة أنواع الإنحراف كثرة يجعل الحصر فيها ومعرفة طريقة الانحراف غير ممكنة، وما الفائدة من التأريخ للجانب المظلم، والكفر ملة واحدة، إنما مرادنا من وراء ذلك أن ندرك شيئًا مما وقعت فيه الأمم كي نعلم القيمة العظيمة التي تمتاز بها العقيدة الإسلامية.

إن الذين يدركون الباطل ويعرفونه هم أقدر على معرفة الحق إذا اعتنقوه، وإنّ الذين يتبعون الإسلام ولا يعلمون الجانب المقابل له وهو الباطل يُخشى عليهم الإنزلاق في طرق الباطل، وصدق عمر بن الخطاب حيث يقول: «توشك أن تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية» ولا شك أن الذي يعرف ظلام الليل أقدر على معرفة ضوء النهار، والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلاّ المرضى، وقد أدرك هذه الحقيقة المرحوم سيد قطب حيث يقول في كتابه «خصائص التصور الإسلامي»: «الإنسان لا يدرك ضرورة هذه الرسالة، وضرورة هذا الإنفكاك عن الضلالات التي كانت البشرية تائهة في ظلماته، وضرورة الإستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة.. حتي يطّلع على ضخامة ذلك الركام، وحتى يرتاد ذلك التيه من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري في كل مكان، حتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد التي كانت تتخبط فيها بقايا العقائد السماوية التي دخلها التحريف والتأويل، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية والتي التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير».

نماذج من التصورات الضالة:

سنكتفي بثلاثة نماذج: واحد منها يمثل عقيدة دولة من الدول التي يعدها

الناس متمدنة في القديم، والثاني انحراف أهل ديانة سماوية عن الحق، والثالث: الوثنية العربية قبل عهد الرسول ﷺ.

الرب عند اليونان:

يعد الباحثون اليونانَ من الأمم المتحضرة في القديم، فلننظر إلى عقيدة هذه الأمة، يزعمون أنّ «جوبيتر» هو رب الأرباب عندهم، وكانت صورته أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين، فقد كان حقوداً لدوداً مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلاّ ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه وكان يغضب على «اسقولاب» إله الطب؛ لأنه يداوي المرضى، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية.

وكان يغضب على «برومثيوس» إله المعرفة والصناعة؛ لأنه يعلّم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له، فقيّده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جنّ الليل عادت سليمة في بدنه لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس...، ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء.

ومما تخيله الشاعر الفيلسوف «هزيود» عن علة غضب الإله على «برومثيوس»: أنه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب فأكثر فيه من العظام، وأقلّ فيه من اللحوم والشحوم، فاعتقد «جوبيتر» أنه يتعالى عليه بمعرفته وحكمته وفطنته؛ لأنّه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الإله الكبير، ولا يغيب عنّا ونحن نروي أخبار الإله الكبير منقولة عن «هزيود» أن هذا الشاعر الفيلسوف قد اجتهد قصارى اجتهاده في تنزيه «جوبيتر» وتصويره

للناس في صورة القداسة والعظمة، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئًا ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومما رواه الرواة المختلفون عن «جوبيتر» أنه كان يخادع زوجته «هيرة» ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش «الأولمب» وحدث مرة أنّها فاجأته وهو يقبل ساقي «جانيميد» راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء فاختطفه، وصعد به إلى السماء.. فلم يتنصل «جوبيتر» من تهمة الشغف بساقيه، ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه.

هكذا كانت الآلهة عند اليونان آلهة متعددة تتصارع، ويُعذب بعضها بعضاً، وتأكل وتشرب، وتتزوج، ويخون الإله زوجته، ويلوط ويبرر خطأه، فكيف يكون أثر هذه العقيدة في نفوس معتنقيها، وكيف يكون أثرها في سلوكهم أفراداً ومجتمعات؟ وأي قيم تقرها هذه العقيدة المنحرفة؟.

الإله عند اليهود:

حفلت ديانة بني إسرائل - اليهودية - بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية على السواء، فبنو إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - جاءتهم رسلهم وفي أولهم إسرائيل بالتوحيد الخالص الذي علمهم إياه أبوهم إبراهيم، ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى عليه السلام بدعوة التوحيد أيضًا مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه، ولكنّهم انحرفوا على مدى الزمن وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات وأثبتوا في كتبهم (المقدسة) وفي صلب التوراة أساطير وتصورات عن الله سبحانه، لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية، ولا كان لهم من عند الله كتاب.

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أسسها الله على يد أبيهم إبراهيم عقيدة

خالصة ناصعة شاملة متكاملة واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٤]، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٦].

ومن هذا التوحيد الخالص وهذه العقيدة الناصعة وهذا الإعتقاد في الآخرة انتكس الأحفاد، وظلوا في انتكاستهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد، ولكنّهم لم يستقيموا عليها بل انحرفوا، ولقد بدأ انحرافهم وموسى عليه السلام بين أظهرهم، ومن ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي حملوه معهم من حليّ نساء المصريين ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ

بملكنا ولكنا حُملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ﴿٨٧﴾ فأخرج لهم عجلاً جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه : ٨٧، ٨٨]، وقبل ذلك طلبوا من موسى عليه السلام أن يقيم لهم صنمًا يعبدونه : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف : ١٣٨].

وكذلك حكى القرآن الكثير عن انحرافهم، وسوء تصورهم لله سبحانه، وشركهم ووثنيتهم، فنسبوا لله الولد ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠]، ونعتوه سبحانه بالبخل والفقر ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ [المائدة : ٦٤]، ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾

[آل عمران : ١٨١].

ومن لوثة القومية واعتقادهم أن إلههم قومي، لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا في سلوك بعضهم مع بعض، أما الغرباء (غير اليهود) فهو لا يحاسبهم على سلوك معيب معهم.

من هذه اللوثة كان قولهم الذي حكاه القرآن الكريم : ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٥].

وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافًا لإلههم لا ترتفع كثيرًا على أوصاف الإغريق في وثنيتهم لآلهتهم، جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين : (بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة وهي كما يقول كاتب الإصحاح شجرة معرفة الخير والشر) ، (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنّة، فنادى الربُّ الإله

آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيتك؛ لأني عريان، فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟) (وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعلّه يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، أو يأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخذ منها، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة).

واضح ما في هذه النقول من وصف الله سبحانه بالجهل، وأنه لا يدري أين آدم حتى عرَّفه هو، وأنه كالبشر يتمشى كما يتمشى البشر، وأن السبب في إخراج آدم من الجنة ليس هو معصية آدم لربه كما وضحه القرآن، وإنما هو خوف الله سبحانه وتعالى من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيكون من الخالدين! وأن الله لم يعرِّف الإنسان الخير والشر، وإنما علم ذلك عندما أكل من الشجرة، وكلّ ذلك كذب وافتراء على الله سبحانه وتعالى، ويفهم من كلامهم أنّ حياة الله التي لا آخر لها إنما كانت بسبب أكله من شجرة الحياة سبحانه عما يقولون.

وكما نسبوا إلى الله سبحانه الجهل نسبوا إليه الحزن والندم على فعل فعله، فهم يذكرون أنه حزن على خلق الإنسان لما كثر شرّه وفساده في عهد نوح (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأنّ كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كلّ يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم، وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب).

واستمع إلى هذه الخرافة التي وردت في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: (بعدما عمرت الأرض بذرية نوح)، (وكانت الأرض كلها لسانًا واحداً ولغة واحدة، وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا نعمة في أرض شنعار،

وسكنوا هناك، وقال بعضهم لبعض: هلمّ نصنع لبنًا ونشويه شيًا، فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحجر مكان الطين، وقالوا: هلمّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه في السماء ونصنع اسمًا، لئلا نتبدد على وجه كل الأرض، فنزل الربُّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها، وقال الرب: هوذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبدد الربّ من هناك على وجه كلّ الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعى اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بدّدهم الرب على وجه الأرض).

أي خرافةِ هذه التي تزور الحقيقة، وتكاد تمحو معالمها! وأي إله هذا الذي ترسمه هذه الخرافة؟ هذا الإله الذي يخاف البشر، ويخاف تكتلهم واجتماعهم، فإذا به يحاربهم قبل أن تجتمع كلمتهم، ويصلب عودهم، ويشتتهم في أقطار الأرض بعد أن يبلبل ألسنتهم، ونسبوا إلى الله فعل الشر، كما نسبوا إليه الندم على ما فعل ففي سفر صموئيل الثاني الإصحاح الرابع والعشرون: (فجاء الربّ وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب عن الشر، فقال للملاك المهلك الشعب: كفى الآن رويدك).

فإذا تركنا ما حكاه القرآن عن ضلال اليهود في وصفهم لربهم وما في التوراة من تحريف وزيف، ونظرنا في (التلمود) وهو الكتاب الذي سطره علماء اليهود وحاخاماتهم، وله من الأهمية في نظرهم فوق ما للتوراة، لو نظرنا فيها لهالنا ذلك الضلال الذي وقع فيه اليهود لا في العقيدة فحسب، بل في شتى مناحي الشريعة، وسأكتفي بأن أنقل من كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ما يتعلق بالعزة الإلهية، فمن ذلك أن الله عندهم يحتاج إلى أن يقرأ ويتعلم، كما

أنه يهزل، ويلعب سبحانه وتعالى، فقد ورد في تلمودهم: (أن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاث الأولى منها يجلس ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك)، واسمع ما هو أدهى وأعظم: (أنه لا شغل لله غير تعلمه التلمود مع الملائكة) وليس الملائكة فقط، بل مع (أسمودية) ملك الشياطين في مدرسة في السماء (وما الحوت الذي يلعب مع الرب) إنه حوت كبير جداً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها ثلاثمائة فرسخ بدون أن تضايقه وبما أن له هذا الحجم، فإنّ الله سبحانه خاف إذا ما تناسل أن يهلك الدنيا؛ ولذا فإنّه (رأى أن يحرمه زوجته؛ لأنه لو لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشًا أهلكت من فيها، ولذلك حبس الله الذكَرَ بقوته الإلهية، وقتل الأنثى وملحها وأعدّها لطعام المؤمنين في الفردوس) ويضيفون إلى هذه الخرافات التي أصبحت عقائد لهم أنّ (الله لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل) وكذا (لم يمل بعد هدم الهيكل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها وعقص لها شعرها) تبًا لهم وبعداً.

إنهم يضاهون قول الذين كفروا من قبل، قول الأمم الضالة المشركة: فإلههم حسب تصورهم لا يختلف عن البشر، يُفكر تفكيرهم، ويفعل فعلهم، يلعب ويرقص، ويحزن، ويبكي، على ماذا؟ على هدم هيكل اليهود الذي بناه لهم سليمان، والهيكل يرمز إلى مجد اليهود، وقد جعلوا الله من ذلك التاريخ الذي هدم فيه الهيكل إلى اليوم يبكي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد قائلاً: (تبًا لي، لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي) بل يغالون في التحريف والتدجيل فيقولون بأنّ الله تضاءلت ذاته - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً عظيمًا - بسبب حزنه على خراب الهيكل (وشغل الله مساحة أربع سموات بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان).

ويصفون العلي المجيد بأنّه يحقر نفسه - سبحانه - عندما يمجده عباده - ويقصدون بهم اليهود طبعًا - (ولمّا يسمع الباري تعالى تمجيد الناس له، يطرق

رأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك، ولكن لا يستحق شيئًا من المدح الأب الذي يترك أولاده في الشقاء)، ومما افتروه على ربّ العزة - جلّ وتقدّس عما يقولون - أنه يلطم ويبكي وتتساقط دموعه، كل ذلك على شقاء اليهود وما حلّ بهم، (يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة حتى أنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينه دمعتان في ا لبحر، فيسمع دويها من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، و ترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل).

وينسبون إليه الخطأ والإعتراف بالذنب، والتكفير عن الذنب فيزعمون كذبًا وزورًا أن القمر خطأ الله سبحانه وتعالى، وقال الرب - سبحانه - عمّا يقولون: (أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس، فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي، لأني خلقت القمر أصغر من الشمس) ولا أدري كيف ساغ أن يزعموا أنّ الله يكفّر وترى لمن يكفِّر؟! إن العقول التي تفتري هذا الافتراء سخيفة سخافة كبيرة، وأن العقول التي تؤمن بهذه السخافة وتصدقها لا تقل عنها سخافة، والحمد لله الذي هدانا للحق والنور المبين.

ومن جملة سخافاتهم التي هي عقائد عندهم (أن الله يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل، وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنّه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه، ولم ينفذ ذلك اليمين، لأنه فعل ضد العدالة) ولم يقف الأمر عند كونه يحلف، ويحلف جهلاً وطيشًا، ويظلم ويكفر، بل زعموا أنه يحتاج إلى التكفير عن يمينه، فقد جاء في تلمودهم (إنّ الله إذا حلف يمينًا غير قانونية احتاج إلى من يحلله من يمينه، وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين أن الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي الحاخامات أنّه لم يحلله منها اعتبروه حمارًا، لأنّه لم يحلل الله من يمينه ولذلك نصّبوا ملكًا بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من

أيمانه ونذوره عند اللزوم) هذه نماذج من العقيدة اليهودية المحرفة المزيفة التي تشكل قاعدة دينهم.

إنحراف العرب عن التوحيد:

كان العرب على دين التوحيد دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، واستمروا على ذلك إلى ما قبل البعثة بأربعمائة سنة، حيث ظهر فيهم رئيس مسموع الكلمة مطاع لا يخالف، فغير دينهم ذلك هو عمرو بن عامر الخزاعي، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : «**إنّ أوّل من سيّب السُيوب وعَبد الأصنام أبو خُزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيتُه يجُرُّ أمعاءَهُ في النار**»، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجُرُّ قصبُهُ في النار، كان أوّل من سيَّب السيوبَ**» وفي صحيح البخاري أيضًا عن عائشة عن النّبيّ ﷺ قال: «**رأيتُ جهنم يحطم بعضُها بعضًا ،ورأيت عمرًا يجُرُّ قُصْبه، هو أول من سيبَ السيوب**».

فعمرو هذا غير دين العرب بدعوتهم لعبادة الأصنام، وباستحداث بدع في دين الله تعالى أحلّ فيها وحرم بهواه، ومن ذلك ما ذكره الله في كتابه: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾**﴾ [المائدة: ١٠٣].

وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية، فمن قائل أن عمرًا كان له رئي من الجن هو الذي دلّه على الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح، وكان قوم نوح يعبدونها، فاستخرجها عمرو، ووزعها في العرب، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام عندما رآهم يعبدونها، طلب منهم صنمًا فأعطوه واحدًا نصبه بمكة.

لم تابعت العرب عمرًا؟

والسبب في أنّ العرب تابعت عمرو بن لحي أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان

سيد خزاعة في حال غلبتها على مكة وعلى البيت بعد أن نفت قبيلة جرهم من مكة، و كانت العرب قد جعلته ربًّا، لا يبتدع بدعة إلاّ اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة، ويُقال: إنّ عمرًا هذا هو الذي دعا الناس إلى عبادة اللات، وكان رجلاً يلت السويق للحاج بالطائف على صخرة هناك، فلما مات زعم عمرو بن لحي أنه لم يمت، وأنه دخل في الصخرة التي كان يلتُّ عليها وأمرهم بعبادتها، ومما يذكر عنه أيضًا أنه هو الذي غير التلبية التي كانت تعلن التوحيد لله وحده، فقد كانت التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» واستمر الحال حتى كان عمرو بن عامر فبينما هو يطوف بالكعبة يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال: (لبيك لا شريك لك) فقال الشيخ: (إلاّ شريكًا هو لك) فأنكر ذلك عمرو فقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: قل (تملكه وما ملك) فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو فدانت بها العرب.

بداية الإنحراف:

ويذكر لنا ابن إسحاق كيف كانت بداية الإنحراف عند العرب من نسل إسماعيل عليه السلام في عبادتهم الأحجار، فقد كان أول أمرهم أنهم كانوا يعظمون الحرم فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاق بهم، فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة والفسح في البلاد، فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم إلى غيره إلاّ حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا له، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، ثمّ أدّى بهم ذلك إلى عبادة هذه الأحجار، ثم كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وانظر إلى ما صار إليه أمرهم وحالهم: عن أبي رجاء العطاردي قال: كنّا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجرًا أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به، ومن عجائب أمر الجاهلية أنّ الرجل منهم كان إذا سافر حمل معه أربعة أحجار، ثلاثة لقدره والرابع يعبده.

أصنام العرب:

واتخذوا الأصنام والأوثان، قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: وكان من أقدم أصنامهم (مناة) وكان منصوبًا على ساحل البحر الأحمر من ناحية (المشلل) بقديد بين مكة والمدينة، وكانت العرب جميعًا تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه، ويذبحون له، ويهدون له، ولم يكن أحد أشدّ إعظامًا له من الأوس والخزرج، وبلغ من تعظيم الأوس ومن جاورهم من عرب يثرب له أنهم كانوا يحجون، فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤوسهم، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تمامًا إلاّ بذلك، وكانت (مناة) لهذيل وخزاعة فبعث رسول الله ﷺ عليًا عام الفتح فهدمها، ثم اتخذوا (اللات) بالطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكانت سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها، وبها كانت تسمى زيد اللات وتيم اللات، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان بن حرب لما أسلمت ثقيف فهدماها وحرقاها بالنار.

غير أنّ ابن جرير يروي في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾**﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يلت السويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتُّ السويق للحاج. رواه البخاري بنحوه. ثم اتخذوا (العزى) وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالم بن سعد بوادي نخلة فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتًا، فكانوا يسمعون منها الصوت، قال الكلبي فيما يرويه عن ابن عباس قال: كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: «**ائت بطن نخلة فإنك ستجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى**»، فأتاها

فعضدها، فلما جاء إليه قال: «**هل رأيت شيئًا؟**» قال: لا. قال: «**فاعضد الثانية**» فعضدها، ثم أتى النبيّ ﷺ قال: «**هل رأيت شيئًا؟**» قال: لا. قال: «**فاعضد الثالثة**» فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها فقال خالد:

كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممه، ثم عضد الشجرة، وقتل السادن، ثم أتى النّبي ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب**» وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها ويدعون، و قال الكلبي في كتابه الأصنام: وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، و أعظمها عندهم (هبل) وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرًا أتوه، فاستقسموا عنده بالقداح، وهو الذي قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل، فقال الرسول ﷺ: «**قولوا: الله أعلى وأجل**».

ومن أصنامهم (إساف ونائلة)، ويروي بعض الرواة أن رجلاً وامرأة زنيا في البيت الحرام فمسخهما الله حجرين، ووضعتهما قريش عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلمّا طال مكثهما وعبدت الأصنام، عبدا معها، فكانوا يذبحون عندهما، ولما فتح الرسول ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩]، وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحُرقت. أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود بنحوه ولم يذكرا «وهي تتساقط.. الخ» وقد انتشرت عبادة الأصنام انتشارًا غريبًا حتى إنه كان لأهل كل دار في مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر فكان أول ما يصنع في منزله أن يتمسح به.

قال ابن اسحاق الكلبي: وكان (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب، وكان مروة بيضاء منقوشًا عليها كهيئة التاج، وكان له بيت فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلي: «**ألا تكفيني ذا الخلصة؟**» فسار إليه بأحمس فقاتلته خثعم وباهلة، فظفر بهم، وهدم بيت ذي الخلصة وأضرم فيه النار. وفي البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا تُريحني من ذي الخلصة**» وكان بيتًا في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمس إلى ذي الخلصة، وكانوا أصحاب خيل، فقلت: يا رسول الله، إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري، وقال: «**اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا**» فانطلق إليها فكسرها وحرَّقها.

وكان لدوس صنم يُقال له: (ذو الكفلين) فلما أسلموا بعث رسول الله ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي فحرَّقه، وكان لبني الحارث بن يشكر صنم يُقال له: (الشري)، وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم يقال: (الأقيصر) في مشارف الشام. ولو أردنا أن نستقصي هذا الموضوع لطال الحديث.

ظلمة دامسة عند البعثة:

لم يكن قبل بعثة الرسول ﷺ من بقايا النور السماوي الذي جاءت به الأنبياء إلاَّ أضواء خافتة لا تكفي للهداية والإستقامة على المنهج الرباني، لضياع ذلك المنهج واختلاطه بذلك الباطل الكثير، وفي الحديث: «**إن الله نظر – قبيل البعثة – إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب**».

وقد حفظت لنا النصوص التاريخية أن أربعة من عقلاء قريش اعتزلوا قومهم في أحد أعياد قريش عند وثن من الأوثان، وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، ولقد أخطئوا دين أبيهم

إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينًا. فإنكم - والله - ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الإلتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر، وترك الإسلام حتى هلك نصرانيًا، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد ربّ إبراهيم، وبادأ قومه بعيب ما هم عليه.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (واد غربي مكة) قبل أن ينزل على النبيّ ﷺ بالوحي، فقدّمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وإنّ زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكارًا لذلك وإعظامًا له.

قال موسى بن عقبة حدثني سالم بن عبد الله - ولا أعلمه يحدث به إلاّ عن ابن عمر - أنّ زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعليّ أن أدين بدينكم فأخبرني، فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلاّ من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأني

أستطيعه!، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلاّ أن يكون حنيفًا، قال زيد: وما حنيف؟ قال: دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يعبد إلاّ الله، فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلاّ من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا غضبه شيئًا وأني أستطيع، هل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلاّ أن يكون حنيفًا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيا ولا يعبد إلاّ الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أُشهدك أني على دين إبراهيم.

قال: وقال الليث: كتب إليّ هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحي الموءودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها. انتهى ما ذكره البخاري.

وقد سُئل الرسول ﷺ عن زيد هذا فقال: **«يُحشر ذاك أُمّةً وحدهُ بيني وبين عيسى بن مريم»** قال ابن كثير: إسناده جيد حسن. وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال: **«دخلتُ الجنّة فرأيتُ لزيد بن عمرو بن نفيل دوحَتين»** قال ابن كثير: وهذا إسناده جيد.

وبعد هذه الظلمة الشديدة أذن الله ببزوغ فجر الإسلام فاستنار الناس بشمسه، واهتدوا بهديه فله الحمد والمنة.

تعالوا إلى كلمة سواء:

في كتاب النّبيّ ﷺ إلى هرقل:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام

على من اتبع الهدى، أسلم تَسْلَم يُؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثـم الأريسيين (الفلاحين) ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾ [آل عمران: ٦٤]. رواه مسلم.

والخطاب في الآية يتوجه لليهود والنصارى جميعًا؛ لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب، والكلمة السواء هي الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، وهي أن لا نعبد إلاّ الله، وقد نهاهم سبحانه عن اتخاذهم بعضهم بعضًا أربابًا من دونه فقال جلّ وعلا: ﴿ **وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي: لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلاّ فيما حلله الله تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾

[التوبة: ٣١].

معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم، وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله، ثم قال سبحانه: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ** ﴾ أي: أعرضوا عما دعوا إليه، فقولوا: ﴿ **اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ أي: متصفون بدين الإسلام، منقادون لأحكامه، معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والإنعام، غير متخذين أحدًا ربًا، لا عيسى، ولا عزيرًا، ولا الملائكة؛ لأنهم بشر مثلنا يحدث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئًا بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أربابًا.

وروى أنس بن مالك قال: قلنا: يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «**لا**». قلنا: أيعانق بعضنا بعضًا؟ قال: «**لا، ولكن تصافحوا**» [أخرجه ابن ماجه].

رضينا بالله ربًا:

قال ابن القيم – رحمه الله –: لا إله إلاّ هو الذي تألهه القلوب: محبة، وإجلالاً، وإنابة، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلاً، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلاً.

وقال ابن رجب – رحمه الله –: لا إله إلاّ هو الذي يُطاع فلا يُعصى: هيبة له،

وإجلالاً، ومحبة، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلاَّ لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلاَّ الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعي: لا إله إلاَّ الله، أي انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلاَّ فهو جهل صرف، ويقول تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④** ﴾ [الإخلاص]، فأخبر عن نفسه بالأحدية المطلقة التي تتناول وحدة الذات والصفات والأفعال، وبأنه الصمد يعني السيد الغني الذي يصمد إليه الخلق، ويقصدونه في حوائجهم، ثم نفى عن نفسه الولد لتمام ملكه وغناه، فهو لا يحتاج إليه، وكذلك نفى أن يكون غيره والداً له فيكون أصلاً له سابقًا عليه، ثم نفى أن يكون أحد كفواً له، أي: مماثلاً ومشابهًا.

وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ⑨١** ﴾ [المؤمنون: ٩١].

يقول شارح الطحاوية: فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلاً يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك، وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد ثلاثة أمور:

[١] إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

[٢] وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

[٣] وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله، وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه.. فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطرة، معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطرة من توحيد الربوبية، دالة مثبته مستلزمة لتوحيد الإلهية. اهـ.

وتوحيد الربوبية: يعني الإقرار بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، وهذا يستوي فيه كل الخلق، ولا ينكره إلاّ الدهريون قديمًا والشيوعيون حديثًا، ولا يوجد بين طوائف البشر من يقول بوجود ربين أو إلهين متكافئين في الصفات والأفعال حتى أهل التثليث من النصارى الذين يجعلون الآلهة ثلاثة: الآب، والإبن، والروح القدس، لا يجعلون هذه الأقانيم الثلاثة بدرجة واحدة، بل الآب عندهم هو الأقنوم الأول، والإله الأكبر.

أما توحيد الألوهية: فهو استحقاقه سبحانه أن يُعبد وحده لا شريك له، وقد غلط البعض كالشيخ محمد عبده في اعتبار توحيد الربوبية والإنفراد بالخلق هو الغاية العظمى من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن هذا النوع من التوحيد كانت تقر به الأمم التي بعثت إليها الرسل، ولم يقع نزاع فيه بينهم وبين الرسل، وإنما كان النزاع في توحيد الألوهية والعبادة، ولهذا لم يجئ على لسان الرسل عليهم السلام الدعوة إلى اعتقاد أن الله هو وحده، وإنما كان مدار دعوتهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، فكل منهم كان مفتتح دعوته لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقد أحسن العلامة السيد / رشيد رضا، حين قال مستدركًا على أستاذه:

فات الأُستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة، وهو أن يُعبد الله وحده، ولا يُعبد غيره بدعاء، ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام وغير ذلك: كالنذور، والقرابين تذبح بأسمائهم، أو عند معابدهم، هذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو إليه كل رسول قومه بقوله: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ اهـ.

يضاهئون قول الذين كفروا من قبل:

فطر الله عباده على توحيده، والإقرار بوجوده، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٠]. ويقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « **كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، ويمجسانه، وينصرانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء** ».

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: « **خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » فهذه الآيات والأحاديث تدل صراحة على أن التوحيد هو الأصل، والشرك طارئ عليه، وأن الناس كانوا أولاً على هدى قبل أن تنحرف بهم الأهواء، وتزلهم الشياطين، ولسنا بحاجة لإيراد الأبحاث العلمية القائمة على التجربة التي تؤيد أن أمر التوحيد والتدين أصيل في النفس الإنسانية، وأنه لم يحدث نتيجة لعوامل اقتصادية، أو اجتماعية كما يزعم بعض السطحيين.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: « **كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد** ».

قال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وهذه الأمة كانت متفقة على الحق والهدى، وهذا هو المأثور عن ابن عباس، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وعكرمة، وقتادة، وأبي العالية، ومجاهد، وغيرهم مما يكاد يكون إجماعًا، وهذا هو الموافق للواقع.

وقد ذكر سبحانه عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ [نوح: ٢٣]، وهؤلاء كانوا رجالاً صالحين، فلما ماتوا عكف قومهم على قبورهم؛ ليتأسوا بهم في العبادة، ثم زين لهم الشيطان أن يتخذوا لهم صوراً ليتذكروا كلما رأوها كيف كان نشاط هؤلاء في عبادة الله، فيكون ذلك أدعى إلى الإقتداء بهم، فلما طال عليهم الأمد، وانقرض ذلك الجيل، وجاء جيل آخر أوهمهم الشيطان أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور ويستسقون بها فعبدوها.

والغلو في الصالحين داء وبيل ابتلى به أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا القول في عزير، نقل عن بعض أشراف اليهود: كسلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، أنهم قالوه للنبي ﷺ، وأقوال السادة عادة مشهورة في الناس يُحتج بها، وحكى الطبري أن عزيرا لما جاء بني إسرائيل بالتوراة المدفونة قالوا: إن هذا لم يتهيأ له إلا وهو ابن الله، وظاهر قول النصارى أن المسيح ابن الله إنما أرادوا بنوة النسل كما قالت العرب في الملائكة، كذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما وهذا أشنع الكفر.

قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله، وأنه ابن إله.

ومعنى ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ على ثلاثة أقوال:

[١] يشابهون قول عبدة الأوثان.

[٢] قول الكفرة: الملائكة بنات الله.

[٣] قول أسلافهم فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

التراث والصراع الحضاري

فقد كثر الحديث في الغرب عن صراع الحضارات كتبرير وتأصيل لمواجهة الإسلام والمسلمين، ولإثبات العداء التاريخي بين أصحاب المناهج والحضارات، وكمحاولة لإظهار استعلاء الفكر الغربي الديمقراطي، بل السعي لفرضه وهيمنته، وفي المقابل خرج البعض يُنادي بحوار لا بصراع الحضارات، وكان أشبه بمن يرفع غصن الزيتون في مواجهة المدفع!!.

ولا بأس بالدعوة للحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإظهار سماحة الإسلام، وتفنيد شبهات الأعداء والخصوم، لا معارضة بين ذلك وبين الخروج من الواقع السَّيِّئ، والثبات على معاني العقيدة، وتوضيح مفهوم الولاء والبراء، والجنوح للسلم لا حرج فيه متَّى تحققت مصلحة الإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال سبحانه: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد: ٣٥].

إنَّ الكلمة قد تحسن في مواجهة الكلمة، وفي قتال الفتنة والقتال على الملك، يجمل بالإنسان أن يكسر سيفه، ويلزم بيته ويكون كخيري ابني آدم، أما الكافر الصائل على المال والعرض والدين، فيجب دفعه بما أوتينا من قوة، ولا خلاف في ذلك، والإكتفاء بالتلويح بغصن الزيتون في وجه ذلك العدو الكافر مجافاة ومخالفة للشرع والعقل في آن واحد، والتذرع بضعف الأمة لا يجعلنا نكرس للمزيد من الضعف بإبعاد الأمة عن عقيدتها وهويتها في التعليم والإعلام والخطاب الديني...

بل الواجب الأخذ بأسباب القوة وإعداد العدة، وترك الذنوب والمعاصي التي تمكن بسببها الأعداء من رقابنا، والحرص على ترسيخ معاني الإيمان واليقين في البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ

عدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والرجوع إلى أولي الأمر من الأمراء والعلماء العاملين الربانيين، من شأنه أن تتحقق به السياسة الشرعية، التي تنقلنا من ضعف إلى قوة ومن قوة إلى قوة.

ومن الخطورة بمكان أن ندس الرءوس في الرمال، ونصنع صنع النعام، ونتجاهل صراع المناهج أو الصراع الأيديولوچي العقائدي، فهذه مغالطة للشرع والواقع والحق والحقيقة، وإلا فبماذا نُفسر ما حدث بين الأنبياء وأممهم، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾ [يس: ٣٠].

وبماذا نفسر قتال الخوارج للصحابة يوم النهروان، وقتل ابن ملجم لعليّ رضي الله عنه والعداوة القائمة بين الشيعة وأهل السُّنَّة، وما فعلته الصوفية مع ابن تيمية... ومع المناداة بالديمقراطية وقيام الأحزاب، بماذا نفسر ما يحدث بين الأحزاب الشيوعية والليبرالية والوطنية والقومية... في البلد الواحد وبين أبناء الأمة الواحدة، إلا أنه صراع منهجي، ولا يختلف اثنان على طبيعة الحروب الصليبية والحرب مع اليهود في فلسطين، وما حدث لأهل البوسنة على أيدي الصرب ... فقبل أن تكون حروبًا للسيطرة على الأرض واستلاب خيرات البلاد والعباد، كانت العقيدة هي المحرك والدافع للصراع.

صراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، صراع يقوم بين حضارة على منهاج النبوة وعلى أساس واجب العبودية، وبين حضارات عفنة، آيلة للسقوط والإنهيار، قامت على غير منهج الله، وتشابهت مع حضارة قوم عاد وثمود وقوم لوط - هذا إن صحَّ وصفها بالحضارة وليست بحضارة - .

وهذه السُّنة من أهم السُّنن الربانية أن يدور صراع بين الحق متمثلاً في دين

الحق الذي ارتضاه ربنا للعالمين من لدن آدم حتى قيام الساعة، وبين غيره من النظم والدساتير والفسلفات والمناهج المعوجة والمنحرفة عن الإسلام، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ويقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وأعظم معروف هو إخلاص العبودية لله جل وعلا، وأول منكر هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات، والإعراض عن شريعة الله، فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل، وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة ولا حتي مئات المعارك إذ أنه يتخذ عدة أشكال ويمتد في مساحات طويلة تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع وقد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في جوانب أخرى، واستمراره يأتي من كثرة الأعداء في الداخل والخارج، من النفس والأقارب والأموال والأزواج، ومن الشيطان وجنوده، ومن الكفار علي مختلف ألوانهم وأشكالهم يهوداً كانوا أو نصاري أو ملاحدة، والإنسان وهب من القدرات والقوى ما يستطيع به مع توفيق الله وهدايته من السيطرة والإنتصار.

وهذا الصراع بدأ مع خلق آدم وأمر إبليس بالسجود له، فامتنع محتجاً بشرف عنصره وأنه خلق من نار، فكيف يسجد من خلق من نار لمن خلق من الطين فخاب اللعين وخسر عندما اعترض على أمر ربه ولم يذعن له ولم يخضع له بل ولم يستغفر ربه حين عصى بل تمادى في غيه وسأل الله النظرة والمهلة إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦)﴾ [الحجر: ٣٦]. واقتضت حكمة الله إمهاله إلى يوم القيامة ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾

[الحجر: ٣٧، ٣٨]، وجعل يطيف بآدم فوجده خلق خلقاً أجوف، فقال: لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليّ لأعصينك.

فوسوس لأبينا آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها وأقسم لهما إنه لهما لناصح ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف: ٢١ – ٢٣]، لم يعهدا من قبل أن يجدا مخلوقاً يقسم بالله كذبا، ولذلك يقول العلماء: من خدعنا بالله انخدعنا له.

ثم أمر الجميع بالهبوط إلى الأرض ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقطع إبليس عهداً على نفسه فقال: ﴿ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ١١٨]، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال أيضاً: ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف: ١٧]، وحذر رب العزة عباده من كيده ووسوسته فقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وامتد الصراع إلى بني آدم وبني إبليس، وبين لنا ربنا جلّ وعلا أن الشيطان ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وأنه لا حجة له في إغواء العباد: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وكل سلطان في القرآن فهو الحجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، صراع بدأ ولم ينته بل ولن ينتهي حتى تنتهي الحياة، وفي الحديث: «الجهاد ماض في أمتي لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل حتى يقاتل

آخر رجل من أمتي المسيح الدجال» ضعيف السند وله شواهد كقوله: «**الجهاد ماض مع كل بر وفاجر**» من رواية مكحول عن أبي هريرة ولم يسمع منه، وفي الحديث الآخر: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة**»

[رواه البخاري ومسلم].

وقد انحرف كثير من الناس عن منهج ربهم ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)**﴾ [سبأ: ٢٠]، ولذلك يقول تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣]، وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قالوا: وأين ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف**» [رواه البخاري]، ولذلك يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)**﴾ [ق: ٣٠].

فالحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة، ولكن اعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)**﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦]، والشيطان في حربه وصراعه لبني آدم لا ينام. كما قال الحسن حين سئل: أينام الشيطان؟ قال: لو نام لاسترحنا.

وإذا كنا نتغافل عن مهمتنا فإن الشيطان يواصل الليل والنهار في سبيل إنفاذ وعده، وتابعه على ذلك خلق كثير أصبحوا من أوليائه بل وفاقوه في حيله

كالتلميذ الذي يفوق أستاذه، يواصلون الليل والنهار في المكر والكيد للإسلام والمسلمين، وشنوا على هذه الأمة حرباً لا هوادة فيها، واستخدموا في هذه الحرب كل صور الأسلحة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧﴾ [الصف : ٨].

حرب عسكرية وسياسية واقتصادية، وحرب فكرية أو ما يسمى بالغزو الفكري، وهو أعنفها، وأطلقوا على الأمة سهاماً كثيرة بحيث من لم يصبه سهم أصابه السهم الثاني أو العاشر.

وكانت الديمقراطية هي إحدى هذه السهام الخبيثة التي أطلقت على الأمة بالإضافة إلى نِحَل وفلسفات ونظريات، وركزوا في سبيل ذلك على كل القطاعات من رجال ونساء وكبار وصغار، واستخدموا كل الوسائل من إذاعة، وتليفزيون ومجلات وجرائد، ولم تسلم مناهج التعليم في مختلف المراحل من هذا الدس، وحشدوا من أجل ذلك جيوشاً جرارة من الساسة والزعماء والمفكرين ورجال الأدب لترويج هذه النظريات والفلسفات في أوساط المسلمين الذين يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

بل وحاول أصحاب هذه المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم وتأييدها أن يجدوا سنداً تاريخياً لها في الوقت الذي حرصوا على تشويه تاريخ هذه الأمة الإسلامي لإبعاد المسلمين أكثر وأكثر عن دينهم، وأتوا للأمة بحثالات البشر ووضعوهم في مقام القدوة والقيادة، وأضفوا عليهم ألقاب البطولة والزعامة، فنادوا بالتغريب وبأخذ كل ما عليه الغرب حتى هذه النجاسات الموجودة في أمعائهم لكي تتطور الأمة كما تطور هؤلاء.

ومن بين هؤلاء مصطفى كمال أتاتورك الذي وصف بالبطولة وأنه محرر الشعب التركي من سلطة السلاطين واتخذ مثلاً لكثير من الثورات في البلاد العربية حتى أن شوقي بعد الانتصار المريب على الإنجليز أنشد يقول:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

ولكن ما لبث أن ظهر على حقيقته حيث ألغى الخلافة واللغة العربية حتى في الآذان، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض العلمانية اللادينية على الشعب التركي ونزع الحجاب، ثم ظهرت الوثائق التاريخية فأثبتت عمالته للإنجليز وصلته بالماسونية حتى أنه عندما حضرته الوفاة استدعى السفير الإنجليزي وطلب منه أن يتولى حكم تركيا من بعده فاعتذر السفير بلباقة حتى لا تتكشف العمالة.

وإذا كان الصراع قديماً وعقد الإخاء وثيق بين كل قوى الكفر فلتستمع لما يقوله كاسترو « رئيس كوبا » للسفير الإسرائيلي في بلاده « على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاً إسلامياً دينياً حتى لا يجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها؛ لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة في المجتمعات الإسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية » .

والباطل صورة مكرورة، فقد أرسل اللورد اللنبي إلى وزارة الخارجية البريطانية وذلك بعد تحريه شهراً وكانت انجلترا قد غيرت مندوبها أبرق يقول :

١ – الثورة تنبع من الأزهر وهذا أمر له خطورته .

٢ – أفرجوا عن سعد زغلول وأرسلوه إلى القاهرة .

ورجع سعد زغلول ليصرف الثورة من ثورة دينية إلى ثورة وطنية تنادي بتحرير التراب ويشترك فيها الجميع، وقال قولته المشهورة: « الدين لله والوطن للجميع » وكانت مفاوضات وتفاهات أطلق عليها اسم المكاسب الوطنية خرج بعدها سعد زغلول ليقول : « خسرنا كل المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز » .

ويقول : « الإنجليز خصوم شرفاء معقولون » .

ثم يأتي بعد ذلك لطفي السيد أستاذ الجيل ليقول: « إن الإنجليز هم أولياء

أمورنا في الوقت الحاضر وليس السبيل أن نحاربهم بل السبيل أن نتعلم منهم ثم نتفاهم معهم » ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

وإلا فماذا ينتظر من الذين تربوا على موائد الغرب تارة، وموائد الشرق تارة أخرى، ونسوا أو تناسوا دينهم في سبيل نقل بعض معالم التطور، ولم يفرق الكثيرون بين ما يجوز نقله وبين ما لا يجوز اعتباره ولا أخذه، فالعلوم الدنيوية كالزراعة والصناعة والهندسة والطب تؤخذ من كل من أفلح فيها بخلاف الهداية الإلهية في العقيدة والشريعة والأخلاق والحكم فهي من الإسلام وحده لا غير، وهكذا حورب الإسلام بيد أبنائه بعد أن كان يحارب بيد أعدائه ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

وسنة التدافع المذكورة في القرآن إنما هي لخير البشرية، ولتحقيق منهج العبودية لله عز وجل في أرضه وإزالة كل طاغوت يعبد من دون الله، وحتى يكون الدين كله لله فلابد من شد العزائم لتحقيق المجتمع المسلم الذي ينفذ أمر الله وشرعه وفق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد : ٣١]، ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣]، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة : ٢١]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [الفتح : ٢٨] .

التراث وميراث النبوة

ما من نبي إلا ودعا إلى الإسلام، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٤].

فإبراهيم هو القدوة الذي يُؤتم به وهو معلم الخير ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] بل إمام الناس كلهم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقد أمر بالإسلام وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه وصيته إلى بنيه ووصية إسرائيل (يعقوب) إلى بنيه وقد اصطفى ربنا آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ثم قال: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] فأمر باتباع ملة إبراهيم ونهى عن التهود والتنصر، وأمر بالإيمان الجامع كما أنزل على النبيين وما أوتوه، وبالإسلام له سبحانه وأن نُصبغَ بصبغة الله وأن نكون له عابدين، ورد على من زعم أن إبراهيم وبنيه وإسرائيل كانوا هودًا أو نصارى، وفي الدعاء: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا، وما أنا من المشركين**» [رواه أحمد].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

[آل عمران: ٨٣]

فالإسلام هو العقيدة الحقة الصحيحة وما سواه فعقائد فاسدة لا تُغني عن

أصحابها من الله شيئًا سواء أكانت من وضع البشر كهذه النظم والدساتير والمناهج الكفرية، أو منزلة ولكنها حُرفت وبُدلت كالتوراة التي استبدلها اليهود بالتلمود، والإنجيل الذي استبدله النصارى بإثنى عشر إنجيلاً يضرب بعضها بعضًا، وقد تكفل سبحانه بحفظ دينه الإسلام (كتابًا وسنة) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] بل ويحفظ من يقوم بالدين على مر العصور، والإسناد من الدين، ولا سند متصل عند أهل الكتاب ـ ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء ـ ولما سُئل ابن المبارك عن الأحاديث الموضوعة، قال: تعيش لها الجهابذة.

ولا يصح لأحد أن يتحرج من النطق بكلمة الإسلام ولا العمل بمقتضاه أو إظهار شعائره، يقول تعالي: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] آمنًا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

الدين واحد وإنما تعددت الشرائع :

وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع، وهذا المعنى ورد فى القرآن في مواضع كثيرة، وكذلك في الأحاديث الصحيحة، مثل ما ترجم عليه البخارى فقال : باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد . وذكر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **إنا معشر الأنبياء أخوة لعلات، ديننا واحد وأمهاتنا شتى** » ومثل صفته في التوراة « **ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا** » .

ومن هذا نستبين خطأ من يقول: « الأديان السماوية » لأن الدين واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٨] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وكل من لا يدين بالإسلام من أهل الكتاب بعد سماعه برسول الله ﷺ، فهو كافر « **والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** » [رواه مسلم].

الدعوة إلى زمالة الأديان :

دعوة خبيثة فاجرة من شأنها أن تصرف اليهود والنصارى عن الدخول في الإسلام ؛ ولأن كثيراً من النصارى وبعض اليهود متعطشين إلى دين شامل كامل كالإسلام، وقد سئموا مما يسمى عندهم بالمسيحية أو اليهودية التي هي من صنع الأحبار والرهبان، وليست الدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام.

وهناك هدف آخر لهذه الدعوة وهو تخدير مشاعر المسلمين تجاه اليهود والنصارى، فلا يستشعر المسلم وجوب دعوتهم ووجوب عداوتهم في الله لأنهم كفار بل إن بعض المسلمين يظن أن اليهود والنصارى ناجون يوم القيامة لأنهم اتباع دين سماوي بزعمهم.

واتخذهم البعض أولياء من دون المؤمنين وأصدقاء وأحباب مخالفين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله سبحانه: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

تحب أعداء الحبيب وتدعي   حبا له ما ذاك في إمكان

ولم يفرق جمع من الناس بين جواز رحمتهم بالرحمة العامة كمداواتهم من مرض ومجادلتهم بالتي هي أحسن وهديتهم وعيادتهم والتزوج من نسائهم والبيع والشراء معهم والعدل فيهم، وبين بغضهم وعدم محبتهم أو مودتهم أو موالاتهم، واستمسك كل فريق ببعض النصوص، وهجر البعض الآخر، وأهل الحق بين الغالي والجافي يعلمون الحق وبه يعدلون، ويستمسكون بكل ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، فالدعوة إلى الصداقة بين أهل الأديان أو زمالتهم دعوة مارقة فاسدة وقد جاور النبي ﷺ اليهود في المدينة، جادلوه وخاصموه ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، ولم يدعهم للتوفيق بين الإسلام واليهودية، أو إلى التقريب بينهما، ولو علم في ذلك خيراً لفعله، وقدم عليه وفد نجران فحاجوه في

النصرانية، ودعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام، ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ثم دعاهم إلى المباهلة (أى ينزل الله لعنته على الكاذب) فخافوا وأشفقوا على أنفسهم، فعرض عليهم إما الإسلام أو الحرب أو الجزية، فاختاروا دفع الجزية، فينبغي على كل مسلم أن ينتبه إلى خطورة هذه الدعوات المشبوهة مثل دعوات الزمالة والتقريب بين الأديان .

معنى الإسلام :

الإسلام يعني الإستسلام والخضوع والإذعان والإنقياد لأمر الله سبحانه، ولا تثبت قدم في الإسلام إلا على ظهر التسليم والإستسلام، وما سلم أحد في دينه إلا من سلم لنصوص الوحيين (الكتاب والسنة)، والإسلام أيضًا هو الشرع العام والنظام الشامل لكل ناحية من نواحي الحياة سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية، وسواء تعلقت بالفرد أو بالجماعة، بالمسجد أو بالسوق، دين ضابط لحالات السلم والحرب والسياسة الداخلية والخارجية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ﴾ [المائدة : ٣] .

والنبي ﷺ أقام دولة بدين الله ونظّم شئونها بشرع الله، والإسلام هو الإجابة على الأسئلة الثلاثة : من خلقنا؟ ولماذا خلقنا؟ وإلى أين المصير؟ فالله سبحانه هو خالق الخلق ومالك الملك وما خلقنا إلا لعبادته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وإليه سبحانه المرجع والمصير، والإسلام كما عرفه النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه « **شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا** » وهو دين التوحيد والعلم والعمل والعدل وغير ذلك من المعانى التي حث عليها ودعا إليها .

علاقة الإسلام بالإيمان :

يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحجرات : ١٤].

فالإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه وهؤلاء الأعراب كان معهم أصل الإيمان الذي منعهم من الدخول في عداد المنافقين، ولم يكن معهم الإيمان الكامل الذي يستحقون به مثل هذا الثناء ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥]، والإسلام إذا أفرد دخل في معناه الإيمان، كما في قوله تعالي : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩].

فالإسلام هو الإيمان وهو الهدى والبر والتقوى، وهو ما بعث الله به الرسول ﷺ من العلم النافع والعمل الصالح، ولا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، وإذا كان الإيمان يقتضي العمل الظاهر فالإسلام بدون إيمان من عمل المنافقين، والإيمان الكامل الواجب يقتضي فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه الله ورسوله، وإذا قصَّر في ذلك جاز أن ينفي عنه ذلك الإيمان بتقصيره.

(أي الإيمان الكامل المطلق ويبقى معه أصل الإيمان) كما نُفي عن الأعراب، والإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين باتفاق العلماء، والإيمان ينتفي بالكلية بانتفاء الشهادتين إجماعًا .

والإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا فأصبحت كلمة الإسلام تعني الأركان العملية، والإيمان يعني الأركان القلبية، وافترقا، أى في النص، واجتمعا، أي في المعنى.

المنهج المنضبط لفهم الإسلام:

ونعني به الرجوع لسلف الأمة في فهم الكتاب والسنة فنحن لا نرضى بالإسلام بديلاً ولا عنه تحويلا، والسلف هم الصحابة، ومن تابعهم بإحسان من سائر قرون الخيرية، وأئمة الدين العدول، والسلفيون هم من تابعوهم على هذا الفهم إلى يومنا هذا من أهل السنة والجماعة تمييزًا لهم عن أهل البدعة والإفتراق، يقول تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومحبة الصحابة رضوان الله عليهم توجب متابعتهم في العلم النافع والعمل الصالح، ويسعنا ما وسعهم، والأصول التي كانوا عليها معصومة بعصمة الكتاب والسنة، وقد أثنى عليهم ربهم فقال: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] ويقول النبي ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [متفق عليه].

والإجتماع على الحق محمود، والمذموم هو التعصب على الباطل، والحق مقبول من كل من جاء به كائنًا من كان، وهذا المنهج هو الميزان الذي نزن به أنفسنا قبل الناس، فإن وافقناه كنا على حق، وإن خالفناه راجعنا أنفسنا وفقْه، ولئن أكون ذنبًا في الحق خير من أن أكون رأسًا في الباطل، وحسم الفرقة والنزاع لا يكون بالمعاصي ولا بالبدع والشعارات، وإنما يكون بالرجوع لسنة رسول الله ﷺ كما في حديث العرباض بن سارية « **فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**» [رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح].

وكلمة التوحيد يجب أن تكون قبل توحيد الكلمة، والصوفية والشيعة والخوارج وأشباههم لن يقيموا خلافة على منهاج النبوة لأنهم ليسوا على مثل

ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، والمعصية أضر على الجيش من سيوف أعدائه، والبدعة أخطر، يقول تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد : ٧] .

والأسماء شاعت في السلف ومن بعدهم مثل المهاجرين والأنصار وأصحاب بيعة العقبة والرضوان والبحرية ثم السفينية وأهل الحديث وأصحاب الأثر السنة والجماعة، والأئمة الأربعة وسفيان الثوري وابن عيينة وابن المبارك وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والشوكاني والشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن باز والألباني وغيرهم كثير كلهم علماء على طريق السلف يحرصون على الرجوع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، والحق هو ما وافق الكتاب والسنة .

شبهة وبيان : ليس معني الرجوع لسلف الأمة في فهم الكتاب والسنة أننا سنجمد على وسائل التطور الأولى فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية، ومن سمات هذا المنهج التطور لا الرجوع للوراء وذلك فيما يقبل التطور والتحضر، والحضارة التي نقرها هي التي تقام على منهج العبودية لله في الأرض ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء : ٩] .

المستقبل للإسلام :

وذلك بغلبته وظهوره على الأديان الباطلة، فعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسُئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال وأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سُئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : « **مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى القسطنطينية** » رواه الحاكم ووافقه الذهبي والألباني - ورومية هي روما عاصمة إيطاليا - يقول الشيخ الألباني: « وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما

هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد ولتعلمن نبأه بعد حين، ولا شك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة » ا هـ . وهذا يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم ومادياتهم وسلاحهم .

الإسلام والمسلمون:

لا يخفى على أحد أن الإسلام قد أصبح في وادٍ والمسلمون في وادٍ ثانٍ، إسلامهم يناديهم من يوم بدر وأحد ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وعاد الأمر غريبًا كما بدأ غريبًا، واستسلمت الأمة لمكائد أعدائها الذين يعملون ليل نهار من أجل هزيمتها وإضعافها، واستخدموا من أجل ذلك كل سلاح سواء كان سياسيًا أو عسكريًا أو اقتصاديًا، وكان من أعتاها وأشدها الغزو الفكري، فحدث تبعًا لذلك نوع من الإنفصال المريب بين الدين والدولة والعلم والعمل والدنيا والآخرة والأرض والسماء وبين بعض العبادات وبعض.

وحورب الإسلام بيد أبنائه بعد أن كان يحارب بيد أعدائه، واستهزأ فريق من الناس بسنة رسول الله ﷺ، وقسموا الدين إلى قشر ولباب مما آل بالمسلمين إلى مزيد من الضعف والتفرق، بل وتسلط عليهم الكفار في عقر دارهم فتبدل الحال وتغير لما تركنا إسلامنا وراءنا ظهريًا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

وباختصار شديد تركنا أسباب عزنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة، هذه العزة الإيمانية التي جعلت عمر يكتب إلى أبي عبيدة يومًا ويقول : « إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله » وامتدت هذه العزة فكتب هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم يقول: « أما بعد : من هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع » وكان يحج عامًا ويغزو عامًا .

العلاج : واليوم إذا أردنا علاجًا فعلينا بالرجوع لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بدلاً من أن نولي وجوهنا قبل المشرق والمغرب، فنحل الحلال، ونحرم الحرام، ونحكم ونتحاكم بشرع الله، فتنصبغ الدولة بدين الله وذلك لأن الوطن لله والدين لله ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾ [الرعد : ٤١] ويستسلم رجال الدولة لأمر الله فيتركون النظم والدساتير والمناهج الكفرية . نطلب العلم للعمل، ونعمل هنا على ظهر الأرض ونظرنا إلى السماء وحساباتنا حسابات أخروية، فالدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد ونحن ننتقل من حياة إلى حياة لقول النبي ﷺ : « **إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها** » رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، ووسع النبي ﷺ في مفهوم الصدقة فقال : « **وفي بضع أحدكم صدقة** » [رواه مسلم] .

لا يليق بنا أن نصرف ساعة للشيطان، ونعيش بمنطق الجاهلية « اليوم خمر وغداً أمر » فالساعات كلها لله عز وجل ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٦٢] والمسلم يعظم حرمات الله وشعائر الله عز وجل لا يستهين بمستحب ولا بواجب .

وربنا عز وجل أحق أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يكفر، وفي ضوء هذه البصيرة سنعلم أن اختلاف القلوب هو بسبب عدم العقل وعلاجه إتباع نور الوحي ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وضعف المسلمين علاجه الإخلاص وقوة الإيمان ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] وتسليط الكفار علينا إنما هو بسبب أنفسنا وانحرافنا عن منهج الله، فقد بين لنا ربنا ذلك بشأن غزوة أحد وما حدث فيها ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

صحوة إسلامية . فاعملوا وأبشروا :

وبداية السيل قطرة، ومسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة، وهذه الصحوة التي تعيشها الدعوة والتي أسقط بسببها في يد أعداء الإسلام ما هي إلا مقدمة وكل مقدمة لها نتيجة نستبشر معها بتحقق الوعد الصادق بإذن الله، وإن غداً لناظره قريب .

الإسلام ... ومصطلح التطرف :

هذا المصطلح الوافد لو جاز إطلاقه فأولى الناس به الذين انحرفوا عن منهج الله فكانوا بين الغلو والجفو، والإفراط والتفريط. وينبغي الحذر من إطلاق المصطلحات المستوردة بصفة عامة، ومن بينها هذه الكلمة التي أصبحت تستخدم في الصد عن سبيل الله والتنفير من طاعة الله والتخويف من السير في ركب الإيمان حتى لا يوصف الإنسان بوصف التطرف، فامتنع البعض من إطلاق لحيته والتكلم باللغة العربية، والإستنان بسنة رسول الله ﷺ .

وشاع التبرج والفجور استجابة لهذه الصيحات فإلى هؤلاء جميعاً نقول: اتقوا الله فالميزان هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وليس العرف أو الواقع المنسلخ المتفلت عن دين الله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] والنصيحة والأمر بالمعروف يكون بالواجب والمستحب، والنهي عن المنكر يشمل المحرمات والمكروهات، ونحن لا نملك إلا أن نحب من أطاع الله ونواليه على ذلك، ونبغض من كفر بالله وحسّن طريق المعاصي والفجور لخلق الله ونعاديه على ذلك، والهفوات التي تبدر ممن يحرص على الإستقامة، إما أن نعالجها بروح الأبوة الحانية أو الأخوة الشفوقة، نعين صاحبها على طاعة الله لا أن نعين الشياطين على نفسه،

وإما أن نقف على منصة القضاء العادل الذي يحكم بما أنزل الله ولا ندين إلا ببينة ولنعلم أن الخطأ مرفوض والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان وفي هذه الحالة فليس لنا أن نشهّر أو نعمم التهمة على كل من سلك طريق الله واستقام على شرع الله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ [النور: ١٩] .

بعض خصائص وسمات الشخصية المسلمة :

[١] **الربانية أو الصبغة الإلهية** . فهذه الهداية نحتاجها في كل ناحية من نواحي الحياة، ومع كل نفس من أنفاسنا في العقيدة والشريعة والأخلاق والحكم، وهي تؤخذ من الإسلام وحده ولا يصح خلطها بالفلسفة ولا يمكن عليها من أديان منحرفة أو مبادئ ضالة ﴿ **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** ﴾

[الأنعام : ١٧١] .

[٢] **بصيرة وفرقان نميز بها بين الحق والباطل والإيمان والكفر** ولابد فيها من علم نافع وعمل صالح ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

[٣] **المسلم بشر** يصيب ويخطأ ويحب ويبغض يأكل ويشرب ويتزوج ويعمّر الأرض بطاعة الله، يعمل ويتكسب ويتطلع إلى السماء، ولا ينسى أنه واقف على سطح الأرض، فلا يبني قصوراً في الرمال ولا يسبح في غير ماء، يأخذ بالأسباب ويفوض الأمر كله لله، ويعطي كل ذي حق حقه، فلربه عليه حق، ولأهله عليه حق، فالهروب من الحياة والإنقطاع في الخرائب وتعذيب الجسد وتحريم ما أحل الله صور منكرة، وقد قال النبي ﷺ لحنظلة « **ساعة وساعة** » وكررها [رواه مسلم].

[٤] **العزة فلا كبر ولا غرور**، والمسلم لا ترهبه صولة الباطل، ولا عنفوان الكفر، فلا يخجل من انتمائه للإسلام ولا من إظهاره لشعائره، يبلغ شريعة الإسلام

وعقيدته للناس كافة، وهذه العزة مصدرها الإيمان لا الجنس أو اللون أواللغة أو المال أو النسب ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨]، ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

[٥] **التمسك بالحق والثبات عليه والمجاهدة فى سبيله** فالمسلم يتخوف على نفسه من المعصية ويتعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، يتضرع إلى ربه ويعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ويستصحب في سفره إلى ربه زاد التقوى ويصبر على ما أصابه ويعلم أن العاقبة للمتقين، وأن النصر عقبى الصابرين .

[٦] **الأوبة إلى الله** فالمسلم شديد الحب لربه قوي التعلق به ويتمنى لقاءه سبحانه في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، يُحدث لكل ذنب توبة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١١٢]

وختامًا نقول إذا كانت القوى الكافرة قد تسلمت زمام الأمور هنا وهناك، فلكي نعيد للإسلام ما كان عليه فلابد من إعادة الشخصية الإسلامية التي رأيناها في الرعيل الأول، فبمثل أولئك الرجال أعلى الله كلمته وأعز دينه وأذل الشرك وأهله، والله غالب على أمره ومتم نوره ولو كره الكافرون .

مبشرات ونذر

بُعث رسول الله ﷺ على حين فترة من الرسل بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلَّغ البلاغ المبين، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، لم ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن دلَّ أمته على كل خير، وزجرها ونهاها عن كل شر، ودعا أمته والدنيا بأسرها إلى دين الوحدة والتوحيد، فتعجب المشركون من هذه الدعوة وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، ورد عليهم القرآن بقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقد سلك النبي ﷺ مسلك البشارة والنذارة فكان يبشر مَن آمن بالجنة، وينذر مَن خالف بالعذاب ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ولما انتقل ﷺ إلى المدينة وحَّد بين الأوس والخزرج من جهة، وبين المهاجرين والأنصار من جهة أخرى، وأرسى دعائم الوحدة والتوحيد، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم كانت الإنطلاقة الكبرى شرقًا وغربًا، وامتلك المسلمون مُلك كسرى وقيصر، وغيَّر ربُنا بسلفنا الصالح وجه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقد توالت البشارات الصادقة التي تستحث النفوس المؤمنة على مواصلة الطريق في الإعتصام بالوحي المنزل والتشبه بخير القرون فيما كانوا عليه من وحدة وتوحيد.

(أ) وعد بطائفة ناجية:

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**» [رواه مسلم] وفي لفظ: «**مَن يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**» [رواه مسلم].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « **لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم** عليه السلام، **فيقول أميرهم: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة** » [رواه مسلم].

وعن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق وهم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم، بينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك** »، فقال عبد الله: أجل، « **ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مسها مس الحرير، فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة** » [رواه مسلم].

قال البخاري في وصف هذه الطائفة: « هم أهل العلم ».

وقال الإمام أحمد: « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟ » .

وقال القاضي عياض: « إنما أراد أحمد أهل السُنَّة والجماعة » .

وذكر ابن تيمية: « أن أهل السُنَّة هم الطائفة المنصورة » .

وقال النووي: « يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين »، وعدَّد أنواعهم فقال: « إنهم شجعان مقاتلون، فقهاء، محدِّثون زهاد، آمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أنحاء الأرض ».

وحرص المسلم على أن يكون من الطائفة الظاهرة الناجية المنصورة، لا يمنعه من أن يدعو الآخرين إلى سبيل ربه، فالمسلم مرتبط ارتباطًا عضويًا بكل مسلم

آخر، تتهاوى أمام هذا الإرتباط الجبال وتعبر البحار والمحيطات، وتُلغى الحدود وتتحطم العصبيات، جاء في كتاب معالم الإنطلاقة الكبرى (ص ٧٨): « أهل السُنَّة والجماعة إذن هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ، ممن تمسكوا بكتاب ربهم وسُنَّة نبيهم ﷺ، وأحبوا أصحابه ووالوهم وأخذوا عنهم الحديث النبوي الشريف علمًا وعملاً، فقهًا وسلوكًا، فهم الذين يرفعون شعار القرآن والسُنَّة والإجماع ، فيتمسكون بجماعتهم ويلمون شملها، ويحافظون على إئتلافها، وينضوون تحت رايتها بعيدين عن رايات وشعارات الفرق الضالة من أهل الشذوذ والتفرق والأهواء والإختلاف، وداخل جماعة أهل السُنَّة يتفاوت الناس في العلم والعمل والخير والشر والعدل والظلم والصبر والبغي والكف والعدوان، ولكنهم خلال ذلك يعلمون أن الإعتصام بالأخوة والموالاة والإئتلاف هو أصل جماعتهم وعماد دينهم وحقيقة هويتهم ورحمة ربهم لهم ».

(ب) تجديد دين الأمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يُجدد لها دينها** » [أخرجه أبو داود والحاكم والطبراني].

قال الخطيب في التاريخ: « وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث فروينا في المدخل للبيهقي بإسناده إلى الإمام أحمد أنه قال بعد ذكره إياه: « فكان في المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وفي الثانية الشافعي »، وقد يحدث هذا التجديد على يد فرد، وقد يتم على يد جماعة من أهل السُنَّة تتوافر فيهم صفات الطائفة الناجية الظاهرة المنصورة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فاحرص أن تكون واحدًا من هؤلاء الذين يُجدد الله بهم دينه، ويُعلي بهم كلمته، ويفتح بهم أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًا، وقلوبًا غُلفًا، وتفقه في دينك قبل أن ترأس وتسود، وتربى على عُلو الهمة، فهذه هي تربية القادة والسادة التي نفتقدها ضمن ما نفتقده، لا تربية العبيد ، ففي دعاء المؤمنين ﴿ **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٤] .

وانظر لقول هند بنت عتبة ﵂ عندما دخل عليها أحد أقاربها وكانت تحمل صغيرها معاوية، فقال لها: إن عاش معاوية ساد قومه، قالت: ثكلته إن لم يسُد إلا قومه . فإن فاتك شيء من هذه التربية، فاستدرك وأحسن تربية أولادك ومن حولك، فدعوتك دعوة عالمية، ينبغي أن تكون على مستواها في شمولية النظرة وسعة الحركة، واسأل الله من فضله، عساه يؤلف بك شتات قلوب العباد، وينصر بك دينه، وليس ذلك على الله بعزيز .

(جـ) عودة الخلافة الراشدة:

أجمع العلماء على وجوب نصب الخلافة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، ولم يخالف في ذلك إلا الأصم حيث أنه كان عن الشريعة أصم كما قال الإمام القرطبي، والأدلة في ذلك كثيرة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقد آل الأمر في النهاية إلى الخلافة العثمانية التي وُصفت بخلافة الجهل والفقر والمرض، إلا أنه مهما قيل عنها فلها حسناتها التي لا ينبغي أن تُغفل، فقد حمت الخلافة العثمانية العالم الإسلامي أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبي، وتكفى مواقف السلطان عبد الحميد « آخر سلاطين الدولة العثمانية »، الذي ضحى بعرشه ولم يُفرط في قضية فلسطين، وقال قولته المشهورة: « بلِّغوا الدكتور هرتزل – اليهودي – ألا يبذل بعد اليوم شيئًا من المحاولة في هذا الأمر – التوطن بفلسطين – فإني لست مستعداً أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكي، بل هي ملك شعب روى ترابها بدمائه، فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب، وإن الدولة العلية لا يمكن أن تختبئ وراء حصون بُنيت بأموال أعداء الإسلام، ولست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كلَّفني المسلمون بحمايتها، إن ديون الدولة ليست عارًا لأن غيرها من الدول الأخرى مدين – مثل فرنسا – إن بيت

المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولست مستعداً أن أتحمل في التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الأمانة».

وقد جرت محاولات لاغتيال السلطان عبد الحميد- رحمه الله - وإسقاطه حتى تم لهم ذلك بانقلاب سنة ١٩٠٨م، فهدموا دولة الخلافة واستوطنوا فلسطين وانتزعوها من غير مال ولا مقاومة تُذكر، وكثرت نعرات الوطنية والقومية هنا وهناك، وعاد الأمر غريبًا كما بدأ غريبًا، فالواجب علينا تكاتف الجهود والعمل لإعادة الخلافة الإسلامية، وقد بشَّرت الأحاديث بأنها ستكون خلافة على منهاج النبوة، يقول النبي ﷺ: **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»** [رواه أحمد وغيره]

وعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وسئل أي المدينتين تُفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تُفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مدينة هرقل تُفتح أولاً، يعني قسطنطينية»**

[رواه أحمد والحاكم].

قال الألباني - رحمه الله -: «ورومية هي روما كما في معجم البلدان وهي عاصمة إيطاليا اليوم، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، ولا شك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة.

(د) أبشروا فالمستقبل للإسلام:

ورد في الحديث: « **إن الله زوى** - أي جمع وضم - **لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها** » [رواه مسلم]، وقال رسول الله ﷺ: « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا ودخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يُذل به الكفر** » [رواه ابن حبان وغيره].

وفي الحديث أيضًا: « **لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى** »، فقالت عائشة ﵂: يا رسول الله إن كنتُ لأظن حين أنزل الله ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)** ﴾ [التوبة: ٣٣]، أن ذلك تامًا، قال ﷺ: « **إنه سيكون من ذلك ما شاء الله** » [رواه مسلم].

فلا داعي لليأس حتى وإن أصبح أمرنا يُدار على موائد اللئام، وتكالب علينا أراذل الأمم، كما تتكالب الأكلة على القصعة، فالمستقبل للإسلام بغلبته وظهوره.

قال الألباني - رحمه الله -: « هذا ومما يجب أن يُعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ: « **لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم** » [رواه البخاري]. فهذا الحديث ينبغي أن يُفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها، مثل أحاديث المهدي ونزول عيسى ﵇ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿ **إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧]، أسأل الله أن يجعلنا مؤمنين به حقًا » اهـ.

فهيا بنا نوحد صفوفنا لتسلم راية قيادة البشرية، وهذا يتطلب عمل الفريق بداية ونهاية، مع معرفة كل منا بدوره، فقد نحتاج لأن نجدف وسط أمواج عاتية حتى نصل إلى بر الأمان، ونخشى أن يؤول بنا الحال لفُرقة وخلاف كفُرقة الأفغان

بعد انتصارهم على الروس الملاحدة، نسأل الله أن يُوحِّد صفوفهم وأن يجعل بأسهم على عدوه وعدوهم .

(هـ) كثرة الفتن:

أحاديث الفتن كثيرة جداً، فقد حذر النبي ﷺ أمته من الفتن وأمر بالتعوذ منها، وأخبر أن آخر هذه الأمة سيصيبها بلاء وفتن عظيمة وليس هناك عاصم منها إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، ولزوم جماعة المسلمين، وهم أهل السُنَّة وإن قلوا، والإبتعاد عن الفتن والتعوذ منها، فقد قال ﷺ: «**تعوذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**» [رواه مسلم].

وأكثر الفتن التي ظهرت في المسلمين كان منبعها من المشرق، من حيث يطلع قرن الشيطان وهذا مطابق لما أخبر به نبي الرحمة ﷺ، فقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «**ألا إن الفتنة ها هنا، ألا إن الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان**» [رواه الشيخان]، وفي رواية لمسلم أنه قال: «**رأس الكفر من ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان، يعني المشرق**» [رواه مسلم].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا النبي ﷺ: «**اللهم بارك لنا في صاعنا ومدِّنا، وبارك لنا في شامنا ويمننا**»، فقال رجل من القوم: يا نبي الله وفي عراقنا، قال: «**إن بها قرن الشيطان وتهيج الفتن وإن الجفاء بالمشرق**» .

قال ابن حجر- رحمه الله - : «وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق، فكان ذلك سبباً للفُرقة بين المسلمين، وذلك ما يحبه الشيطان ويفرح به، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة .

قال يوسف بن عبد الله الوابل في رسالة أشراط الساعة: «فمن العراق ظهر الخوارج، والشيعة الروافض، والباطنية والقدرية، والجهمية والمعتزلة، وأكثر مقالات الكفر كان منشؤها من المشرق، من جهة الفرس كالزرادشية والمانوية

والمزدكية والهندوسية والبوذية، وأخيرًا وليس آخرًا القاديانية والبهائية، إلى غير ذلك من المذاهب الهدامة، وأيضًا فإن ظهور التتار في القرن السابع الهجري كان من المشرق وقد حدث على أيديهم من الدمار والقتل والشر العظيم ما هو معروف في كتب التاريخ، وإلى اليوم لا يزال المشرق منبعًا للفتن والشرور والبدع والخرافات والإلحاد، فالشيوعية الملحدة مركزها روسيا والصين الشيوعية وهما في المشرق، وسيكون ظهور الدجال ويأجوج ومأجوج من جهة المشرق، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن » اهـ .

فتن كثيرة هي بمثابة النُذُر، وكلها داعية للإعتصام بحبل الله المتين وذكره الحكيم وأن نكون يدًا واحدة حتى يسهل علينا الخلاص من شرها .

(و) أخبار الإفتراق ووجوب لزوم الجماعة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتى وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**» [رواه أبو داود والترمذي وأحمد] .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**» قالوا: ومن هي يا رسول الله ؟، قال: « **ما أنا عليه وأصحابي**» [رواه الترمذي] .

وعن عوف بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصاري على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار**» قيل يا رسول الله: من هم؟، قال: «**الجماعة**» [رواه ابن ماجه] .

والروايات في هذا المعنى كثيرة تقرر افتراق هذه الأمة من بعده على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة أو الفرقة الناجية التي على مثل ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وإن كانت الفرقة كونية قدرية ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، إلا أن الواجب العمل لإنهائها وبتر وحسم دواعيها شرعًا، وقد كثرت النصوص التي تأمر الناس بالإلتزام بالسُنَّة وتُوجب عليهم لزوم الجماعة وتنهاهم عن الشذوذ والفرقة، وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للإختلاف خلقهم وهو رواية عن الحسن وابن عباس ﭫ، وقيل: للرحمة، روى ابن وهب عن طاووس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا، فقال طاووس: اختلفتما وأكثرتما، فقال أحد الرجلين: لذلك خُلقنا، فقال طاووس: كذبت . فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . قيل: للرحمة والإختلاف خلقهم .

قال الحسن - رحمه الله -: «الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، ولا تعارض بين الأقوال، فالبعض تكلم بالأمر الكوني، والبعض تكلم بالأمر الشرعي، والقول الثالث: جمع بين القولين، فأهل طاعة الله المنفذون لأمره الشرعي، هم أهل رحمته سبحانه، وأما أهل الإختلاف المفارقون للحق الذي شرعه فهم لم يخرجوا عن قضائه وقدره وحكمته الكونية، وكما هو مقرر فلا يجوز الإحتجاج بالقدر في المعايب، وإنما يكون الإحتجاج بالقدر في المصائب فقط، إذ المعايب لابد من الإنتهاء عنها شرعًا» .

(ز) كيف الأمر إذا لم تكن الجماعة:

تحت التبويب ساق الإمام البخاري حديث حذيفة ﭬ قال: كان الناس

يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت : يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟، قال : « **نعم** »، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : «**نعم وفيه دَخَن**»، قلت : وما دخنُه ؟ قال : «**قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر**»، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟، قال : «**نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت : يا رسول الله صفهم لنا، قال : «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك؟، قال : «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟، قال : «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**» [رواه البخاري].

ومن عجيب الأمر أن بعض المعاصرين راح يستدل بهذا الحديث على بطلان الدعوات المعاصرة – بما فيها تلك التي تنهج منهج سلفنا الصالح – والتي يتعاون أفرادها على البر والتقوى، وتسعى في نشر الحق في الخلق وإعادة الأمر إلى نصابه، ولعل هذا الفريق رأى ذلك علاجًا لقضية الخلاف، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، ووقع فيما فر منه بل أشد، وإلا فكيف تقام الواجبات وتُسد الثغرات، وتصادم عشرات النصوص بهذه الكيفية، إن الإجتماع على حق محمود في كل عصر ووقت والمذموم هو التفرق والإختلاف والإجماع على باطل، ولا يجوز إنزال نصوص الشريعة كحديث حذيفة ﷺ على غير منازلها وواقعها المساوي لها ، إن الحديث إنما ينطبق على أهل البدع، الدعاة على أبواب جهنم، وهم الذين يتمثلون في واقعنا في المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله كالعلمانيين والقوميين والحزبيين بالإضافة إلى أهل البدع كالخوارج والروافض والطرق الصوفية الضالة ونحوهم .

لا ندري كيف ساغ لهذا الفريق الذي أبطل العمل الجماعي المعاصر مستدلاً بحديث حذيفة ﷺ، أن يعطل تلك الطاعات التي لا يطيق الأفراد القيام بها،

والتي لا يمكن إتمامها بأي صورة إلا بالإجتماع حول قيادة واحدة وعمل واحد، وهل يرضى أن يكون الكل أشبه بالجزيرة المستقلة والكيان القائم بذاته المعتد بنفسه، وتصبح الجهود مبعثرة، وكيف يُبارك في مثل هذه الإنفرادية التي أبت إلا أن تواجه الخطأ بخطأ، بدلاً من علاج آفات العمل الجماعي الموجود أو المحتملة، فكان السعي في هدمه بالكلية، وشأن هؤلاء كمن يقتل المريض لإراحته بزعمه وحتى لا يسمع أنينه المزعج !! .

إن الخلاف شر كله، والتعاون مع أقرب الناس إلى الحق محمود ، ولابد من نصيحة نوجهها للنفس والآخرين، دون تشهير أو بتر للحقائق، حتى يصطلح كل فريق على حقه، وينصرف الكل للعمل لدين الله .

قال الجويني «إمام الحرمين» : «وإذا لم يصادف الناس قوامًا بأمورهم يلوذون به فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن عمَّ الفساد البلاد والعباد».

وقد قال بعض العلماء - رحمه الله -: «لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطَّان كل بلدة، وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهى وذوي العقل والحجا، من يلتزمون امتثال إشاراته وأوامره وينتهون عند مناهيه ومزاجره، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهامات وتبلدو عند إطلال الواقعات».

وقال أيضًا: «فإذا شغر الزمان عن الإمام وخلا عن السلطان ذى خبرة وكفاية ودراية فالأمور موكولة إلى العلماء وحق على الخلائق على اختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم ويصدروا في جميع قضايا الولايات عن رأيهم، فإن فعلوا ذلك فقد هدوا إلى سواء السبيل، وصار علماء البلاد ولاة العباد، فإن عسر جمعهم على واحد، استبد أهل كل صقع وناحية باتباع عالم، وإن كثر العلماء في الناحية، فالمتبع أعلمهم، وإن فُرض استواؤهم ففرضهم نادر لا يكاد يقع، فإن اتفق فإصدار الرأي عن جميعهم مع تناقض المطالب والمذاهب محال، فالوجه أن

يتفقوا على تقديم واحد منهم، فإن تنازعوا، وتمانعوا وأفضى الأمر إلى شجار وخصام، فالوجه عندي في قطع النزاع الإقراع، فمن خرجت له القرعة قُدِّم» ا هـ.

وكلام الإمام الجويني إنما هو في حالة الإستطاعة والقدرة بحيث تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة، والواجبات تسقط بالعذر والعجز، وعدم الإستطاعة، وشرع الله مصلحة كله، وحيثما كانت المصلحة المعتبرة فثم شرع الله، وعلى القول بجواز إقامة الحدود في الحالة التي ذكرها الجويني، فلابد من النظر في عواقب الأمور ومراعاة مقتضى الحال، وعدم الإكتفاء بإقامة الحد مع تخلف الشروط والأسباب والهيئات التي يجب توافرها، وإلا فلا داعي للإقدام، وقد شاهدنا الكثير من المفاسد بسبب التهور والإندفاع في غير موضعه .

شغور الزمان عن الإمام:

ذكر الدكتور صلاح الصاوي في كتابه جماعة المسلمين: أن المقصود بشغور الزمان عن الإمام: انعدام الحكومة الشرعية التي تحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في عصر من العصور،أو في جزء من أرض الإسلام، لا يمتد إليه سلطان الإمام، ويتخذ في الواقع العملي إحدى صورتين:

الأولى - انعدامها حسًا:

كما لو مات الإمام أو عُزل لسبب يقتضيه، ولم يعقد أهل الإختيار البيعة لغيره، وبقيَ الناس من بعده أوزاعًا متفرقين، لا يجمعهم ضابط، ولا يربط شتات رأيهم رابط .

الثانية - انعدامها شرعًا:

كما لو ارتد الإمام عن الإسلام، أو بدل الشرائع وغير الأحكام فسقطت بذلك بيعته، وانحلت عقدة إمامته، وإن بقى في موقعه قابضًا على أزمة الأمور، وذلك لأن الحاكم يستمد شرعيته من أمرين: من بيعة الأمة له، ومن تحكيمه لشريعة الله، وإقامته في الأمة كتاب الله، وإذا كان أهل السُنَّة قد تجاوزوا أمر البيعة

في حالات الضرورة،وأقروا بولاية المتغلب، حقنًا للدماء وجمعًا للكلمة، فقد انعقد إجماعهم على أن من لم يقم في الأمة كتاب الله فلا شرعية لحكمه، ولا انعقاد لبيعته، ولا نفوذ لولايته، لأن تفرق الأمة على الحق أولى من اجتماعها على الباطل.

وقد ذكر أن واقع الأمة يتفاوت في هذه القضية من بلد إلى آخر، وبالتالي يتفاوت الحكم عليها بتفاوت واقعها، وبيَّن أنه حينما كانت السيادة للشريعة في بلد من البلاد فلم تصل الأمة لهذه المرحلة، مهما شاب الحكم من خلل أو تفريط، والإصلاح حينئذ يكون بالنصح والتوجيه، وحينما تستبدل الشريعة بالمناهج الوضعية، تصبح السيادة لتلك المناهج، وتتراجع الشريعة إلى مجرد اعتقاد يعتقده بقية من الصالحين، أو دعوة يحملها فريق من المسلمين يدعون إليها ويُفتنون بسببها في دينهم ودنياهم ويصبحون بها من الفئات المحجوبة في أنظمة هذه المواقع، عندئذ تصبح الولايات المعقودة في ظل المناهج التي تفصل الدين عن الدنيا وتحكم بين الناس بغير ما أنزل الله باطلة وذلك يعني بالضرورة شغور الزمان عن الإمام وخلوه من الحكومة الشرعية التي تناط بها سائر الولايات العامة ويجب أن يدين لها الناس بالطاعة .

ووضح أن الأمر في هذه الحالة ينتقل إلى أهل الحل والعقد، وهم العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وذلك لأن الأمة مخاطبة بإقامة الشرائع والإمام نائب عنها، ولأن للأمة الحق في عزل الإمام، وخلص إلى أنه ينبغي أن تكون الأمة والجماعات الإسلامية في هذا الوضع جماعة واحدة، يرأسها أهل الحل والعقد ويتفقوا فيما بينهم على من يقودهم، وأن الجماعات ينبغي أن تكون مرحلة وسطى للوصول إلى الحل الأمثل .

تعريفات مهمة

السلف :

لغة : مَن تقدم من الآباء وذو القرابة .

واصطلاحًا : هم صحابة رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين من الأئمة الأعلام المشهود لهم بالإمامة والفضل واتباع الكتاب والسُنَّة – كالأئمة الأربعة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث والبخاري ومسلم وأصحاب السُنن وغيرهم – ممن التزم مذهبهم وسار على طريقتهم إلى يوم الدين، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» .

الفرقة الناجية :

قال رسول الله ﷺ : «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة** – يعني الأهواء – **كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**» [رواه أبو داود وصححه الألباني] ، وفي رواية : قالوا : من هي يا رسول الله ؟، قال : «**ما أنا عليه وأصحابي**» [رواه الترمذي] .

فدل هذا على أنه لا ينجو إلا مَن كان على ما كان عليه جماعة الصحابة ﷺ إذ هم المشهود لهم بالإيمان، قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا** ﴾ [البقرة : ١٣٧]، ومخالفتهم ضلال وشقاء : ﴿ **وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٣٧) ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

قال قتادة : «أهل رحمة الله : أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل الفرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم» .

الطائفة المنصورة :

عن معاوية ﵁ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**» [رواه مسلم] .

وهذا ظهور الحجة والبيان، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في مقدمة العقيدة الواسطية : « فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السُنَّة والجماعة . . . » .

وعن جابر ﵁ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» [رواه مسلم] . وهذا ظهور القوة والسنان .

أهل السُنَّة والجماعة :

السُنَّة لغة : الطريقة محمودة أو مذمومة .

واصطلاحًا : ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل، أو تقرير أو صفة، فهي طريقة الرسول ﷺ علمًا وعملاً وخُلُقًا وسلوكًا ومعاملة، وإن كانت في عرف كثير من العلماء عبارة عما سلم من الشبهات في الإعتقادات .

والجماعة لغة: مشتقة لغة من الإجتماع وهو ضد الفرقة .

واصطلاحًا : سلف هذه الأمة من الصحابة ﵃ ومن تبعهم بإحسان ممن اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وسموا أهل السُنَّة : لالتزامهم بالسُنَّة في العقيدة والعمل في الظاهر والباطن، وسموا بالجماعة لكونهم يأمرون بالإجتماع على ما كانت عليه الجماعة الأولى، جماعة الصحابة ﵃ ، وينهون عن الإختلاف .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : « الجماعة هي الإجتماع، وضدها الفُرقة،

وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين»، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»، ولابد من التفريق بين الجماعة العامة «جماعة الإمامة أو الخلافة» والجماعات الخاصة «كجماعة السفر أو الغربة أو الدعوة».

ومعنى الجماعة في الأحاديث التي أوجبت الإلتزام بها وعدم الخروج عليها: جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من أمور الشرع أو جماعة الأئمة المجتهدين أو السواد الأعظم أو الصحابة أو جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، ولا تعارض بين هذه الأقوال، فهذا من جملة خلاف التنوع لا التضاد.

أهل الحديث:

الحديث هو ما أضيف إلى النبي ﷺ قول أو فعل أو تقرير أو صفة، والمقصود بأهل الحديث: الذين يعنون بحديث الرسول ﷺ رواية ودراية، وبالقرآن علمًا وعملاً واعتقادًا، يقدمونها على قول كل أحد ورأيه، فهم أهل السُنَّة والقرآن كمالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن كان يجمع بين الفقه ورواية الحديث رضى الله عنهم أجمعين.

التوحيد وأصول الإيمان:

التوحيد: هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو دعوة جميع الرسل وأول واجب على المكلف، وحق الله على عباده، وأول مسألة في الدعوة إلى الله، إذ من أجل التوحيد خلق الله الخلق، وعليه يكون مصيرهم في الآخرة، والشرك أكبر الكبائر وأول ما ينهى عنه، كما ورد في نصوص الشريعة.

وأصل التوحيد معرفة الله بأسمائه وصفاته، وإفراده بصفات الربوبية ثم ما تستلزمه هذه المعرفة من إفراد الله بالعبادة كلها، وهذا معنى كلمة لا إله إلا الله.

توحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

[الأعراف : ١٨٠]، فمعرفة الله بأسمائه وصفاته ومحبته ودعاؤه بها والتعبد له بمقتضاها أشرف العلوم ، ومن قلل من شأنه أو قال عنه « ترف عقلي » أو انشغال بما غيره أولى منه، فهو ضال مبتدع .

وطريق التلقي في ذلك هو الكتاب والسُنَّة على طريقة السلف فنؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تحريف، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وليس العقل وعلم الكلام والفلسفة مصدراً في معرفة ذلك، ولا يجوز تشبيه الله بخلقه، ولا تعطيل صفة من صفاته سبحانه، قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ [الإخلاص : ٤]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] - والكف عن التأويل في هذا الباب - هو إجماع السلف لا تجوز مخالفته إذ إجماعهم حجة على من بعدهم - وطريقتهم أسلم وأعلم وأحكم - والتأويل « كقولهم استوى بمعنى استولى، واليد بمعنى القدرة، والنزول نزول الأمر » بدعة وليس من عقيدة أهل السُنَّة والجماعة .

الكلام عن الصفات فرع من الكلام في الذات، فكما أن إثبات ذات الرب إثبات وجود، لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف، والسلف يثبتون الصفة دالة على معناها، مع تفويض الكيفية إلى الله تعالى فتفويض السلف، تفويض كيف لا تفويض معنى، ومن نسب إليهم تفويض المعنى وأن آيات الصفات من المتشابه بمعنى أنه لا يعلم معناه بالكلية، وأن ظاهرها غير مراد فقد جمع بين التعطيل والجهل بعقيدة السلف .

توحيد الربوبية :

وهو الإعتقاد الجازم بأن الله هو الخالق الرزاق، الذي يدبر الأمر ويعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويحيى ويميت لا شريك له في ذلك، وبأنه وحده المالك لكل ذرة في هذا الكون بلا ند ولا معين ولا شفيع بغير إذنه، وبأنه وحده السيد الآمر الحاكم الذي لا يشرع للبشر غيره، وقد دلَّت على ذلك أدلة الشرع والعقل .

ومن مظاهر الشرك في الربوبية :

[١] اعتقاد حلول الرب في بعض خلقه أو اتحاده بهم .

[٢] اعتقاد أن هناك في الكون أقطابًا وأبدالاً من الصالحين أو غيرهم، ولهم قدر من التصرف في حياة الناس من نفع وضر وإعطاء ومنع ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)** ﴾ [الأنعام : ١٧] .

[٣] اعتقاد أن أحدًا له حق التشريع والحكم دون الله تعالى، سواء كان فردًا أو جماعة، أو شعبًا أو دولة، قال تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ الشورى : ٢١]، وقال تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٣١] .

والحكم بغير ما أنزل الله من أصول الكفر، وهو ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول - الكفر الأكبر وهو أنواع :

[١] أن يجحد شريعة الله المعلومة من الدين بالضرورة كمن ينكر أحكام الله في الحدود والمعاملات والأموال والدماء وغيرها، ويقول : إن الدين لا دخل له بذلك، وهذا كفر بالإجماع .

[٢] أن يعتقد ثبوت الشرع في ذلك كله لكنه يفضل القوانين الوضعية على الشرع، ويرى أن الشريعة غير مناسبة لهذا الزمان، وهذا كفر بالإجماع، قال تعالى : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ [المائدة : ٥٠] .

[٣] أن يعتقد أن القوانين الوضعية مساوية لحكم الله .

[٤] أن يعتقد أن شريعة الله أفضل لكنها غير واجبة، وأنه مُخير في أن يأخذ بها أو يتركها إلى ما يراه هو عدلاً ومصلحة من غير دليل من الشريعة، إذ من المعلوم بالضرورة وجوب تنفيذ حكم الله .

[٥] مضاهاة القوانين الوضعية بالأحكام الشرعية، وجعل مصادر وموارد لها وإضفاء اسم المشرع على من يضعها، وإلزام الناس بتلك القوانين وتحتيمها عليهم.

[٦] ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل وغيرهم من حكايات تلقوها عن آبائهم وأجدادهم، يعلمون مخالفتها للشرع ويقدمونها في الحكم على شرع الله إعراضًا عنه .

القسم الثاني - الكفر الأصغر :

كفر دون كفر - لا يُخرج عن الملة - وهو الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره عمن تحمله شهوته أو هواه أو الرشوة أو غيرها على الحكم في قضية أو قضايا - ولو كثرت - بغير ما أنزل الله ، مع إقراره واعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق وأنه الأصل الذي يحكم به، وإقراره على نفسه بالخطأ والظلم ... وهذه من أكبر الكبائر - إذ معصية سماها الله كفراً أعظم من غيرها، ولابد من التفريق بين النوع والمعين أو معرفة الفرق بين الحكم العام والفتوى بكفر شخص معين أو ردته إذ ذلك مرده لأهل العلم واجتهادهم في ثبوت شرائط التكفير وانتفاء موانعه .

وليس من هذا الباب خطأ الحاكم المجتهد في شرع الله، بل هذا كما قال النبي ﷺ : «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» [رواه البخاري].

والواجب على كل مسلم أن يدعو خصمه في أي نزاع إلى من يحكم بينهما بشرع الله، من أهل العلم - إن لم يوجد قضاء شرعي - ولا يحل له أبداً أن يطلب التحاكم أبداً إلى المحاكم الوضعية، وإن اضطر للوقوف أمامها لنيل حق أو دفع ظلم عن نفسه أو غيره، لا يمكنه تحصيله بغير ذلك، فلا يطالب إلا بما يعطيه له الشرع وليعلم أن فتوى المفتي وحكم الحاكم وقضاء القاضي لا يجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حراماً .

توحيد الألوهية :

وهو إفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة، وطريقة القرآن إلزام المشركين بتوحيد الألوهية، بكونهم يقرون بانفراد الله بالربوبية، قال تعالى : ﴿ **أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ** ﴾ [النمل : ٦٤] .

ولا إله إلا الله كلمة التوحيد، معناها لا معبود بحق إلا الله، وهي تتضمن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

والطاغوت هو كل ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، ويشمل : الشيطان والساحر، والكاهن والحاكم المبدل لشرع الله .

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣].

ومن مظاهر الشرك في الألوهية :

[١] دعاء غير الله والإستغاثة به وهو غائب وطلب المدد منه قال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦)** ﴾

[الإسراء : ٥٦].

[٢] الاستعاذة بغير الله كالجن وغيرهم ، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)** ﴾ [الجن : ٦].

[٣] الذبح لغير الله، قال تعالى : ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)** ﴾ [الكوثر : ٢] .

[٤] النذر لغير الله : ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ** ﴾

[البقرة : ٢٧٠] .

[٥] التبرك بالأحجار والأشجار معتقداً أنها تنفع وتضر لحديث ذات أنواط

وكذلك لبس الحلقة والخيط والتمائم لدفع البلاء أو رفعه. فإن اعتقد أنها لا تنفع ولا تضر من دون الله، بل هي سبب، فهذا كذب على الشرع وعلى القدر وهي من وسائل الشرك وذرائعه، ومن جملة الشرك الأصغر، أما التمائم من القرآن ففيها خلاف في جوازها بين السلف، وكذلك التبرك بآثار الصالحين- غير الأنبياء - ففيه خلاف في جوازه، والراجح منعه سداً للذريعة ولترك الصحابة له، وهو كالإجماع منهم مع وجود المقتضي وانتفاء الموانع .

[٦] الاستسقاء بالأنواء، للحديث القدسي : «**من قال مُطرنا بفضل نوء كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالكواكب**» [رواه البخاري]، فاعتقاد أن النجوم تنزل المطر وكذا طلب ذلك منها شرك أكبر، أما التلفظ مع سلامة الإعتقاد واعتقاد أنها علامة فالراجح كراهة ذلك تحريمًا .

[٧] إتيان العرافين والكُهان وتصديقهم فيما يدعون من علم الغيب واعتقاد أنهم يعلمون مفاتح الغيب الخمس، شرك أكبر، قال تعالى : ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام : ٥٩]، ولا يحل تعلم الكهانة ولا سؤال الكهان ولو مزاحًا، كما لا يجوز قراءة الفنجان والكف، أو ضرب الرمل والودع للحديث : «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» [رواه أحمد] .

[٨] التحاكم إلى غير شرع الله، لقول النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه : «**ألم يُحلوا لكم الحرام ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم**»، قال : بلى، قال ﷺ : «**فتلك عبادتهم**» .

والمتبع لغيره في التحليل والتحريم على وجهين :

(أ) أن يعلم أنهم بدلوا دين الله فيتبعهم على التبديل، فيعتقد تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، اتباعًا للرؤساء مع علمه أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا .

(ب) أن يكون اعتقاده في تحليل الحلال وتحريم الحرام ثابتًا ولكن يطيع في معصية الله، فهذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب كما ذكر ابن تيمية – رحمه الله – .

[٩] السحر : قال تعالى : ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة:١٠٢] وله حقيقة ويخلق الله عنده ما يشاء، وتعلمه وتعليمه حرام وفي تكفير الساحر تفصيل عند أهل العلم .

[١٠] ومن أعظم أسباب البلاء، الغلو في الصالحين، وبناء المشاهد والمساجد على قبورهم، وإقامة الموالد حولها وشد الرحال إليها، مما حذر منه النبي ﷺ أشد التحذير، فقال : «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» – يحذر ما صنعوا – [متفق عليه]، وقال ﷺ : «**لا تتخذوا قبري عيدًا**» [رواه أبو داود] وقال ﷺ : «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد الكعبة، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» [متفق عليه]. وقد صرف القبوريون العبادات كالذبح والنذر لغير الله بزعم محبة الأولياء والصالحين، ومحاربة هذه البدع من أهم الواجبات على الدعاة إلى الله .

[١١] التوسل في الدعاء، منه المشروع ومنه غير المشروع :

فالتوسل المشروع إلى الله :

(أ) بأسمائه وصفاته .

(ب) وبالعمل الصالح .

(جـ) وبدعاء الصالحين الأحياء .

والتوسل غير المشروع :

(أ) دعاء غير الله، وطلب المدد منه على جهة الشفاعة، وهذا شرك أكبر .

(ب) طلب الدعاء من الأموات والغائبين، وهذا بدعة بالإتفاق .

(جـ) التوسل والسؤال بالحق والجاه والذات – وهذا مختلف فيه – والراجح منعه إذ هو بدعة لم ترد عن الصحابة ﷺ، بل تركوها مع وجود المقتضى وانتفاء الموانع، إلا أن يعتقد المتوسل أن معنى الجاه، تصريف الكون والنفع والضر فيكون شركًا .

(د) والشفاعة الشركية من جنس ما يعتقده المشركون في الأصنام، أنها تشفع عند الله بغير إذنه، كما يشفع الوزراء عند الملوك، وأنها تكون للمشركين فيه باطلة منفية نفاها القرآن وأما الشفاعة الشرعية يوم القيامة، فهي لمن أذن الله له من النبيين والملائكة والصالحين – بعد الإستئذان – وتكون لأهل التوحيد خاصة وحقيقتها أن الله يتفضل على أهل التوحيد بواسطة دعاء من أذن له، ليريهم منزلته وينال بذلك الكرامة عند الله، وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات .

وهكذا، فالشرك ينقسم إلى قسمين أكبر وأصغر:

فالشرك الأكبر : صرف أي عبادة لغير الله .

والشرك الأصغر: كل ذريعة أو سبب يؤدي إلى الشرك الأكبر، ومنه الرياء والحلف بغير الله وما يجرى على الألسنة كقول: « ما شاء الله وشئت، وتوكلت على الله وعليك »، وكذلك التطير وإرادة الإنسان بعمله الدنيا، وحكم الشرك الأصغر حكم الكبائر في كون صاحبه لا يخلد في النار .

الإيمان بالملائكة:

[١] الإيمان بأنهم عباد الله مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

[٢] خلقهم الله من نور وليسوا بنات الله، ولا أولادًا ولا شركاء .

[٣] من صفاتهم أن لهم أجنحة يتفاوتون في عددها : ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ

ورُبَاعَ ﴾ [فاطر : ١]، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، ولا يفترون عن الطاعة، مطهرون من الشهوات، منزهون عن الآثام والخطايا، يتأذون مما يتأذى منه بنو آدم ومن أماكن المعصية، وعندهم المقدرة على التشكل والتلون ولديهم سرعات كبيرة .

[٤] منهم جبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالقطر، وإسرافيل الموكل بالصور، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح وله أعوان، ومنهم الموكل بكتابة الأعمال، ومنهم خزنة الجنة ومقدمهم رضوان، ومنهم خزنة جهنم ورؤساؤهم تسعة عشر ومقدمهم مالك، ومنهم حملة العرش وغيرهم ممن لا يحصيهم إلا الله .

[٥] ويجب على المؤمن أن يحب جميع ملائكة الله، ومَن عادى أحداً منهم فهو كافر: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)** ﴾ البقرة: ٩٨]، وعليه أن يتشبه بالملائكة في المداومة على الطاعة وتسوية الصفوف في الصلاة ويبعد عن إيذائهم بالمعاصي والذنوب.

الإيمان بالكتب :

[١] الإيمان بأنها مُنزلة من عند الله، وأنها كلام الله لا كلام غيره، تكلم الله بها حقيقة.

[٢] الإعتقاد بأن كل ما فيها من الشرائع كان واجباً على الأمم الذين نزلت إليهم.

[٣] الإعتقاد بأنها كلها يصدق بعضها بعضًا، وذلك لا ينافي نسخ بعضها بعض ﴿ **وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٥٠] ، وكما نسخ القرآن ما خالفه من الشرائع السابقة، وكذلك نسخ بعض آيات القرآن ببعضها حق،كما قال تعالى : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

[٤] يجب الإيمان بما يسمي الله في كتابه منها : القرآن والتوراة والإنجيل، والزبور وصحف إبراهيم وموسى .

[٥] القرآن مهيمن على ما قبله، أي شاهد مصدق لما فيها من الحق، مبين لما زاده أهل الملل السابقة عليها مما ليس منها ولما نقصوه وبدلوه وحرفوه .

[٦] وما بأيدي أهل الكتاب اليوم من كتب هي مما وقع فيه التحريف بنص القرآن، تحريف كتاب: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩]. وتحريف لسان: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وتحريف معاني: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ٤١] .

[٧] والقرآن كلام الله حقيقة، حروفه ومعانيه غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود قبل يوم القيامة، ولا يسع أحداً الخروج عن شريعته إلى يوم الدين .

الإيمان بالرسل والأنبياء :

الرسول من أوحى الله إليه وأمره بتبليغ رسالة، والنبي من أوحى الله إليه ولم يؤمر بتبليغ رسالة، والرسل جميعهم دينهم واحد، وهو الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ودعوتهم واحدة هي التوحيد، صادقون مصدقون، بارون راشدون هداة مهتدون، بلغو كل ما أمروا به، الكفر بواحد منهم كفر بجميعهم، وكفر بالذي أرسلهم .

وأفضلهم أولو العزم، محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح - صلى الله عليهم وسلم أجمعين - وأفضلهم محمد ﷺ، والتفضيل بينهم لله لا للناس، ولا يكون بانتقاص المفضول، ومعنى عدم التفريق بين أحد منهم، الإيمان بهم جميعًا، وإن كان بعضهم أفضل من بعض .

والرسل رجال وبشر من البشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعل الله لمن شاء منهم أزواجًا وذرية، فلا يُعبدون ولا يُغالى فيهم، وقد خصهم الله بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة والطهر وعصمهم من المعاصي، وإجماع أهل السُنَّة على العصمة من الكبائر .

والصحيح أن العصمة من الصغائر أيضًا، لا من النسيان والسهو والخطأ وسائر

عوارض البشرية لكن لا يُقرون عليه بل يُنهون، لذا فهم قدوة للعباد ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

ويجب الإيمان بالخمسة والعشرين نبيًا المذكورين بأسمائهم في القرآن والإيمان بأن هناك رُسلاً آخرين لم يقصهم الله على نبيه في القرآن .

واتباع محمد ﷺ فرض على كل مكلف من الإنس والجن إلى يوم القيامة، إذا بلغته رسالته، لا يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلاً إلا بالإيمان به ، قال تعالى :﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف : ١٥٨]، وقال النبي ﷺ : «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار**» [رواه مسلم] .

وكل مَن ادعى النبوة بعد النبي ﷺ فهو كافر لا يجوز تصديقه، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ الأحزاب : ٤٠]، وقال النبي ﷺ : «**لا نبي بعدي**» [متفق عليه] .

فطوائف البابية والبهائية والقاديانية وما شابهها كلها خارجة من ملة الإسلام تجرى عليها أحكام المرتدين، والمسلمون هم أتباع كل الأنبياء إذ دين الأنبياء واحد هو الإسلام، وإنما تعددت الشرائع، وشريعة الإسلام مهيمنة على سائر الشرائع، ومن اعتقد أنه يسوغ لأحد أن يكون مع النبي ﷺ كالخضر مع موسى لا يلتزم بشريعته لأن له شريعة أخرى فهو كافر بالإجماع فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**لو كان موسى ابن عمران حيًا لما وسعه إلا أن يتبعني**» .

وكل نبي أفضل من جميع الأولياء بالإجماع، والصحابة ﷺ هم سادات الأولياء بعد الأنبياء، وكل مؤمن تقي ولي من أولياء الله، وبحسب إيمانه وتقواه بحسب ولايته له تعالى، والنبوة لا تُنال بالكسب والإجتهاد، بل هي فضل ومنّة من الله : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

إذا رأيت الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تصدقه حتى تعرض

عمله على السُنَّة، فهذا هو الفارق بين الكرامة الرحمانية والخارقة الشيطانية، إذ الإستقامة هي أعظم الكرامة .

الايمان باليوم الآخر:

ويشمل الإيمان بالموت وسؤال القبر وحياته وعلامات الساعة، والبعث والنشور والحساب والميزان، والصراط والجنة والنار .

[١] الموت حق على جميع المخلوقات ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] والمقصود الأعظم هو الإستعداد له قبل نزوله بالإيمان والعمل الصالح.

[٢] يجب الإيمان بسؤال الملكين لكل ميت عن ربه ودينه ونبيه، وأن العبد إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، يحصل لروحه وبدنه، ومن كذب بهذا فهو ضال مبتدع .

[٣] ويجب الإيمان بأشراط الساعة الصغرى والكبرى، فمن الصغرى: رفع العلم وظهور الجهل، وضياع الأمانة وكثرة النساء وكثرة القتل وغيرها مما ثبت في النصوص، ومن الكبرى : ظهور المهدي، وظهور المسيح الدجال، ونزول عيسى بن مريم يحكم بشريعة الإسلام، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية « أي لا يقبلها » ويقتل الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج والخسف والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

[٤] ولا يعلم وقت الساعة إلا الله، فلا إطلاع لملك مُقرب ولا لنبي مرسل على ذلك، ويجب الإيمان بالنفخ في الصور، وقيام الأجساد بعد عودة الأرواح إليها والحساب والميزان والصراط، وكتب الأعمال التي تؤخذ باليمين أو بالشمال من خلف الظهر والشفاعة والحوض، مما استفاضت به الأحاديث .

والإيمان بالجنة والنار – وهما موجودتان الآن – لا تفنيان أبداً ولا يفنى من فيهما ونعيم الجنة حسي ومعنوي، وأعظم نعيم أهل الجنة النظر إلى وجه الله

بأبصارهم وعذاب النار حسي ومعنوي، والنار لا يبقي فيها أحداً من أهل التوحيد ممن قال: «**لا إله إلا الله**» بل لابد أن يخرجوا منها بشفاعة الشافعين وبرحمة رب العالمين.

الإيمان بالقدر:

ونؤمن بالقدر خيره وشره، وإنه نظام التوحيد، فمن كذَّب بالقدر فقد نقض تكذيبه توحيده كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**والقدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل**»، والتسليم بالقدر إنما يكون في المصائب لا في المعايب إذ لابد من الإنتهاء عنها شرعًا، كما لابد من بذل الوسع في تعاطي ما أمر الله به من الأسباب.

ومراتب القضاء والقدر أربع مراتب هي: علم الرب سبحانه بالأشياء وكتابته لها قبل كونها ومشيئته وخلقه لها:

[١] نؤمن بأن الله تعالى عليم بالخلق وهم عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

[٢] ثم الإيمان بكتابة الله سبحانه المقادير، ويدخل فيه خمسة تقادير: «التقدير الأزلي – كتابة الميثاق وتقدير شقاوة العباد وسعادتهم – التقدير العمري – التقدير الحولي في ليلة القدر – التقدير اليومي»، وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا فيؤمر بأربع كلمات: فيقال له: «**اكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد**»، ونحو ذلك فهذا التقدير كما يقول ابن تيمية – رحمه الله –: كان ينكره غلاة القدرية قديمًا ومنكروه اليوم قليل.

[٣] الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم

يكن، وأنه : ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شئ قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد .

[٤] والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم. وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وإرادتهم كما قال تعالى : ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)** ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

وهذه الدرجة - كما يقول ابن تيمية - رحمه الله - : « يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها » .

الولاء والبراء :

أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله .

ومقتضى الإيمان : الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين .

ومقتضى الكفر بالطاغوت : البراء من الشرك وأهله، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [المائدة : ٥٥]، وقال تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

من معاني الولاء :

الحب والرضا والنصرة والطاعة، والمتابعة والمعاونة والقيام بالأمر، ولوازم هذه الأمور : كالتشبه والركون وإظهار المودة وتولية الولايات .

وهذه المعاني يجب صرفها لله ورسوله ﷺ والمؤمنين، فيحب الله ورسوله والمؤمنين ويرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وينصر دين الله بكل ممكن ومستطاع، وينصر كل مؤمن ظالمًا أو مظلومًا، «بأن يمنع الظالم من ظلمه، والمظلوم ممن ظلمه»، ويطيع الله ويطيع رسوله ﷺ، وأولي الأمر من العلماء والأمراء، الذين يقودون الناس بكتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ، ويتابع طريق المؤمنين، ويتشبه بالنبي ﷺ وصحابته الكرام، كما يهتم بأمر المسلمين وينصح لهم ويتعاون معهم على البر والتقوى، ويتخذ منهم الأخلاء والأصدقاء دون غيرهم .

ومن أحب الكافرين «المقطوع بكفرهم كفرعون وأبي جهل»، ووادهم على كفرهم ورضي بكفرهم وأطاعهم فيه واتبعهم على مبادئهم المخالفة لدين الإسلام فهو كافر مثلهم، كمن ينادي بالمساواة بين الأديان، ويقول : إن أهل الإيمان منهم اليهود والنصارى المكذبين برسول الله ﷺ .

ولا يجوز للمسلم أن يصادق الكفار ولا أن يتشبه بهم فيما هو من خصائصهم، كما لا يجوز له مشاركتهم في أعيادهم ولا تهنئتهم بها، أو بمظاهر الشرك التي يفعلونها ولا يصح التسمي بأسمائهم ولا الدعاء لهم بالمغفرة إذا ماتوا على الكفر، ولا التأريخ بتاريخهم، ويتحرز من السفر لبلادهم إلا لحاجة أو ضرورة مع الحرص على إظهار شعائر الدين .

وليس من موالاة الكفار هديتهم وعيادتهم في مرضهم والعدل معهم والتزويج من الكتابية وأكل ذبائح أهل الكتاب والبيع والشراء والإجارة والشركة وقبول الهبة منهم ورحمتهم بالرحمة العامة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، والإستعانة بهم في مصالح المسلمين دون أن يكون لهم سلطان على المسلمين،

وكذا إجابتهم لحق ولتعظيم حرمات الله، ولنعلم أن المسلم أولى بكل خير والكافر أولى بكل شر .

والله قد أذهب عنا عصبية الجاهلية وتفاخرها بالأحساب، فالناس مؤمن تقي، وفاجر شقي، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ويجب الحذر من دعوات القومية والوطنية والقبلية فهي دعوات جاهلية لا يقبلها المسلم ولا يقف تحت راياتها، ولا ينصر عليها ولا يغضب لها ولا يميز بين الناس استناداً عليها .

كما لا يجوز الإنضمام إلى الهيئات والنحل التي تقوم على مبادئ تخالف دين الإسلام كالماسونية والعلمانية ونحوها، قال تعالى: ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿٢١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

مسائل الإيمان والكفر:

[١] الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، «أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الصلاة إيمانًا» وقال سبحانه: ﴿ **لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ [الفتح: ٤]. وقال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، فالإيمان قول باللسان، وإقرار بالجنان «القلب» وعمل بالأركان .

[٢] من مات على التوحيد دخل الجنة يومًا من الدهر، يصيبه قبل هذا اليوم ما يصيبه لأحاديث الشفاعة وفضل الشهادة .

[٣] من مات على الشرك بعد بلوغ الرسالة فهو مخلد في النار أبدًا، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء: ٤٨]، وأما من لم تبلغهم الرسالة فهم من أهل الإمتحان في عرصات القيامة، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .

[٤] المسلم الذي يرتكب الكبائر ويصر عليها « أي لا يتوب منها » لا يُكفَّر بفعلها ولا يُخلد في النار لو دخلها في الآخرة - ما لم يستحلها لقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وهذه الآية في غير التائب لأن التائب من الشرك مغفور له، فالآية إذن فيمن مات على الشرك، ولكن ينقص إيمان المرء بمعصيته وفسقه لقول النبي ﷺ : «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» [رواه مسلم] .

[٥] من رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة بغير دخول النار، إلا تحلة القسم، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أصحاب الأعراف، ومآلهم إلى الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق دخول النار .

[٦] ومن استحق دخول النار من عصاة الموحدين فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فالناس يدورون بين فضل وعدل في الدنيا والآخرة، ومن هذا الصنف من يدخل النار بلا شك، ولكن المسلم لا يدخل النار دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار، ولا يُخلد فيها خلود الكفار .

[٧] لا يختلف أهل السُنَّة في أن تارك النطق بالشهادتين مع القدرة عليها كافر مُخلد في النار، حتى لو اعتقد صحتها بقلبه دون نطق لقوله ﷺ : «**يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله**» .

[٨] والخلاف فيمن ترك الأركان الأربعة تكاسلاً لا جحوداً « وهي الصلاة والصوم والزكاة والحج » من مسائل الإجتهاد عند أهل السُنَّة لا يُبدع المخالف فيها ولا يُفسق وليست كمسألة مرتكب الكبيرة، فمن كفَّر مرتكب الكبيرة كالزنا والسرقة أو حكم بخلوده في النار « كالخوارج والمعتزلة » فهو مبتدع، وأما من كفَّر تارك الصلاة (وهي أشهرها) فهو مجتهد مأجور على أي حال، وكذا من لم يُكفره كفراً ينقل عن الملة فهو مجتهد، وهذه المسألة مما يسوغ فيها الخلاف عند أهل السُنَّة وإن كان جمهور فقهائهم يقولون عنه كفر دون كفر، أما تركه جحوداً فكفره معلوم من الدين بالضرورة .

[٩] ومثله الخلاف في تكفير بعض طوائف أهل البدع مما ليس فيه إجماع عند أهل السُنَّة، بل هو من مسائل الإجتهاد، كالخوارج ومتأخري القدرية والمعتزلة والروافض، والجمهور على عدم تكفيرهم .

[١٠] لا يُكفَّر مسلم معين ثبت له حكم الإسلام إلا بعد بلوغ الحجة التي يكفر المخالف لها، نقل الإجماع عليه ابن حزم، وأقره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السُنَّة، سواء كان خلافه في الأصول أو الفروع وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مطاع بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير ويحيى من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك أيضًا عن بينة .

[١١] يثبت حكم الإسلام بالنطق بالشهادتين بالنص والإجماع، نقله ابن رجب وغيره، وكذا بالولادة لأبوين مسلمين لحديث : «**كل مولود يولد على الفطرة**» [متفق عليه]، والولد يتبع المسلم من والديه، ومَن توقف في الحكم بالإسلام لمن نطق بالشهادتين أو وُلد مسلمًا ولم يعلم عنه شرك ولا ردة، فهو مبتدع لمخالفته إجماع السلف الصالح على ذلك ، ولا يستثنى من ذلك إلا من يقولها حال كفره، فلابد من نطقها مع البراءة من الكفر .

[١٢] استمرار عصمة الدم والمال لمن دخل في الإسلام متوقف على التزامه بالصلاة والزكاة وسائر حق الإسلام كما في الحديث : «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..**» [رواه مسلم] .

[١٣] يجب الحذر في الجملة من تكفير مَن قد عُلم إسلامه بيقين لقول النبي ﷺ : «**من قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما**» [متفق عليه]، وقال : «**ولعْن المؤمن كقتله**» [متفق عليه] .

فثبوت عقد الإسلام بيقين لا يزحزح بشك، وإذا كانت الحدود تُدرأ بالشبهات فأولى ثم أولى أمر التكفير، ولأن يخطئ الحاكم في العفو خير من أن يخطئ في

القصاص، وكان الإمام مالك -رحمه الله- يقول: «لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهًا واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان، تحسينًا للظن بالمسلم»، وكان الإمام أحمد - رحمه الله - يقول لعلماء وقضاة الجهمية: «أنا لو قلت قولكم لكفرت، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جُهال»، وإذا كان الناس اليوم قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تُقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا يتأكد معه أن يحيى من حيٍّ عن بينة، وأن يهلك من هلك عن بينة، فعلينا بدعوتهم والرفق بهم وتعليمهم ما جهلوه من دين الله لا المسارعة في تكفيرهم.

الصحابة رضي الله عنهم والخلافة والإمامة:

قال تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [متفق عليه]، وقال: «**لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه**» [متفق عليه].

[١] فالواجب على كل مسلم حب الصحابة رضي الله عنهم وتوليهم ومعرفة فضلهم - خصوصًا أفضلهم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ، ثم باقي العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾ [الفتح: ١٠]، وكذلك أزواجه ﷺ، والإيمان بأنهن في الجنة، وحب أهل بيته كما أوصانا النبي ﷺ.

[٢] والخلفاء بعد الرسول ﷺ، أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان ثم عليّ رضى الله عنهم أجمعين، لإجماع الصحابة على ذلك وإجماعهم حجة ملزمة، ومن طعن في خلافة واحد منهم فهو أضل من حمار أهله.

[٣] ومَن قدّم عليًّا على أبي بكر وعمر في الفضل أو الخلافة فهو ضال مبتدع كما ثبت عن عليّ رضي الله عنه لما سئل: أي هذه الأمة أفضل بعد نبيها ﷺ، قال: «**أبو بكر ثم عمر**» [رواه البخاري].

[٤] ومَن قدم عليًّا على عثمان في الفضل لا في الخلافة فهو مخطئ، لكن لا يُفسق ولا يُبدَّع، وهي مسألة يُعذر فيها المخالف، وكان من أهل السُنَّة من يقولها قديمًا: «كنا نفضل بين أصحاب رسول الله ﷺ فنقدم أبا بكر ثم عمر، ثم انعقد الإجماع على تقديم عثمان في الفضل والخلافة معًا لحديث ابن عمر ثم عثمان» [رواه البخاري] .

[٥] يجب الإمساك عما شجر بين الصحابة ﷺ بعد قتل عثمان ﷺ من خلاف وقتال، فقد زيد فيه ونُقص منه وغُير عن وجهه، وكثير مما يروى كذب وزور عليهم، وأكثر أهل السُنَّة على أن عليًّا اجتهد وأصاب والمخطئ من خالفه، وكلاهما وكل مجتهد مأجور مرفوع عنه الإثم معذور في خطئه لقول النبي ﷺ : **«الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»** [متفق عليه]، وقوله عن الخوارج: **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»**، وقد قاتلهم عليّ ﷺ. وسب الصحابة من عظائم الذنوب، سواء عليًّا ومن معه أو طلحة أو الزبير أو معاوية ومن معهم رضى الله عنهم أجمعين، بل هم جميعًا مما قال الله فيهم : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧] .

[٦] ولا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ، لا لصاحب ولا إمام ولا ولي بل الجميع يجوز عليه الكبائر والصغائر، لكن للصحابة مزية على من بعدهم للسبق للإسلام والصحبة والهجرة والجهاد في سبيل الله .

[٧] وأولياء الله هم المؤمنون المتقون في كل زمان ومكان من أهل السُنَّة والجماعة لهم الكرامات والفضائل في الدنيا والآخرة ما يوجب حبهم وتوليهم، ولكن يحب الحذر من الغلو فيهم أو عبادتهم من دون الله .

[٨] ومن اعتقد في أحد منهم أو من غيرهم الألوهية «كالنصيرية العلويين في عليّ، والدروز في الحاكم بأمر الله، والباطنية في إمامهم» أو النبوة

«كطوائف من الروافض» أو اعتقد تحريف القرآن أو خطأ الوحي، فهو كافر بلا خلاف عند أهل السنَّة، ولا يختلف أهل السُّنَّة في عدم تكفير الشيعة المفضلة «الزيدية».

[٩] وإقامة الخلافة التي بها تجتمع كلمة المسلمين فرض وواجب على المسلمين عودتها على منهاج النبوة مما بشر به النبي ﷺ، والسعي إلى ذلك واجب بكل الطرق الشرعية وأهمها الدعوة إلى الله تعالى.

الإتباع:

[١] فرض على الناس جميعًا التأدب مع النبي ﷺ وطاعته واتباع سُننه ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [البقرة: ١٥١]، فالكتاب القرآن، والحكمة سُنَّة رسول الله ﷺ.

[٢] ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ تجريد متابعته وتحكيمه في كل موارد النزاع في أصول الدين وفروعه، وفي العقائد والأحكام ومنازل القلوب، الرضا بحكمه، والإنقياد له، والتسليم لسُنَّته، والإعراض عمن خالفه، وتقديم قوله وهديه وأمره ونهيه على قول كل أحد كائنًا من كان.

[٣] التوحيد توحيدان: توحيل المُرسِل وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، وكل الطُرق مسدودة إلا طريق رسول الله ﷺ، وكل مَن أراد تربية نفسه وتزكيتها فعليه بالمتابعة الصادقة لرسول الله ﷺ علمًا وعملاً واعتقاداً.

الاجتهاد والتقليد:

[١] الإتباع أن يتبع الإنسان ما أنزل الله على رسوله ﷺ، أي يأخذ بالحجة التي يأخذ بها العلماء، ومن استبانت له السُّنَّة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس.

[٢] والتمذهب بمذهب إمام معين من الأمور الجائز للعاجز عن الإجتهاد لعذر،

وليس بلازم، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، أما التعصب المذهبي، وهو أن يرد كل ما خالف إمامه ولا يقبل منه شيئًا، حتى ولو استبانت له الحجة فهو مذموم ومنه البدع، وقد نهى الأئمة عن هذا التعصب وعن هذا الجمود .

[٣] احترام الأئمة المجتهدين المقبولين عند الأمة « كالأئمة الأربعة والثوري وابن عيينة وابن المبارك » ومحبتهم وموالاتهم واجب على كل مسلم إذ هم ورثة النبي ﷺ، وليس أحد منهم يتعمد مخالفة الرسول ﷺ خصوصًا الأئمة الأربعة « أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة » ولكن الكل يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ .

[٤] الإنتقال بين المذاهب بمجرد التشهي بغير دليل، والانتقاء من المذاهب ما يُناسب الهوى بدعة ضلالة ومنكر يخالف الإجماع، ومن تتبع رخص المذاهب تجمع فيه الشر كله، فكيف بمن تتبع زلات العلماء وصنع منها دينًا !!.

[٥] الواجب على العالم الجامع لأدوات الإجتهاد أن يجتهد ويتتبع ما وصله من الأدلة، يدل الناس عليها، ولا يحل له التقليد إلا عند العجز، والواجب على الجاهل الذي لا قدرة له على النظر في الأدلة ولا فهمها ولا الترجيح بينها، أن يسأل العلماء ويتبعهم على ما يُفتونه، ومن كان عنده علم واطلاع وتمييز بين الأقوال والمذاهب فليس هو كالجاهل العامي المقلد بل عليه أن يتبع ما اطلع على دليله الشرعي من أقوال العلماء وله إذا جمع الأدلة في مسألة أو أكثر أن يرجح بين الأقوال، ومَن علم مسألة فهو بها عالم، ومسائل الإجتهاد تتجزأ، ولا يحل القول في دين الله بغير علم، ومَن سئل عن دليل المسألة التي يتكلم بها بينه، ولا حرج في سؤال عالم في مسائل الصلاة وآخر في مسائل الزكاة، ويستفتي العلماء من أي مذهب ويجتهد في اختيار الأعلم والأورع .

[٦] الآراء العارية عن الدليل متساوية ويجوز العمل بأي واحد منها، إذا اطمأن إليه قلب المكلف، والتعصب لواحد منها ضلال .

[٧] لا يصح القول بإغلاق باب الإجتهاد، فما أكثر الحوادث المستجدة التي تتطلب ممن هو أهل للإجتهاد والإستنباط أن يطبق الأحكام الشرعية على الواقع المساوي لها، وأن يحكم على الجديد من أمور الحياة وشؤونها وضروراتها .

[٨] الإجتهاد هو بذل العالم وسعه في استنباط الحكم، فإن حكم بنص فقد حكم بحكم الله، وإن حكم بما يفهم ويرى فيجب أن يغلب على ظنه أن الله لو أنزل نصًا لهذا الحكم لكان موافقًا لما أفتى به .

[٩] وطاعة ولي الأمر المسلم فيما يجتهد فيه لمصالح المسلمين والنصح له واجب، ولا يجوز مخالفته إلا إذا أمر أمرًا صريحًا بمعصية الله عز وجل ويجوز الإفتاء بغير ما يراه إذا كان مع المفتي دليل، وطاعته في الأمور العامة، إذا كان مجتهداً متأولاً مشروعة، أما في الأمور الخاصة والتي لا يتأتى من ورائها تفريق للمسلمين فلا تجوز، إذا كانت الحجة بخلاف أمره، ولا يجوز للكافر أن يتولى إمرة المسلم .

[١٠] التحاكم إلى الله ورسله يقطع الخلاف، فإن لم تتضح الحجة عذر كل أخاه، ووكل سريرته إلى الله عز وجل، وأحسن الظن بأخيه وأساء الظن بنفسه .

أهل السُنَّة وأهل القبلة :

هناك فارق بين أهل السُنَّة وأهل القبلة، فليس كل من انتسب للقبلة يكون من أهل السُنَّة، بل قد يكون من أهل البدع والأهواء كحالة الخوارج الذين لم يكفرهم عليّ رضي الله عنه ولا جمهور الصحابة رضي الله عنهم .

جاء في شرح الطحاوية (٢٨٦) : « ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين له بكل ما قال وأخبر مصدقين، قال رسول الله ﷺ : «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا**» [أخرجه البخاري وغيره] .

ويشير الشيخ – رحمه الله – بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله، والمراد بقوله: «**أهل قبلتنا**» من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصي، ما لم يُكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ»، إلى أن قال: «ولا نُكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله» اهـ.

فرد بذلك على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب كما رد على المرجئة فإنهم يقولون: «لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة»، فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف وكلاهما على ضلالة خالفوا بها ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ.

فهذا هو مقياسنا وميزاننا، ولا يثبت الحق بمجرد الإدعاء، ولذلك لزم على الأفراد والدول والجماعات أن تعرض نفسها على أصول وقواعد أهل السُنَّة والجماعة، فقد كانوا يثبتون كل ما وافق الكتاب والسُنَّة وما خالفهما أبطلوه، ولا معصوم عندهم إلا رسول الله ﷺ، وإجماع السلف الصالح عندهم حجة شرعية مُلزمة لمن بعدهم، وهم لا يقرون قولاً ولا يقبلون اجتهاداً إلا بعد عرضه على الكتاب والسُنَّة والإجماع، ولا يعارضون القرآن والسُنَّة بعقل أو رأي أو قياس، ولا يوجبون على العاجز في معرفة العلم ما يجب على القادر.

والجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة، فأهل السُنَّة هم أهل الجماعة وأهل التوسط والإعتدال وهم أيضًا أهل الجُمل الثابتة بالقرآن والسُنَّة والإجماع، فهم أهل الشريعة، وهم الإمتداد التاريخي لأهل ملة الإسلام، جمعوا الدين علمًا وعملاً وظاهراً وباطنًا، ولا يأخذون إلا ما كان ثابتًا عن الرسول ﷺ والسلف الصالح، وكانوا يحرصون على معرفة السُنن والنزول على حكمها، وقد اختلفت اجتهاداتهم تبعًا لتفاوت علمهم بالسُنَّة، ولكن ضبطوا أنفسهم لحرصهم على الوحدة والائتلاف، والحق في النهاية لا يخرج عنهم.

وأهل السُنَّة هم الطائفة الظاهرة المنصورة، وهم خير الناس للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة في المعروف، ولاؤهم للحق وحده، يوالي بعضهم بعضًا ولاءً عامًا ويعذر بعضهم بعضًا، فالولاء والعداء عندهم على أساس الدين ولا يمتحنون الناس بما ليس من عند الله، ويغزون مع أمرائهم أبرارًا كانوا أم فجارًا من أجل إقامة شرائع الإسلام، فتخلَّق بهذه السمات وهذه الخصائص، واحرص على أن تكون في واقعك وواقع الناس حتى تتحقق الوحدة أتم تحقيق ونسلم في دنيانا وآخرتنا من سخط ربنا .

الصفات العامة للمفارقين للسُنَّة والجماعة:

المفارقون للسُنَّة يدفعهم إلى ذلك أمران رئيسيان :

الأول : هو الجهل بالحق فيحكمون بالظن بلا علم .

الثاني : الهوى فيحكمون بالظلم بلا عدل .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – في كتاب الفتاوى الكبرى (جـ٣ ص٣٥٠) : « فكان مبدأ البدع هو الطعن في السُنَّة بالظن والهوى كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه »، وقد دفعهم الجهل والهوى إلى كثرة الآراء وتضاربها واختلافها من جهة وإلى التفرق والشقاق والمعاداة من جهة أخرى « إن كل أحد يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ »، لا سيما المتأخرون من الأمة الذين لم يُحكموا معرفة الكتاب والسُنَّة،والفقه فيهما، ويميزوا بين صحيح الأحاديث وسقيمها، وناتج المقاييس وعقيمها، مع ما ينضم إلى ذلك من غلبة الأهواء وكثرة الآراء وتغلظ الإختلاف ، والإفتراء وحصول العداوة والشقاق » (جـ٣، ص ٣٧٨) .

والمفارقون للسُنَّة قد يدفعهم إلى ذلك أيضًا الغلو الذي ذمه الله ورسوله ﷺ، ومن سماتهم الجهل بالحق ومنهم قوم منافقون، وعندهم تعصب مع البغي على المخالف لهم .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – : « فمن جعل شخصًا من الأشخاص غير١٥٧

رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السُنَّة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة - كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك - كان من أهل البدع والضلال والتفرق » (جـ٣، ص٣٤٧)، وقال : « ومن والى موافقه وعادى مخالفه، وفرق بين جماعة المسلمين، وكفَّر وفسَّق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والإجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرق والإختلاف » (جـ٣، ص ٣٤٩) .

وهؤلاء المفارقون ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : « وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلامًا يوالي عليه ويعادي، غير كلام الله ورسوله ﷺ، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة ويوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون » (جـ٢٠، ص ١٦٣ - ١٦٤) .

والمفارقون للسُنَّة منهم المغالون الباغون المعتدون ومنهم المفرطون الجاهلون، ومن سماتهم تكفير وتفسيق مخالفهم في الإجتهاد والتأويل، ثم يرتبون على ذلك أحكامًا ابتدعوها في حق المخالف من استحلال الدماء والأموال وغير ذلك، ويقرنون بين الخطأ والإثم وهذا من ضلالهم، فإن أهل العلم والإجتهاد إذا اجتهدوا، فأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفور لهم .

وهكذا فهؤلاء المفارقون يخرجون عن السُنَّة والجماعة، ويبادرون أهل السُنَّة بالبغي والظلم والعدوان .

تكريم الإنسان

الإنسان يشرف بطاعته لله ويتقدم باستقامته على منهجه سبحانه، فإذا كفر بربه كان أهون على الله من الجعلان، وكان حاتم الأصم يقول: رأيت الناس يعودون إلى التجارات والحِرف والصنائع والأنساب ونظرت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] قال: فعملت بالتقوى حتى أكون كريمًا عنده، والملائكة هم الذين يقومون على خدمة المؤمنين في الجنة، فالمؤمن أفضل من الملائكة باعتبار المآل، أما الملائكة فهم أفضل باعتبار الحال؛ لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

جاء في كتاب نضرة النعيم بشيء من التصرف والإختصار:

الكريم من أسماء المولى عزوجل وصفاته:

قال الغزالي: الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفّى،وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يُبالي كم أعطى، ولا من أعطى، وإن رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفي عاتب وما استقصى، ولا يضيعُ من لاذَ به والتجأ، ويُغنيه عن الوسائل والشُّفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلُّف فهو الكريم المطلق وذلك هو الله تعالى فقط.

تكريم الإنسان اصطلاحًا:

قال القرطبيُّ ما خُلاصته: تكريم الإنسان هو ما جعله الله له من الشرف والفضل وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال.

وقال الطبري: تكريم الإنسان (بني آدم) هو تسليط الله عز وجل إيّاهم على غيرهم من الخلق، وتسخيره سائر الخلق لهم.

وقال ابن كثير: تكريم الله للإنسان يتجلّى في خلقه له على أحسن الهيئات

وأكملها وفي أن جعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا. يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصّها ومضارّها في الأمور الدينية والدُّنيوية.

وقال أبو حيان: تكريمُ بني آدم: جعلُهم ذوي كرم بمعنى الشرف والمحاسن الجمَّة، كما تقول: ثوبٌ كريم وفرسٌ كريم أي جامع للمحاسن وليس من كرم المال (في شيء).

وقال - رحمه الله -: وما جاء عن أهل التفسير من تكريمهم وتفضيلهم بأشياء ذكروها هو على سبيل التمثيل لا الحصر في ذلك.

أنواع التكريم:

للتكريم أنواع عديدة يمكن تلخيصها في أمور ثلاثة هي: تكريم الله للإنسان، وتكريم الإنسان لنفسه، وتكريم الإنسان لأخيه الإنسان.

أولاً - تكريم الله للإنسان:

لتكريم الله للإنسان صور عديدة لا يمكن إحصاؤها نذكر منها ما يلي:

[١] اختصّ الله الإنسان بأن خلَقَه بيديه ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)** ﴾ [ص: ٧١ - ٧٤]، ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)** ﴾ [السجدة: ٩]، وهذا يدلُّ على عُلُو مكانة الروح التي حلّت في الإنسان وأن لها منزلة سامية، وكرّمه بذلك الإستقبال الفخم الذي تسجُدُ فيه الملائكة ويُعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان، بقوله عزّ من قائل: ﴿ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)** ﴾ [الأعراف: ١١].

[٢] الصورة الحسنة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ [التغابن: ٣]، والقامةُ المعتدلة كما قال عز وجلّ: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)** ﴾ [التين: ٤]، والأكل باليدين والعمل بهما، وذلك لا يستطيعه غالب

الحيوان، وتكريم الله للإنسان بهدايته هداية عامةً بما جعل فيه بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم.. ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبّته له، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يُمكنه أن يتوصّل بها إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجعل في فطرته محبةً لذلك مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)** ﴾ [البلد: ١٠] والنجدان هما الخير والشر.

[٤] ومنَحه العقل والنطق والتمييز (لأن الإنسان يُمكنه أن يُعرّف غيره كل ما عرفه) بخلاف سائر الحيوان، كما قال عز وجل: ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وبهذا تمكّن الإنسان من معرفة الخطّ (الكتابة) إذ به يقْدرُ الإنسان على إيداع العلوم التي استنبطها هو أو غيره الدّفاتر فتبقى على وجه الأرض مصونة من الإندراس، محفوظة عن الإنطماس، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)** ﴾ [العلق: ٣، ٤] وبذلك كرّم الله الإنسان بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته فاستأهل بها الخلافة في الأرض.

[٥] تكريم الله للإنسان بتسخير ما في السماء والأرض: بعد أن خلق الله الإنسان أكرمه بالنعم العظيمة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى لقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومن هذه النعم تسخير ما في السماء والأرض ليرزقه بها، وهو القائل: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦)** ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقد سأل اللهُ عز وجل الإنسان عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس: ٣١]، ومن هذه النعم إنزال الله الماء من السماء وخلق منه كل شيء حيّ لقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الزمر:

٢١]، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢].

لقد سخّر الله عز وجل للإنسان - تكريمًا له - ملكوت السماوات بما تشتمل عليه من نجوم وشموس وأقمار وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان من تعاقُب الليل والنهار واختلاف في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾ [النحل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية: ١٣].

والمراد بهذا التسخير هو تمكين الله عز وجل الإنسان من أن يستخدم ما خلقه الله في تطبيقات عمليّة نافعة له في مجالات حياته المختلفة دون ثمن يدفعه مقابل ذلك، مثل استخدامه لضياء الشمس ودفئها، ومعرفته السنين والحساب بدوران هذه الأفلاك حول نفسها من ناحية وحول بعضها من ناحية أخرى، قال تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]، وبمنازل القمر قدّر سبحانه وتعالى الأيام والشهور التي يُحسب بها عمر الإنسان على الأرض، فقال عز وجل: ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [غافر: ٦٧]، وقدّر بها فصول السنة التي تحكم محاصيله الزراعية وأُمورًا عديدة أخرى تعينه على حياته فقال عز من قائل: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ [الإسراء: ١٢]، وخلق الله عز وجل النجوم والكواكب وأشار إلى عظمتها بقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] فكانت مواقع النجوم هي وسيلة الإنسان التي يهتدي بها إلى الإتجاهات المختلفة

لقوله تعالى: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: ١٦]، وبها نحدد جهة القبلة وهذه كلها نعمٌ في السماء خلقها الله وسخّرها للإنسان تكريمًا له.

[٦] وكرم الله الإنسان بتفضيله على كثير من خلقه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكرّم الله بني الإنسان بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم بقوله عز وجل: ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن: ١٠] ، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢] وحملهم في البر والبحر ورزقهم من كل غذاء نباتي أو حيوانيّ ألطفه وألذّهُ لقوله تعالى لهم: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

[٧] ومن التكريم تحميلُ الإنسان الأمانة ونفيُ الجبر عنه وإعطاؤه الحريّة كاملةً، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور: ٢١]، و بهذا تحمّل الإنسان مسئوليته عن نفسه كأمانة وهو مسئول عنها، ويكمن فيها عنصر التكليف بحمايتها وصيانتها وتكريمها كفرد وأُسرة ومجتمع،و بهذا التكريم يكون الإنسان قيّما على نفسه، مُحتملاً تَبِعة اتجاهه وعمله، وهذه هي الصفة الأولى التي كان بها الإنسان إنسانًا: حُرية الإتجاه، وفردية التّبعة، وبهذه الحرية استُخلف في دار العمل، ومن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

[٨]تكريم الله للإنسان بمحبته له وهدايته إياه بإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام: من أجل مظاهر التكريم من المولى للإنسان أن أرسل الرسل لهداية الخلق ودعاهم لما يُحييهم وضمِن لهم الفوز في الدُّنيا والآخرة، وجعل خاتَمهم محمداً

ﷺ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فكان من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان تكريمًا له نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة الإحسان، وأن هدانا الله إليها، فقال عز من قائل: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣]، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وأرسل لنا خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ برسالته العالمية لتكريم البشر جميعًا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال عزّ من قائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ومن مظاهر هذا التكريم حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبودية لله وحده، وتحريره من عبادة الأصنام والأوثان والبشر ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن ذلك جعلُ التقوى هي المعيار الأساسي الذي يتفاضل به بنو البشر وليس الجنس أو اللون أو المال ونحو ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

[٩] حب الله للإنسان وذكره في الملأ الأعلى: ومن أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان، أن جعله أهلاً لحبه ورضاه، وأرشده في القرآن الكريم إلى ما يجعله خليقًا بهذا الحب، وأوّل ذلك اتباع رسول الله ﷺ فيما دعا الناس إليه كي يَحيوا حياةً طيبة في الدنيا ويظفروا بالنعيم المقيم في الآخرة، فقال عز من قائل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد أشار المولى إلى ثمرة هذا الإتباع وما أحلاها من ثمرة، ألا وهي التمتّع بخيري الدنيا والآخرة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل : ٩٧] ومن تلك المظاهر التي يحيا بها البشرُ وينعم بهاالمجتمع الإنساني وتجلب رضا الله وحُبَّه ما نصّت عليه الآيات الكريمة التي أعلنت هذا الحُبَّ الإلهيّ بكل وضوح :

(١) للمحسنين، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة : ١٩٥] وقد ورد إعلان هذا الحب في أربع مواضع أخرى من الذكر الحكيم .

(٢) للمتقين، وذلك قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٦]، وجاء مثل ذلك في موضعين آخرين من القرآن الكريم .

(٣) للمقسطين، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة : ٤٢]، وجاء إعلان هذاالحب لأهل العدل والإنصاف في موضعين آخرين .

(٤) للمتطهرين وذلك كما في قوله سبحانه ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقوله عز من قائل : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

(٥) للصّابرين، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

(٦) للمتوكلين وقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

(٧) للتوابين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

(٨) للمجاهدين المتوحّدي الصفوف، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف : ٤] .

أما ذكره سبحانه للإنسان في الملأ الأعلى فقد جاء في القرآن الكريم في قوله عز من قائل : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة : ١٥٢]،

كما جاء ذلك في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب مني شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**» [رواه البخاري].

[١٠] معية الله للإنسان: ومن أجلّ مظاهر تكريمه عزّ وجلّ للإنسان تقريبه منه ومعيته له ويتجلّى هذا القرب في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، أمّا معيته سبحانه فإنّها تتحقق في مظاهر عديدة منها:

أ – معيةُ المراقبة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، وقوله سبحانه لبني إسرائيل: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾**﴾ [المائدة: ١٢].

ب – معية النُّصرة والتأييد والهداية وذلك كما جاء على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾**﴾ [الشعراء: ٦٢] وكقوله سبحانه لموسى وهارون: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾**﴾ [طه: ٤٦]، وكما جاء على لسان الرسول الخاتم محمد ﷺ لأبي بكر، في قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذه المعية ليست قاصرة على الأنبياء وحدهم وإنما تشمل المؤمنين الطائعين أيضًا، مصداق ذلك قوله تعالى للمؤمنين: ﴿**وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾**﴾ [محمد: ٣٥].

جـ – معية التوفيق والمحبة، وقد جعلها الله تعالى للمتقين والصابرين وأهل

الإحسان فقال عز وجل: ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٤] (ومثلها في التوبة: ٣٦، ١٢٣)، وقال عز من قائل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، (ومثل ذلك في البقرة: ٢٤٩، والأنفال: ٣٦)، أمّا معية الله للمحسنين، فقد أثبتها الذكر الحكيم في موضعين: قوله عز وجل في النحل: ١٢٨: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿١٢٨﴾ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[١١] حفظ الإنسان ورعايته: ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله عز وجل وحفظه من السوء، قال تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴿١٠﴾ ﴾ [الإنفطار: ١] وسخّر له الملائكة لحفظه، قال تعالى: ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق: ٤]، وحفظه من وساوس وإغواء الشيطان بتمكينه من الإستعاذة برب العالمين ليحميه من كيد هذا الشيطان الرجيم، يقول الله تعالى: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وعلّمنا ربنا كيف نستعيذ به من الشيطان ومن كل شر في المعوذتين: ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾، ومن تكريم الله عز وجل للإنسان المسلم أن جعل في القرآن شفاء لعلل النفس والجسد وجعله بصائر للناس فقال تعالى: ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وتتضمن هذه البصائر القرآنية حقوق الإنسان الشرعية العامة والخاصة وتجعلهم يقفون على ما لهم ويعرفون ما عليهم، فيُؤدون الواجبات المتعلقة بالنفس وبالغير، وقبل ذلك وبعده ما يجب عليهم من عبادة الواحد القهار فيحفظون بذلك دينهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم كما أرشد القرآن إلى مكارم الأخلاق، وحثّ عليها، يقول الله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين ﴾ [الإسراء: ٩].

[١٢] تحريم دم الإنسان وماله وعرضه وتشديد النكير وتغليظ العقوبة على من يفعل ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢]، وسنّ الله عز وجل الشرائع السماوية العادلة الرادعة لحماية هذه النفس الإنسانية لقوله عز وجل: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)** ﴾ [البقرة: ١٧٩].

[١٣] ومن تكريم الإنسان في الإسلام إعطاء حق المساواة لكل فرد مع الآخرين، فلا يتفاضل أحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبهذا الحق يتساوى الناس جميعًا في تطبيق أحكام الشرع الحنيف، ويحصلون جميعًا على فرص متكافئة في العمل والتعليم والعلاج ونحو ذلك، لا فرق بين غني وفقير، وشريف ووضيع، وقوي وضعيف، وعربي وعجميّ، وفي ظل مجتمع المساواة يسود الإنصاف وتعم العدالة وتنتشر الألفة، ويتلاشى الكبر، ولا أدل على ذلك من هذاالتطبيق العملي المتمثل في فرائض الصلاة والصيام والحج حيث يقف المصلون والصائمون والحجاج جميعًا أمام الله سواء.

[١٤] وأخيرًا يأتي التكريم الأعظم في الآخرة بما أعدّه الله للطائعين من الكرامة في دار المقام حيث يدخلهم الجنة يتمتعون فيها بنضرة النعيم ويحظون بالرضوان والفضل العظيم، وقال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)** ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثانيًا - تكريم الإنسان لنفسه:

(أ) بالعلم والمعرفة:

[١] إنّ الإنسان إذا علم أنه مكرم من الله عز وجل، وأن من تكريم الله له قربه منه ومعيّته له فإن أبسط مظاهر تكريمه لنفسه أن يُعملَ عقْلَهُ وقلْبه وجوارحه بأن

يتفكر ويتأمّل ويتدبّر في ملكوت الله عز وجل ونعمه التي لا تعدُّ ولا تُحصى، فمتى ما تعلم المرءُ كيف يقرأ باسم ربه الكريم كرّم فكرَهُ وقلبه بمعرفة الله عز وجل في كل شيء يراه، قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩)**﴾ [الزمر: ٩].

ومتى ما أقبل الإنسان بفكره وقلبه على الله بإخلاص ونية حسنة أقبل الله عليه وزاده نوراً على نور وهداه إلى سبل الخير والتقوى وفقّهه في الدين، مصداقاً لقوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقه في الدين**» [رواه البخاري]، فالإنسان يكرم نفسه بالعلم والمعرفة حتى يكون أهلاً لتكريم الله له، ومن يفعل ذلك وهو مؤمن بالله فيُقدم عملاً فكريًا أو ثقافيًا، أو اكتشافًا علميًا يُثري به الحياة، يَلْقَ من الناس التكريم والثناء العطر، ومن الله عز وجل عظيم الجزاء في الدنيا والآخرة.

(ب) تكريم الإنسان نفسه بالعبادة والطاعة:

من تكريم الإنسان نفسه أن يُزكيها بالعبادة ويُطهرها بالطاعة، وذلك دون تطرف أو غلو، ذلك أن التيسير والرفق بالنفس من الأمور التي دعانا إليها القرآن وحثّنا على اتباعها الرسول الكريم ﷺ، فقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**»، وإذا فعلنا ذلك كنا أهلاً لمعية الله عز وجل، ويكون ذلك بالتقوى والإحسان والصبر وغيرها من مظاهر الطاعة، وهذه المعية تجعل الإنسان موقنًا بأن الله عز وجل رقيب عليه مطلع على سره وعلانيته، ومن ثم فعليه العمل بموجب ذلك أي بغاية الإخلاص والحياء والخوف والخشية وأن يعبد الله بأقواله وأفعاله كأنه يراه، وإذا علم أن معية النصر والتأييد لا تكون إلاّ للرسل وأهل الإيمان، فلا شكّ أن من تكريمه لنفسه أن يجعلها من أهل هذا الإيمان، ولمّا كانت هذه المعية الإيمانية تتأكد من خلال التوفيق والمحبّة وأن لها شروطها التي اقترنت بها، فإن الإنسان

(المسلم) لابد أن يُكرم نفسه بأن يجعلها ممن تنطبق عليه شروط هذه المعية من التقوى والصبر والإحسان.

أما التقوى وهي الصفة الأولى التي اقترنت بها المعية فالمراد بها العبادة مطلقًا، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «واسم التقوى إذا أُفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور. ونقل عن ابن حبيب قوله: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عذاب الله».

فالتقوى التي تقتضي المعية هنا تشمل الطاعات بأسرها وأنواع العبادة بكاملها من صلاة وصوم وحج وغيرها، وقوله: على نور من الله تقتضي التبصر والتفكر والتدبر، وهذا يؤدي إلى العلم والحكمة والمعرفة، أما رجاء رحمة الله فإنه يشمل الرجاء والرغبة فيما عند الله عز وجل.

وإذا انتقلنا إلى الصفة الثانية التي اقترنت بالمعية فهي الصبر، والصبر يشمل صبر على الطاعة وصبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله.

وأما الصفة الثالثة التي نص القرآن على اقترانها بالمعية فهي الإحسان، وركنه هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان بمعناه الشامل الذي يتضمن إحسان العمل مثل الفضل وكظم الغيظ والإنفاق في سبيل الله، والتصدق والزكاة ونحوها، والإخلاص التام في كل ذلك من أعمال البر والتقوى، فكلها أعمال يقوم بها الإنسان ابتغاء الحسنات من الله عز وجل ومرضاته تعالى.

أما أجلُّ مظاهر تكريم الإنسان لنفسه فهي جعلها أهلاً لحب الله عز وجل ورسوله ﷺ، ويكون ذلك بالإيمان بالله أولاً، ثم باتِّباع رسوله ﷺ ثانيًا، ثم بالإستمرار في هذه الأمور الثلاثة: التقوى والإحسان والصبر من ناحية، والعدل والقسط والتطهر والتوكل والتوبة والجهاد من ناحية ثانية، أما الأمر الثالث الذي يكرم الإنسان به نفسه ويجعلها أهلاً للمعية والقرب من الله عز وجل فهو الذكر والدعاء ونحوهما من الإستغفار والإستعانة والحمد والشكر والثناء، قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد : ٢٨]، ولا يوجد أعظم من هذه الطمأنينة، وتلك السكينة اللتين تمثلان غاية السعادة الإنسانية، وقد كان المصطفى ﷺ خير من يقتدى به في هذا المجال حيث كان يصبح ذاكرًا ويظل ذاكرًا حتى يمسي، وكان بذلك الذكر في معية مولاه.

(جـ) تكريم الإنسان نفسه بالحفظ والصيانة والتزكية :

على الإنسان الذي يكرم نفسه أن يحفظ هذه النفس التي حرمها الله تعالى بالعفة والتطهر، وأن يصونها عن كل ما يدنسها أو يشينها من الموبقات المهلكة مثل الزنا واللواط والخمر والميسر، ونحو ذلك مما يُذلُّ النفس وينتقص من كرامتها وعزتها، ناهيك عمّا يؤذي الجسد والعقل من المخدرات وما في حكمها، إن الإنسان بذلك يجعل نفسه في فريق السعداء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، المعنى كما يقول ابن تيمية – رحمه الله –: « قد أفلح من كبّرها وأعلاها بالطاعة، وخسر من أخفاها وحقرها وصغّرها بمعصية الله عز وجل » فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتُعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ويكون ذلك بالإيمان بآيات الله وسُننه الكونية وآياته العلمية، فبالتفكّر والتّدبر لهذه الآيات، وبالفهم والتعقّل لآيات القرآن تزكو النفس وتسمو وتعلو على مدارج هذه الكمالات حتى تكون مع الأبرار، وقد صدق العظيم إذ قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢–٢٤].

(د) الأخذ بالأسباب :

على المرء إذا أراد أن يكرم نفسه أن يصونها عن ذل سؤال الخلق، ولا يتأتّى له ذلك إلاّ إذا سعى في طلب الرزق موقنًا أن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين وأنه المتكفل بذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣]،

وإذا فعل ذلك فإن عليه أن يرضى بما قسم الله له من الرزق الحلال، فإذا سعى وكدح ورزق ما قدّر الله له أن يرزقه ورضي بذلك انكسرت حواجزُ الشك والقلق، وتخلّص من وساوس الشيطان وحُبّ التكاثر من أجل استهلاك زائف في دنيا فانية وأنه لابد ملاق ربه ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) ﴾ [الإنشقاق: ٦]، بذلك فقط تُصبح نفسه عزيزة بإيمانها، قوية بعزتها، لا تغُرُّها الدنيا ولا يُعميها الطمع حيث آمنت بقوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، واعتقدت بأن النجاح والرزق بيد الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

إن الإرتباط بين التقوى والتوكل وقضاء الله وقدره من ناحية، وبين الرزق من ناحية أخرى كفيلٌ أن يُحرر الإنسان من الخوف من فقدان الرزق، ذلك أن الرزق قد تكفّل به المولى عز وجلّ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وليس على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب التي أجملتها الآية الكريمة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ويعتقد جازمًا أن الله وحده صاحب الفضل في توفير هذا الرزق له وتأمينه من الخوف أيا كان نوعه من مرض أو جوع أو عدو أو نحو ذلك، ولا مهرب من ذلك كله إلاّ بالفرار إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

إن الإنسان الذي يُكرّم نفسه حقًا هو الذي لا ينسى نصيبه من الدنيا ولكنه في الوقت نفسه لا ينسى نصيبه من الآخرة، فالآخرة كما قال تعالى: ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٦]، وتحصيل نصيب الآخرة يكون بالإنفاق وإخراج الزكاة

والمواساة وإغاثة الملهوف ونحو ذلك، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧].

والخلاصة أن الإنسان الذي يكرم نفسه هو الذي يستحق التكريم من الله عز وجل ومن الناس، وتكريم النفس يكون بإعمال قواها العقلية بالتفكر والتدبر والتأمل، وقواها القلبية بالحب والتذكر والإيمان، وقواها البدنية بالسّعي للرزق وبالعبادة والعمل الصالح، إذ هما وسيلة العبد إلى التقرب منه سبحانه، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [المائدة: ٣٥]، وكل ذلك تزكية للنفس وسمو بها وقد قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)** ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

ثالثًا - تكريم الإنسان لأخيه الإنسان:

نصّ القرآن الكريم في مواضع عديدة على تكريم الإنسان للإنسان بوجه عام وجاءت السنة المطهرة مؤيدة ومبينة هذا التكريم الذي يشمل الأناسيّ جميعًا، والله عز وجل القائل: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب: ٢١] واصفًا إياه عليه الصلاة والسلام ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)** ﴾ [القلم: ٤] فشمل ذلك التكريم الرجل والمرأة، الصغير والكبير، الغني والفقير، المريض والسليم، المسافر والمقيم، القريب والبعيد، الحي والميت، وغير ذلك مما يشمله لفظ إنسان أو آدمي، إلا أن القرآن والسنة قد أكدا في غير موضع على أنواع خاصّة من التكريم لأنواع خاصة من الناس، اهتمامًا بها وتذكيرًا بما لها من حقوق على المجتمع الإنساني.

وعلى رأس قائمة الذين ينبغي تكريمهم ورعايتهم الوالدين الذين جعل الله الإحسان إليهما تاليًا لعبادته عز وجل مما يدل على عظيم شأن البر بهما وتكريمهما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ويتسع نطاق هذا التكريم ليشمل ذوي الأرحام الذين قال الله فيهم: ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦] ، وقال عز وجل: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء: ٣٦] .

ومن هذا المنطلق الرحيم ينطلق الإنسان في تكريم أخيه الإنسان بالإحسان إليه، وحسن الظن به، وحسن معاملته، والتعامل معه بالرقة والشفقة والتسامح، والتواصي بالحق وبالمرحمة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ﴾ [البلد: ١٧]، وفي دائرة التواصي بالحق تدخل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي دائرة المرحمة يدخل الفضل والتناصر والتعاون على البر والتقوى، وبهذه الأمور يتحقق تكريم الإنسان لأخيه الإنسان في أروع صوره وأبهى حلله، وما ذلك إلا لأن مبنى حقوق الإنسان التي أمرنا أن نتواصى بها قائمة على أن الإنسان مكرم لتكريم الله تعالى له، ومنحه إياه ذلك، وذلك التكريم يرتبط بعبودية الإنسان لربه وإيمانه به .

وبهذاالرباط الإيماني يُعدُّ المسلمون جميعًا إخوة في الدين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذه الرابطة الإيمانية تفرض على كل منهم الإلتزام بعدل الإسلام وسماحته، والبر بالناس جميعًا حتى ولو خالفونا في الرأي أو العقيدة، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

إن حقوق الإنسان مرتبطة بأداء ما عليه من واجب، وبقدر ما يلتزم من مسئولية إزاء حقوق الآخرين، وقد جعل الإسلام للحرية الشخصية حدودًا لا ينبغي تجاوزها ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال عز وجلّ: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

أليم ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢]، وبهذا فإن الحرية الإسلامية ليست اتباعًا للهوى أو جريًا وراء الشهوات وتحقيق المكاسب المادية بالحق أو بالباطل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨]، بل على العكس من ذلك على الإنسان أن يتّبع شريعة الله الحاكمة، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣]، وكما نهى الإسلام الإنسان عن أن يتبع هواه في الحكم على حقوق الآخرين، فإنه نهى أيضًا عن اتباع هوى الغير من الضالين المضلين، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[المائدة: ٤٩، ٥٠].

تكريم المرأة:

لقد اتخذ تكريم المرأة في الإسلام صورًا عديدة ومظاهر متنوعة منها على سبيل المثال:

[١] ضرورة المحافظة على حياتها، وقد جاء ذلك عندما نعى القرآن الكريم على عرب الجاهلية ما كانوا يقدمونَ عليه من وأدهن، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقد وسم القرآن الكريم هؤلاء الجاهلين بسوء حكمهم وخطأ تقديرهم عندما كانوا يشعرون بالهوان ويتوارون من الخجل عندما يُرزق أحدهم بالبنت فقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ويستنكر إليه مثل هذا التصرف بقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

[٢] إعطاؤها الحق كاملاً في ممارسة العبادة والحصول على الأجر العظيم والمغفرة من الله عز وجل إن هي فعلت ما أمر الله تبارك وتعالى به، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

[٣] يسّر الإسلام السبيل أمام المرأة لتتفرغ لأجلّ مهمة في الحياة وهي حفظ النسل والقيام عليه بالرعاية والتعليم والتربية وهي كما قال الشاعر:

هي الأخلاق تنبت كالنبات ... إذا سُقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهّدها المربي ... على ساق الفضيلة مثمرات
ولم أرَ للخلائق من محلّ ... يُهذبها كحضن الأمهات

وحتى تستطيع الأم القيام بهذه المهمة فلابد من أن يتهيأ لها من يكفل أمر القيام بمعاشها والسّعي على رزقها ورعاية مصالحها، ولذلك فقد ارتبطت قوامة الرجال على أمور الأسرة بدرجة الرجولة وبالإنفاق، قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

[٤] حق المعاشرة بالمعروف أو المفارقة بالمعروف، يقول الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ٢].

[٥] جعل الإسلام للمرأة نصيبًا مفروضًا في تركة الرجل سواءٌ أكانت هذه المرأة أمًا أو ابنة أو زوجًا أو أختًا، وضمنَ لها بذلك الحقّ في الحياة الحرة الكريمة في حياة أهلها أو بعد رحيلهم.

تكريم الأقليات في المجتمع الإسلامي:

لقد قضى الإسلامُ قضاء مبرمًا على كافة أنواع التمييز العنصري القائم على اختلاف اللون أو الجنس، فالأبيض كالأسود، والعربي كالعجميّ، لا يتفاضلون ولا يتمايزون إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، فأكرم الناس أتقاهم كما جاء في الآية الكريمة ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)** ﴾ [الحجرات: ١٣]، أما غير المسلم فإنه يعيش مكرّمًا لا يجوز لأحد أن ينتقصه أو ينتهك عرضه أو ماله أو دمه أو يجبُرَهُ على ما يكره، قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال المصطفى ﷺ حاثًا على استقرار وتلاحم المجتمع بكافة عناصره: «**من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنة وإنّ ريحها يُوجد من مسيرة أربعين عامًا**» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «**ألا من ظلم مُعاهداً أو انتقص منه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**»

[رواه أبو داود].

ومن مظاهر التكريم نهي الإسلام عن التعذيب سواء كان المعذب مسلمًا أو ذميًّا، روى عروة بن الزبير أن هشام بن حكيم وجد رجلاً وهو (والٍ) على حمص يُشمس ناسًا من القبط في أداء الجزية، فقال: ما هذا؟، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يُعذب الذين يُعذبون الناس في الدنيا**» [رواه أبو داود]، ولو لم يعرف هشام أن هذا الوعيد يشمل المعذَّبين من أهل الذمة كما يشمل المسلمين لما ذكّر به الوالي الذي كان يقوم – عن جهل بقواعد الإسلام السمحة – بتعذيب بعض القبط.

الآيات الواردة في تكريم الإنسان

تكريم الإنسان على كثير مما خلق الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ١٥ – ٢٠].

تكريم الإنسان في الآخرة:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١]. ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: ٢٥ – ٢٧].

تكريم الإنسان على إبليس:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾

[الإسراء: ٦١، ٦٢].

الآيات الواردة في «تكريم الإنسان» معنىً:

أولاً – تسخير ما في الكون له:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

ثانيًا – خلق الإنسان في أحسن تقويم:

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ

﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

[المؤمنون: ١١ – ١٤].

ثالثًا – استخلافه في الأرض وإسجاد الملائكة له:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

رابعًا – إرسال الرسل لإسعاده في الدنيا والآخرة:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

خامسًا – صيانة الإنسان في دمه وعرضه وماله:

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

سادسًا – تعليمه القراءة والكتابة والبيان وغير ذلك مما لم يكن يعلمه:

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

[الرحمن: ١ – ٤].

سابعًا – أنواع خاصة من التكريم:

(أ) تكريم المرأة:

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

(ب) تكريم أهل الذمة والأقليات العرقية :

﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

الأحاديث الواردة في تكريم الإنسان:

عن أبي بكرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أكرم سلطان الله - تبارك وتعالى - في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله - تبارك وتعالى - في الدنيا أهانه الله يوم القيامة** » [رواه أحمد والترمذي] .

وعن خارجة بن زيد بن ثابت : « أن أم العلاء - امرأةً من نسائهم - بايعت النَّبيَّ ﷺ أخبرته أن عثمان بن مظعون جار لهم في السُّكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، قالت أم العلاء : فاشتكى عثمان عندنا، فمرَّضْتُهُ حتّى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النّبيّ ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النّبيّ ﷺ : « **وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟** » قالت : قلتُ : لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟ قال : « **أما هو فقد جاءه - والله - اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي** » ، قالت : فوالله لا أُزكي أحداً بعده، قالت : فأحزنني ذلك، فنمتُ، فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجئتُ رسول الله ﷺ وأخبرته، فقال : « **ذلك عمله** » [رواه البخاري] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قيل للنّبيّ ﷺ : من أكرم الناس؟ قال : « **أكرمهم أتقاهم** » قالوا : يا نبيّ الله، ليس عن هذا نسألك . قال : « **فأكرم الناس يوسف نبيُّ الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله** » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : « **أفعن معادن العرب تسألوني ؟** » قالوا : نعم، قال : « **فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » [رواه البخاري] .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « **لا تزال طائفةٌ من**

أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال، صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة لهذه الأمة» [رواه البخاري].

من الأحاديث الواردة في تكريم الإنسان معنىً:

أولاً - تسخير ما في الكون للإنسان:

عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا، وسخّرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأسُ وتربع، فكنت تظنُّ أنك مُلاقي يومك هذا؟ قال: فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»** [رواه الترمذي].

ثانيًا - صيانة الإنسان في دمه وماله وعرضه:

عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فقلت: أخبرني عن حِجة رسول الله ﷺ فقال بيده، فعقد تسعًا، فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذّن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاجٌّ، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله إلى أن يقول: فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصْواء فرُحلَتْ له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس، وقال: **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عبّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله..»** الحديث [رواه مسلم].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: **«يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمان إلى قلبه، لا تُؤذوا المسلمين**

ولا تُعيّروهم، ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحْلِه» [رواه الترمذي].

ثالثًا - تكريم المرأة :

عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فقلت أخبرني عن حجّة رسول الله ﷺ فقال: الحديث: وفيه: «**اتّقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطِئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرّحٍ، ولهنّ عليكم رزقهن وكسوتُهُن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهدُ أنك قد بلّغت وأدّيتَ ونصحتَ، فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**» ثلاث مرات.. الحديث [رواه مسلم].

عن عائشة ﵂ قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليّ النبيّ ﷺ فحدثتُهُ حديثها، فقال النَّبيّ ﷺ: «**من ابتُليّ من البنات بشيء فأحسن إليهن كُنّ له سترًا من النار**» [رواه البخاري، ومسلم].

وعن أبي هريرة ﵁ عن النّبيّ ﷺ قال: «**من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرًا فليتكلّم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إنْ ذهبت تُقيمُهُ كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيرًا**» [رواه البخاري ومسلم].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر - أو قال: غيره -**» [رواه مسلم].

رابعًا - تكريم المعاهد (الذمي):

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**» [رواه البخاري].

عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل مُعاهداً في غير كُنهه حرّم الله عليه الجنّة**» [رواه أبو داود].

عن عروة بن الزبير أن هشام بن حكيم وجد رجلاً وهو على حمص يُشمس ناسًا من القِبْط في أداء الجزية فقال: ما هذا؟ سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يُعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**» [رواه مسلم].

خامسًا - تكريم المحاربين:

عن ابن بُريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ **إذا أمّر رجلاً على سريّة أوصاه** في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: «**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تغلُّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا أنت لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، أو خصال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكُفّ عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، وإن أبوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين**... الحديث» [رواه مسلم].

وعن ابن عمر قال: «وُجدت امرأةٌ مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». [رواه البخاري ومسلم].

وعن سمرة بن جندب قال: «كان نبيُّ الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة». [رواه أبو داود].

سادسًا - تكريم الخادم والأجير ومن على شاكلتهما:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أنسًا غُلام كيِّسٌ فليخدمك، قال: فخدمْتُهُ في السّفر والحضر، والله، ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لِمَ لم تصنع هذا هكذا». [رواه مسلم].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلُقًا، فأرسلني يومًا لحاجة فقلت: والله لا أذهب. وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبيّ الله ﷺ فخرجت حتى أمُرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قَبَض بقفاي من ورائي، قال: فنظرتُ إليه وهو يضحك، فقال: **«يا أُنيسُ، أذهبت حيثُ أمرتُك؟»** قُلتُ: نعم، أنا أذهب يا رسول الله. [رواه مسلم].

وعن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالرّبذة وعليه حُلّة وعلى غلامه حُلّة، فسألته عن ذلك فقال: إني سابيت رجلاً، فعيرته بأمه، فقال لي النبيّ ﷺ: **«يا أبا ذر، أعيّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خوَلكُم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمهُ مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبُهُم، فإن كلّفتُموهم فأعينوهم»** [رواه البخاري ومسلم والترمذي].

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في تكريم الإنسان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمن أكرم على الله من ملائكته».

نظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى البيت أو إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» [رواه الترمذي].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أن التفضيل بالعقل. وعنه أيضًا: أن التفضيل بأكله بيده وغيره يأكل بفمه.

وعن الضحاك رضي الله عنه في الآية الكريمة نفسها: أن التفضيل بالنطق.

وعن عطاء رضي الله عنه في الآية نفسها: أن التكريم بتعديل القامة وامتدادها.

وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن التكريم بالمطاعم واللّذّات.

وعن ابن جريج قال في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ قال: فضلناهم في اليدين يأكلون بهما ويعملون بهما، وما سوى الإنس يأكل بغير ذلك.

وعن يمان رضي الله عنه أن التفضيل بحسن الصورة.

وعن محمد بن كعب القرظيّ: أن التفضيل بجعل محمد ﷺ منهم.

وقال ابن عطية: إنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي يملك به الإنسانُ الحيوانَ كله، وبه يعرف الله ويفهم كلامه.

وقال أبو حيان - رحمه الله -: قيل عن بعضهم: إن التفضيل بالخط. وقيل: باللحية للرجل والذُّؤابة للمرأة. وقيل: بتدبير المعاش والمعاد، وقيل: بخلق الله آدم بيده.

قال الطبريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية: يقول - تعالى ذكره - ولقد كرّمنا بني آدم بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم، ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ على ظهور الدواب والمراكب، وفي البحر في الفلك التي سخّرناها لهم، ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ وذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها، ورفعِها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسّر لغيرهم من الخلق.

ذكر النيسابوري في تفسيره أنه يُحكى عن الرشيد أنه حضر لديه طعام فأُحضرت الملاعق وعنده أبو يوسف (من أصحاب أبي حنيفة) فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس أن هذا التكريم (لبني آدم) هو أنه جعل لهم أصابع يأكلون بها. فردّ الملاعق وأكل بيده.

وقال النيسابوري: من وجوه تكريم بني آدم تسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، فالأرض لهم كالأم الحاضنة، منها خلقهم وفيها يُعيدهم، وهي لهم فراش ومهاد ينتفعون به في الشرب والعمارة والزراعة، وماء البحر ينتفع به الإنسان في التجارة واستخراج الحُليّ منه، والهواء مادة الحياة، ولولا هبوب الرياح لاستولى النتنُ على المعمورة، والنارُ يُنتفع بها في الطبخ والإنضاج ودفع البرد وغير ذلك، وانتفاع الآدميين بالمركّبات المعدنية والنباتية والحيوانية ظاهرٌ، وبالجملة فهذاالعالم بأسره كقرية معمورة أو خِوان مُعَدٌ والإنسان فيه كالرّئيس المخْدوم والملك المطاع، فأيُّ تكريم يكون أزيد من هذا؟ ولاشكّ أن الإنسان لكونه مُستجْمعًا للقوة العقلية القدسية وللقوتين الشّهويّة البهيمية، الغضبية السبُعية ولقُوَّتي الحس والحركة الإرادية، وللقوى النباتية وهي الإغتذاء والنمو والتوليد يكون أشرف مما لم يستجمع الجميع (أي كل هذه القوى).

يُروى عن زيد بن أسلم أن الملائكة قالت: ربّنا إنك أعطيت بني آدم الدُّنيا يأكلون منها ويتمتّعون ولم تُعطنا ذلك فأعطِناه في ا لآخرة، فقال: «وعزّتي وجلالي، لا أجعل ذرية من خلقتُ بيدي كمن قلت له: كن فكان».

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: جعلنا لهم كرمًا أي شرفًا وفضلاً، وهذا هو كرم نفي النقصان، لا كرم المال، وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر ممّا لا يصحُّ لحيوان سوى بني آدم أن يكونه، يتحمّل ذلك بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصُهُم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتّسع فيه حيوان اتّساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المُركّبات من الأطعمة، وغاية كل حيوان يأكل لحمًا نيئًا أو طعامًا غير مركب.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أي على البهائم

والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة.

وقال - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أقوال العلماء فيما فُضّل به الإنسان: «والصحيح الذي يُعوّل عليه أن التّفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويُوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلاّ أنه لما لم ينهض بكل المراد بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب..».

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ الآية: يُخبر الله تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم وخلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ④﴾ [التين: ٤]، بأن يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعًا وبصراً وفُؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويُفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصّها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

وقال رحمه الله: ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات، وقد استُدلّ بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

قال النيسابوري في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ** ⑥ **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ⑦ **فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ⑧﴾ [الانفطار: ٦- ٨]: الكرم بالخلق والتسوية وهي انتصاب القامة، أو سلامة الأعضاء، وبالتّعديل وهو: تناسبها..

عن أُبي بن كعب في قول الله - عز وجل -: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: «جمعهم فجعلهم أرواحًا، ثم صوّرهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العقد والميثاق

وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قال: فإني أُشهدُ عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأُشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام - أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا ربّ غيري، فلا تُشركوا بي شيئًا، إني سأرسل إليكم رسلي يُذكرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزل عليكم كتبي، قالوا: شهدنا بأنك ربُنا وإلهنا، لا ربّ لنا غيرك، فأقَرُّوا بذلك، ورفع عليهم آدم ينظُرُ إليهم، فرأى الغنيّ والفقير، وحسنَ الصورة ودون ذلك، فقال: ربِّ، لولا سوّيتَ بين عبادك، قال: إني أحببت أن أُشكرَ.

من فوائد تكريم الإنسان:

[١] لتكريم الإنسان في الإسلام قيمة عظمى تدفع المسلم للإعتزاز بكرامته وعدم التفريط فيها مما يجعله يرفض الظلم ويأبى الضيم، فيعيش مرفوع الهامة قويّ العزيمة رابط الجأش لا يخشى في الحق لومة لائم.

[٢] إن قناعة المسلم بتكريم الله له ولغيره من البشر تجعله يُحافظ على أرواح الناس ويبتعد عن إيذائهم أو إرهابهم لأنه مطالب بأن يُكَرّم من كرَّمَهُ الله ورسوله، ومن يُكرِّمُهُ ربه ينبغي ألاّ يُهينه أحد ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

[٣] إن تكريم الإنسان يدفع المؤمن الحق إلى شكر المولى عز وجل على تلك النعم العظيمة التي حباه الله بها وفضّله على كثير ممن خلق.

[٤] إن من عرف إكرام الله له، لابدّ وأن يبتعد عن معاصيه، وإذا غلبه الشيطان فعصى، فعليه المبادرة بالتوبة.

[٥] إن تكريم الخادم كما أمر الإسلام كفيلٌ بأن يقضي على الحقد والحسد من هؤلاء الخدم الذين قد تدفعهم الإهانات المنافية لروح الإسلام إلى ارتكاب حماقات تصل إلى حد القتل.

[٦] إن تكريم الإسلام للمرأة (أمًّا وبنتًا وزوجًا) يجعلها تشعُرُ بقيمتها في

المجتمع وتعتزُّ بدورها في بناء الأسرة، ولاشك أن المرأة إذا كانت راضية النفس، موفورة الكرامة ستُحَوِّلُ بيتها إلى جنة وارفة الظلال، وصدق شاعر النيل إذ قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

[٧] تكريم الإسلام - ومن ثمّ المسلمين - لأهل الذمة من المعاهدين والكتابيين وغيرهم يجعل هؤلاء يستشعرون عظمة الإسلام، ويُوحِّد كلمة المجتمع فيُصبح آمنًا من الدّسائس والمكائد التي يلجأُ إليها من هُضِمت حقوقهم أو انتُهكت حرماتهم، ويجعل من هؤلاء الذميين عناصر صالحة تعملُ وتعطي دون خوف أو وجل.

[٨] إن تكريم المحارب - حتى وإن كان كافرًا - يحمي البشرية من تلك المجازر الجماعية التي تقشعرُّ لها الأبدان ويروح فيها الضحايا من النساء والولدان، وما ضحايا لبنان والبوسنة وغيرهما على أيدي سفّاحي العصر الحديث عنّا ببعيد، ولو كان هؤلاء يعرفون كرامة الإنسان كما أقرّها الإسلام ما سمعنا عن هذه الأهوال التي يشيب لها الوليد.

[٩] إن كرامة الإنسان تُحتّم على من يقوم باحتلال أرض الغير ألا يطرد أهلها من ديارهم وألاّ يُروّعهم وألاّ يأكل من ثمار أرضهم إلاّ بإذنهم، وألا تُنتهك حُرُمات بيوتهم وألاّ تُضْرب نساؤهم أو يُعذَّب ذووهم.

[١٠] إنّ تكريم سلطان الله في الأرض كفيلٌ بأن يقضي على الفوضى ويقطع دابر الشقاق، ويجعل له من الهيبة ما يُخيف المجرمين.

[١١] إكرام الإنسان إذا كان غريبًا أو لاجئًا يُشعره بعظمة الإسلام، ويُفرّجُ كربته.

[١٢] إكرام الإنسان إذا كان شيخًا فيه بشارة للمكرم بأنه سيعيش طويلاً وأنه سيُرزق بمن يُكرمه حينذاك.

[١٣] إنّ من يعرف إكرام الله له بخلقه من طين وتسويته، ونفخهِ فيه من روحه، لا يتكبّر ولا يتجبّر ولا يمنع خيراً رزَقه إيّاه.

[١٤] إنّ من يعرف أن الله أكرمه فسخّر له ما في الكون ورزقه السمع والبصر والفؤاد، لابد أن يدفعه ذلك إلى ذكر الله، وإن نسي نسيهُ الله يوم القيامة.

[١٥] إن من يُعذِّب الناس وينتهك بذلك آدميتَهُم ولا يعبأُ بكرامتهم عليه أن ينتظر عذاب الله يوم القيامة، فإذا منعه تكريم الإنسان من ذلك فقد أمِنَ العذاب – من هذه الجهة – يوم القيامة.

قواعد مهمة لقراءة التراث

إن تزييف وعي الأمة سبيل من سُبل إبعادها عن دين ربها، وهو أحيانًا يحدث عن عمد وسبق إصرار وترصد، ومع فقدان البصيرة تزداد معالم الغربة، وقد أصبح التاريخ والحديث عنه من أهم أسباب هذا التزييف، وكما أطلق علي هذه المنطقة، والتي هي منبع الرسالة، اسم منطقة الشرق الأوسط - أي بالنسبة لأوروبا - وعلى دولها اسم الدول النامية - أي المتخلفة - أو دول العالم الثالث.

فزيفوا بذلك معاني الجغرافيا، وإلاَّ فهذه المنطقة في قلب الدنيا ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

فكذلك زيَّفوا معاني التاريخ، فقسّموه إلى تاريخ قديم، ووسيط، وحديث، ووصفوا القرون الوسطى بالقرون المظلمة!! ، وهذا التقسيم إن كان يصلح فهو يصلح مع أوربا، ولا يصلح مع المسلمين بحال؛ فالقرون الوسطى عندنا كانت قرونًا شاعت فيها الهداية والنور، وبُعث فيها رسول الله ﷺ رحمة للعالمين.

والتاريخ شأنه كشأن غيره، يتناوله الغالي والجافي، ومسائله قد تدور بين إفراط وتفريط، فالتفسير الماركسي المادي للتاريخ يعتبر المادة هي أصل الكون، وأن الإنسان قد نشأ منها بالتطور والإرتقاء، وأن الطبيعة - وهي الإله عند الشيوعيين - هي التي أنشأته، وأن وسائل الإنتاج هي سبب التطور، هي التي تحدد نوع العلاقات الإقتصادية، وهي التي تحدد نوع العلاقات الإجتماعية والعقائدية، والمذاهب الأخلاقية، بل الحياة العلمية والفكرية والروحية بكاملها، وهكذا يبلغ الغلو مداه.

ولذلك لا عجب أن تنكسر الشيوعية، ويضمحل تفسيرها للتاريخ، وعلينا أن نجاهد للإجهاز على طغيانها المادي الذي فرضه البعض على الواقع، وبمقتضاه فسّروا التاريخ الإسلامي، تفسيرًا ماديًا أو قوميًا، أو علمانيًا.

لقد بلغ من أثر هذه اللوثة أن بعض الكُتَّاب كالعقاد قال بتطور العقيدة، وأن العقيدة تطورت من عبادة الوثن والصنم والطوطم إلى عبادة الله الواحد!!.

وذكر البعض أنَّ إخناتون هو أول من دعا بالتوحيد!! وتناسى هؤلاء أنَّ البشرية بدأت بنبيِّ الله آدم عليه السلام - نبيٌّ مُكلم - أي بمرتبة من أعلى مراتب الهداية، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على التوحيد الخالص، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ثم طرأ الشرك في قوم نوح ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ [نوح: ٢٣].

وقد آلت نظرية النشوء والإرتقاء إلى الإندثار غير مأسوف عليها وعلى أصحابها، نحن بحاجة لضبط التاريخ ومفرداته بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ، فهذا هو المقياس والميزان، الذي رضيه لنا ربنا، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نحرص على موافقته، لا على مسايرة أحداث التاريخ كما يدعو البعض، ونحذر من مصادمة الإسلام، وإن اتهمنا فريق بأننا نُصادم حركة التاريخ، ونُخلص العبودية لله وحده، لا لله وللتاريخ، كما يعبر البعض، فإن كان ولابد من العطف، فنقول لله ثم للتاريخ؛ لأن «ثم» تُفيد التراخي الزمني، أما الواو فتفيد مساواة المشتركين في الحكم.

ومن التعبيرات الشائعة قولهم: إن كذا سيُقذف في مزبلة التاريخ أو أنَّ حساب التاريخ عسير، فلابد هنا من حيطة متأكدة إذْ أن خطأ التصور عن التاريخ قد أدَّى بهم إلى أن وضعوه في منزلة الإله الذي يُحاسب ويُعاقب، ويُتلقى منه نظام الحياة والممات، صنعوا مع التاريخ ما صنعوه مع الطبيعة، فهي الكلمة البديلة عن كلمة «الله» يقولون: الطبيعة أعطتنا ومنحتنا، وخصائص طبيعية.

ولسان المسلم يفترق عن غيره، والحقائق العلمية لابد من النظر بعين الإعتبار للسان الذي صيغت به، فاللسان محلها، حتَّى وإن كانت العلوم عالمية، والملحد عندما يتكلم بهذه الألفاظ لا يقصد ما ورد في الحديث الصحيح: «يؤذيني ابن

آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار» إذ أنَّ الملاحدة لا يؤمنون بالله ربًا ولا بالإسلام دينًا ولا بمحمد ﷺ نبيًا، فلابد وأن نحذر مصطلحاتهم الوافدة المستوردة ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٨].

ومن المتقرر عند المسلمين أنَّ الذي يُحاسب العباد على أفعالهم هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ** ﴾ [المجادلة : ٦]، وقال : ﴿ **فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى** ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه: ٥٢].

ومن هذا القبيل كلمة إهانة وإساءة للتاريخ، فهذا التعبير يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت : ٤٦]، ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ [الإسراء: ٧].

وقد نردد ويردد معنا الناس: أنَّ التاريخ يُعيد نفسه، فإن قُصد به أنَّ الحوادث والسُّنن تتكرر فلا بأس، أما إن كان المقصود أنَّ التاريخ هو الذي يُنشئ الحوادث المتشابهة، فهذا باطل، قال تعالى: ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٦٢]، وقال: ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام: ١١]، فسُنن الله ماضية في الخلق، ولا معارضة بين السُّنن الكونية والسُّنن الشرعية.

ومن جملة هذه السنن: التدافع بين الحق والباطل والإيمان والكفر، يُبتلى المؤمنون، والنصر عُقبى الصابرين، وربنا لا يُصلح عمل المفسدين، ولا يضيع أجر المحسنين، والعاقبة للمتقين، واستخدام المصطلحات الشرعية أبعد عن كل شبهة وريبة .

وكما نحتاج لضبط المعاني الإجمالية والمناهج التاريخية، كذلك لابد من تمحيص للتفاصيل حتَّى لا نكون أشبه بحاطب ليل، وخصوصًا مع كثرة الكتابات التاريخية الفارغة، والتي ليس لله فيها نصيب، ومحاولة إضفاء الهالة والبريق على ما يُسمى بزعامات تاريخية، قد ينبهر بها الناس، ويقتدون بها على حساب

منهج الأنبياء والمرسلين، فهذا وطني، والثاني قومي، والثالث اشتراكي ... وكلهم لا يُعظم لله شرعًا، وكما لا ينبغي أن ننبهر بالساقطين.

كذلك ما يزعمه البعض عن الثوابت التاريخية، قد تكون معانٍ عارية عن الصحة تمامًا، فالبعض اعتبر صلب المسيح من الثوابت التاريخية ، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ [النساء: ١٥٨] وبيَّن سبحانه اضطراب أوائلهم بشأنه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) ﴾ [النساء: ١٥٧]، لقد رُفع إلى السماء الثانية، وأُلقي شبهه على يهوذا الخائن، أخذوه فقتلوه، ولذلك اضطربوا وقالوا: إن كان صاحبنا قد قُتل، فأين المسيح ؟ وإن كان المسيح قد قُتل فأين صاحبنا؟!.

واليهود اليوم عندما يغتصبون أرض فلسطين يزعمون أنها أرض الميعاد، وأنها حق تاريخي ثابت، وهي دعوى عريضة لابد من إقامة البرهان عليها، وإلاَّ فكل أرض علاها حكم الله، لابد من استعادتها لحوزة الإسلام والمسلمين. كذلك فهم ينتظرون المسيح، ومسيحهم هو الدجال، وستكون هلكته على يدي مسيح الهدى كما ورد في أخبار الساعة.

والثوابت التاريخية المزعومة كثيرة وعديدة، ومن ذلك وصف الخوميني في كتابه عن الحكومة الإسلامية للطوسي بأنه قدّم خدمات جليلة للإسلام، والطوسي تولى الوزارة زمن الخليفة المستعصم، وهو الذي هيّأ لهولاكو دخول بغداد بعد أن دله على مداخلها، وهو أيضًا الذي أشرف على مذابح المسلمين مع هولاكو (سنة ٦٥٥هـ).

لقد استخدم التاريخ في إبعاد الدنيا عن دين ربها، بل وتفريق هذه الأمة بحضارات زائفة بائدة عفنة فرعونية وآشورية وبابلية وفينيقية ... صارت هي البديل عن إسلام الوجه لله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]،

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٨٥) ﴾

[آل عمران: ٨٥].

وفي المقابل تم تشويه تاريخ الصحابة والخلافة الإسلامية، حتَّى يقطعوا الصلة بيننا وبين إسلامنا، ونخجل من المطالبة بتطبيق شرع الله، ونترك العمل لإقامة خلافة على منهاج النبوة.

لهذا وغيره كان لابد من وقفة شرعية تجاه هذا الطغيان المادي الذي لحق بالتاريخ وأن تتضافر جميع وسائل التعليم والإعلام؛ لكشف هذا الدس، وهذا التشويه التاريخي ليحي من حيٍّ عن بيّنة، ويهلك من هلك أيضًا عن بيّنة.

بعض القواعد المهمة في أسلوب الكتابة وطريقة العرض

وبما أن دراسة التاريخ في حسِّ المسلم مرتبطة بعقيدته، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله، وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه، وتحكيم شريعته؛ فإنه يتوجب عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتابة وطريقة العرض، ومنها:

[١] جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه:

جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه، فإنَّ البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى هذه العقيدة، وتمسَّكت بها حصل لها السعادة والتمكين في الأرض، وكلما بعدت عنها أُصيبت بالأمراض الإجتماعية والخُلُقية، وفشا فيها الظلم والجور، وسلط عليها الأعداء.

[٢] المحافظة على الوقائع التاريخية الصحيحة:

والتركيز على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعي للحادثة التاريخية، يتم مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية، وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة.

[٣] التركيز على الأهداف والغايات:

ولابد من التركيز في العرض على الأهداف والغايات؛ فالمؤمن له في الحياة هدف وغاية عُليا، يسعى دائمًا لتحقيقها وهي عبادة الله وحده، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث، فإنه لا ينظر إلى هذه الدراسة إلاَّ كوسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا، فلا يُنفق كل جهده في الوسيلة، ويترك الغاية، ولذلك ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له، وعن الإعتبار الذي يترك في النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على البحث بفائدة، وليست من هدف المسلم ولا غايته في الحياة، إلاَّ أن يكون البحث في التفصيلات مُتعلق به مقصد شرعي، فلا بأس حينئذ من البحث ومحاولة إثباته.

ومن صور الخلاف الذي لا فائدة منه اسم صاحب يس ولونه وطوله وبلده واسم أبيه، وكذلك مؤمن آل فرعون، وعدد أهل الكهف ولون كلبهم، فالناس عادة يتعلقون بالأمور الجانبية التي لا فائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك، ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة، وهي أخذ العبرة من وراء سياق القصة.

[٤] أن يكون العرض موحيًا بتحبيب الخير وتبغيض الشر:

وينبغي أن يكون العرض موحيًا بتحبيب الخير، وتبغيض الشر؛ فالمؤرخ صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية وميزانه في معرفة الخير والشر، ليس عرف الناس، ولا ما تواطأ عليه أهل زمن، أو قررته هيئة من الهيئات أو زعيم من الزعماء إنما ميزانه هو شرع الله، ولذلك فالمؤرخ في دراسته يجب عليه أن يفحص ويُدقق وينقُد المصادر والمراجع، ويتثبت غاية التَّثبت، وأن يعرض الأحداث بأمانة وصدق، ثم عليه أن لا يُظهر الباطل بمظهر الحق ولا يُظهر الشر بمظهر الخير إنما يُسمي الأشياء باسمها؛ فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان

قائله، والميزان هو شرع الله، وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته.

[٥] إبراز دور الأنبياء:

كما أنَّ على المؤرخ أن يُبرز دور الأنبياء، وأثرهم في تاريخ البشرية، وكيف جاءوا بعقيدة واحدة؟ هي: إفراد الله بالعبادة والإستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله وتوضيح أنَّ الإسلام هو دين الأولين والآخرين ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] ، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وتبيين أنَّ التاريخ البشري كله يمثل صراعًا بين الحق والباطل والإيمان والكفر، ودور الأنبياء وأتباعهم يُمثل في تاريخ البشرية كلها خطًا مُستقلاً ومرتبطًا بعضه مع بعض من آدم إلى محمد ﷺ وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف عصورها، فالجاهليات تُشكل أُمَّة واحدة وحزبًا واحداً في مقابل أمة الإسلام، ودعوة الحق، وحزب الرحمن، وأتباع الرسل والأنبياء، وما من فترة سيطرت فيها الجاهليات إلاَّ وأصيبت البشرية بالشقاء والتعاسة وسادها الظُّلم، ولا أظلم من الشرك بالله.

[٦] تحري استعمال المصطلحات الإسلامية:

ثم على المؤرخ تحري استعمال المصطلحات الإسلامية، وتجنب المصطلحات الدخيلة، مثل: الوحدة العالمية، والإخاء الإنساني، والتعاون الدولي، والسلام العالمي، وزمالة الأديان، والحرية، والمساواة، والتقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية...

وأن نعلم أنَّه لا التقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال؛ فالديمقراطية والإشتراكية والثيوقراطية والدكتاتورية والإمبراطورية واليمين واليسار والمحافظين والليبرالي والإمبريالي والأحرار والأرستقراطية... كلها مصطلحات أوربية ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن

ذلك الوسط الإجتماعي والظروف التاريخية والثقافية التي لابست نشوء هذا المصطلح أو ذاك، وأن كل كلمة لها معنى ورصيد عند أهلها، ولابد من ضبط اللفظ والمعنى بما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، فلا يصح الترويج لها في بلاد المسلمين ولا حتَّى إضافة الإسلام إليها كالديمقراطية الإسلامية، فهذا مما يروج للفظ الديمقراطية (بمضمونه عند أهله) ويُحببها للنفوس مع ما تحمله من خراب ودمار.

[٧] الإبتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الإستقراء:

ومن جملة هذه القواعد المهمة التي تُراعي الإبتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء، فمثلاً لا يصح أن نقول: إنَّ أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرة عثمان بن عفان ﷺ أو رغبوا في قتله، كما لا يجوز أن نأتي إلى مجتمع من المجتمعات أو عصر من العصور، فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة، أو حتَّى مئة من الشعراء الماجنين، فنقول: إنَّ هذا العصر عصر مجون وتهتك وخلاعة، أو أن نَصِف أُسرة كأسرة بني أمية بأنها كلها ظالمة، أو نقول: إنَّ فرقة المُرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقون؛ لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيِّرين أو العوام، أو المجتهدين المتأولين، غير أنَّ الحكم يكون للغالب.

فلا شك أن كتابة التاريخ أمانة تتطلب مراعاة هذه القواعد حتَّى يسلم من التشويه والتزييف.

تشويه التاريخ

لهدم الخلافة الإسلامية

نحن بحاجة لدراسة التاريخ دراسة صحيحة، بعيداً عن التزوير والتشويه، الذي تمَّ على أيدي الملاحدة والزنادقة؛ بغرض إبعاد الأمة عن دين ربها، وقطع الطريق لعودة الخلافة الإسلامية، حرص أعداء الإسلام على قلب الحقائق والنظر في معاني التاريخ بعين حاقدة، صوروا الخلافة العثمانية على أنها خلافة فقر وجهل ومرض، وأنها كانت استعماراً للأمة العربية، وتناسوا أن هذه الخلافة هي التي حمت هذه الأمة من الهجمات الأوربية طيلة أربعة قرون.

ووقف السلطان عبد الحميد – وهو آخر سلاطين الدولة العثمانية – في مواجهة الإغراءات اليهودية السَّخية لإقامة دولة لهم في فلسطين، فقد رفض (٥٠) مليونًا ذهبية، عرضها عليه هرتزل، ومن بينها مليون لخزانته الخاصة، وقال – رحمه الله – لهرتزل: «إنَّ الدولة العلية لا يمكن أن تختبئ وراء حُصون بُنيت بأموال أعداء المسلمين» وأوضح له أنَّ أرض فلسطين فتحها عمر ﷺ وأنها ملك للمسلمين، لا يحق لأحد أن يتصرف فيها ..

فكان جزاؤه – رحمة الله عليه – أن أطاح به اليهود، حيث وجدوه عقبة في سبيل إقامة دولتهم اليهودية، ولم يعدموا بعد ذلك صوراً هزيلة تبيع البلاد والعباد، وصار من لا يملك يُعطي من لا يستحق.

لقد تابع الجهال أعداء الإسلام والمسلمين في تشويههم الخلافة العباسية والأُموية، صوروا تاريخ المسلمين على أنه ثورات وحروب، قتل وخيانة ومؤامرة، واشتهرت خلافة هارون الرشيد في حسٍّ العامة، بأنها خلافة رقص وغناء، قصور وجواري وخمور!!، وفي ذلك يقول الخميني في كتاب «الحكومة الإسلامية» (ص١٣٣): «وها هو التاريخ يُحدثنا عن جُهَّال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة، هارون الرشيد، أيّة ثقافة حازها؟ وكذلك من قبله ومن بعده».

ولابد من إنصاف هارون الرشيد؛ فالعدل أساس الملك، وبه قامت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة: ٨] لقد كان هارون الرشيد يغزو عامًا ويحج عامًا، وكان يُخاطب السحابة، ويقول: «سيري أينما شئت أن تسيري، فسيأتيني خراجك» وكثرت الفتوحات في عهده، واتسَّعت رقعة هذه الأمة.

بل كتب لنقفور ملك الروم يقول له: «أما بعد، فمن هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، فإنَّ الأمر ما ترى لا ما تسمع».

لقد كانت عزة إيمانية، افتقدناها في عصورنا المتأخرة، ومهما قيل في حق هؤلاء، فقد كانوا يُطبقون شرع الله، والهفوات أو الجنايات التي بدرت منهم سيسألون عنها بين يدي من لا تخفى عليه خافية، ولا يصح تحميل أخطاء البشر - سواء كانوا حكامًا أو محكومين - على دين الله جلَّ وعلا، فكل امرئ بما كسب رهين، ولا تزرُ وازرة وزر أخرى، وكما قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)** ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقد انتصب علماء الأمة، يردون الحكام قبل المحكومين، لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، وشواهد ذلك كثيرة، كما في موقف الإمام أحمد من المأمون، وسعيد بن جبير مع الحجاج بن يوسف الثقفي، وأبو حازم مع سليمان بن عبد الملك.

ومن طالع كتب التاريخ سيجد أنَّ محاولات الدس والتشويه لم تقتصر على هؤلاء، بل تعدتهم إلى صحابة النبيّ ﷺ الذين اصطفاهم ربنا لصحبة خير البرية صلوات الله وسلامه عليه، فنالهم من الطعن والتجريح، ما يكفي لهدم الدين، وانصراف الدنيا عنه، لولا أن الله تعالى تكفل بحفظه، وحفظ من يقوم به، صوروا الصحابة الكرام على أنهم طلاب دنيا، لا همَّة عندهم إلاَّ في المحافظة على كراسي الحكم، حتَّى وإن تأدى بهم ذلك إلى الخداع والقتل، وهم لأجل ذلك

رفعون المصاحف على الأسنة، ويقول أبو موسى الأشعري: أنا أخلع عليًا كما خلع خاتمي هذا، فينتهزها عمرو بن العاص، فرصة وكان داهية - كما يصفونه - فيقول: وأنا أُثبت معاوية - أي في الحكم - كما أُثبت خاتمي هذا.

لقد نال معاوية رضي الله عنه من صور الطعن والتجريح، يقول الخميني عن معاوية: «وقد حدث مثل ذلك في أيام معاوية، فقد كان يَقْتل على الظنة والتهمة، ويحبس طويلاً، وينفي من البلاد، ويُخرج كثيراً من ديارهم بغير حق، إلاَّ أن يقولوا: ربنا الله».

ثم يقول: «ولم تكن حكومة معاوية تُمثل الحكومة الإسلامية من قريب ولا بعيد» !!.

إنَّ معاوية رضي الله عنه هو أعظم ملوك الإسلام، كما وصفه الإمام ابن كثير، وهو شمس سطعت على الدنيا بعد شموس أربعة - أي الخلفاء الراشدين - ملأت الدنيا ضياءً، فخفت ضوء شمس معاوية بجوار الشموس الأربعة، كما ذكر ابن العربي في كتابه القيم «العواصم من القواصم».

ومعاوية هو أخو أم حبيبة - أم المؤمنين - رضي الله عنهما وهو خال المؤمنين، وهو أحد كتَّاب الوحي، تولَّى الإمارة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اختلف مع عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأصاب عليٌّ وأخطأ معاوية رضي الله عنهما وكان معاوية هو ولي دم عثمان، وقد وافق اجتهاده اجتهاد أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ﷺ في الجنة، وكانوا يرون ضرورة تعجيل القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، ورأى علي أنَّ القصاص حق، ولكن ظروف الأمة لا تسمح بذلك، وكان يحتضن معاوية رضي الله عنهما، ولم يزد على قوله: إخواننا بغوا علينا، وقال: قتلاي وقتلى معاوية في الجنة، وكان في كلا الفريقين أناسٌ ممن شهد بدرًا، «**وكأن الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» [رواه البخاري ومسلم].

إنَّ الواجب علينا أن نُمسك عما حدث وشَجَر بين صحابة رسول الله ﷺ، ونترضى عليهم، فهم خيار أولياء الله المتقين، ولا نسمح بالطعن فيهم؛ فكل صحابي أفضل من كل من جاء بعده، كما يقول الإمام النووي، وكلهم عدول، وجهل أحدهم لا يضره، كما هو مقرر في علم الرجال، وبالتالي فليعرف كل منّا قدره، وليلزم حدَّه، ولا يتطاول على الأكابر والأفاضل الذين هم نقلة الشريعة.

كان أيوب السختياني يقول: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من صحابة رسول الله ﷺ، فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا؛ ليعطلوا العمل بالكتاب، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة».

نحن نرفض الطعن في صحابة رسول الله ﷺ، ونُبغض ونُعادي من صنع ذلك، كما نرفض اختزال التاريخ الإسلامي في الخلاف الذي حدث بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، فإذا ما قلنا: لابد من العودة لدين الله، ردوا علينا وقالوا لنا: هل تطلبون العودة للخلافة العثمانية وخلافة هارون الرشيد، وللخلاف بين عليٍّ ومعاوية.

ومن طالع كتب التاريخ التي تُدرس لأبناء المسلمين في الكثير من البلدان، وجدها قاصرة على هذه المسائل المشبوهة المُزوَّرة، التي تلقَّفها الجهال عن المستشرقين وغيرهم دون تمحيص.

لقد ثبت فضل الصحابة بيقين وقطع، قال تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١٠٠) ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي الحديث المتفق عليه: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» وورد في الخبر: «**أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه**» [رواه مسلم].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوبًا،

وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفًا، اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه» .

إن معاني التاريخ بحاجة لإعادة صياغة؛ فالمنهج الإسلامي في تفسير الحوادث مستقل عن كافة المناهج الوضعية، ويتميز عليها باستمداده من المصادر الشرعية - الكتاب والسُّنَّة -، والعلماء المسلمون عرفوا هذا المنهج في تفسير التاريخ، والنظر إلى حوادثه، وقد استفادوا من طريقة القرآن في عرض الأحداث التاريخية، ودعوته إلى إدراك السُّنن والإفادة من التجارب البشرية السابقة، إن لم يفردوا ذلك بمؤلفات مُستقلة، حيث كانت الصورة واضحة في أذهانهم عن الهدف من دراسة التاريخ.

وبينما القارئ في العصور الإسلامية الأولى لديه من الفهم لعقيدته وإسلامه، وإدراك مقتضياتهما ما يجعله يُدرك الحق من الباطل، وكانت لديه المقدرة على وزن الأمور والأحداث بميزان الكتاب والسُّنة، إلاّ أنه شوهد الإنحسار في مفهوم الإسلام في العصور المتأخرة، حيث حُصِر في شعائر التَّعبد من الصلاة والصوم والحج، وفُصل بينه وبين الحياة في الواقع العملي في كثير من بلاد المسلمين مع محاولة التأصيل الفكري لهذا الإنحراف بنشر الأفكار العلمانية، وتحريف التاريخ الإسلامي، وتفسيره وفق المناهج الغربية .

لقد وُجدت مذاهب كثيرة لتفسير التاريخ، وبعض هذه المذاهب أعطى التاريخ أهمية أكبر من حجمه الحقيقي، بل قد جعلوه مصدر الإلهام، وطلبوا منه إعطاء التصور عن الكون والحياة والإنسان، وتفسير الطبيعة - كما يقولون - فأدَّى بهم خطأ التصور عن التاريخ إلى أن وضعوه في منزلة الإله الذي يُتلقى منه نظام الحياة والتصور الصحيح عن الكون والإنسان، ويُسْتفتى في حل المشكلات، وساهمت المدرسة الإستشراقية في هذه اللوثة لأبعد حد، فإذا رجعنا إلى التفسير الإسلامي، وخصائصه وجدنا صحة التصور والواقعية والتوازن والشمول والصدق.

إنَّ المؤرخ يجب أن تتوافر فيه شروط:

العدالة والقدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات، والعلم بأصول الأحكام الشرعية، وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، وبمدلولات الألفاظ ومواقعها مع مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم، ولابد من الضبط لما يراه أو يسمعه، وتجنب الغرض والهوى، وأن يكون حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه، جيد العبارة، عفّ اللسان عن المنكر من القول.

أما بالنسبة للرواية:

فلابد من اعتماد اللفظ دون المعنى، وذلك بأن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه، وأن يُسمي المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته، وأن يكون نقله مضبوطًا .

وفي الحديث: «**إيَّاكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**» [متفق عليه]، وورد: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع**» [رواه مسلم].

لابد من إحسان الظن بعلماء الأمة وصالحيها، وحمل تصرفات المسلمين على أحسن محاملها، فالأصل البراءة، والتهمة تتطلب بيّنة أوضح من شمس النهار، والمسلم يتلمس للناس المعاذير، أمَّا المنافق فهو الذي يتلمس الزلات، والعبد إذا كثر خيره وصلاحه كان إلى العفو أقرب.

إنَّ الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة؛ ولذلك كان لابد من نقل العدول الثقات، فالقول في الأحكام الشرعية، وفي النظم الإسلامية، وفي تقدير رجالها وتاريخها لا يُؤخذ إلاَّ من المسلم العارف الثقة، أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولخلافه لو خالف.

لابد من وقفة حق وكلمة صدق نذبّ بها عن تاريخ هذه الأمة، وعن أعراض هؤلاء الأفاضل، ونرد بها الحق إلى نصابه، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

توثيق التراث (١)

مفهوم العلم ومحتواه:

العلم ضد الجهل وقد وقع خلاف طويل في وضع حد له كما يقول الزبيدي، حتى قال جماعة: إنه لا يحد لظهوره وكونه من الضروريات، وقيل: لصعوبته وعسره.

والعلم من وجه ضربان: نظري وعملي. فالنظري هو الذي إذا علم فقد كمل، نحو العلم بموجودات العالم. والعملي: هو الذي لا يتم حتى يعمل به، كالعلم بالعبادات وكافة الأوامر الشرعية.

والعلم من وجه آخر شرعي وغيرشرعي، وإذا ورد مطلقا في الكتاب أو السنة فإنما يراد به العلم الشرعي مثل قوله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٦]، ومثل قوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» [رواه ابن ماجه]، وقوله فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» [رواه مسلم].

فلفظ العلم في هذه الآيات والأحاديث يراد به العلم الشرعي أو ما يكون خادمًا وموصلا للعلم الشرعي كعلم العربية.

والعلم قد يكون نافعًا وقد يكون ضارًا، كما قد يكون حقًا وقد يكون باطلاً.. فالذي يرد في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو في كلام السلف في سياق المدح والحث على طلبه هو العلم الشرعي والعلم النافع والعلم الحق. أما غير ذلك فقد يكون ضارًا أو غير نافع لأصحابه عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي» لمحمد بن صامل العلياني.

[النجم: ٢٩، ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾ [غافر: ٨٣]، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن عندهم علمًا ولكنه لم ينفعهم، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: « **اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملاً متقبلاً** » وكان يقول في دعائه: « **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها** » [رواه مسلم].

فالعلم الذي يطلب من العبد تعلمه سواء على سبيل الوجوب أم الإستحباب هو العلم النافع الذي يوصل إلى الحق ويبعد عن الضلال والباطل.

وأشرف العلم ما كان دالاً على الله سبحانه وتعالى وموصلاً إلى معرفته وتوحيده، يقول الإمام ابن القيم: « إن العبد لو عرف كلّ شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه الأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين ».

والعلم النافع هو الذي يتوصل به إلى عبادة الله سبحانه وتعالى حسب مفهوم العبادة الشامل كما وضّحه قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٦٢﴾ **لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. فالعبادة حسب المفهوم القرآني منهج حياة كامل شامل، فهي تشمل إلى جانب شعائر التعبد من الصلاة والصيام والذبح لله، الحياة كلها، بل والممات، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى الغاية من خلقه للجن والإنس، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [النساء: ٣٦].

فالعلم إذا لم يكن مؤديًا إلى هذه الغاية في وسائله وأهدافه ونتائجه لا يعتبر علمًا نافعًا، بل إذا اجتمع في العلم خير وشر ولم يمكن حصول الخير إلا بوجود

الشر فإنه يُغلّب جانب الحظر والمنع عملاً بالقاعدة الشرعية الأصولية « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

وإذا كان العلم في ذاته غير ضار ولكنه يكون وسيلة إلى محظور وممنوع شرعًا فإنه يترك لكونه يؤول إلى المحرم شرعًا، والوسائل تأخذ حكم الغايات، وقاعدة سد الذرائع من قواعد الشريعة الواجبة الإعمال في مثل هذه المواطن.

فإذا تقرر أن الغاية الأساسية لحياة المسلم هي تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى وذلك بإقامة منهجه في الأرض وتحكيم شريعته كما هو مقتضى شهادة أن لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فإن كل علم يؤدي إلى هذه الغاية ويتعلق بهذا الهدف هو علم مطلوب وواجب على الأمة تعلمه وجوب كفاية، وقد يكون منه ما هو واجب عيني كمعرفة التوحيد وأحكام العبادة، والأمة تأثم بعمومها إذا لم يتوفر العدد الكافي من أبنائها لسد حاجاتها من المختصين في أي فرع من فروع العلم اللازم لها.

وينبغي الإنتباه إلى أن فساد المنهج الذي يتلقى به العلم يؤدي إلى فساد الثمرة المرجوة من العلم، فلابد من استقامة المنهج العلمي لكي نحصل على ثمرة العلم وفائدته، وهذا أمر واضح في كثير من الدراسات التاريخية المعاصرة بسبب تشويه المنهج العلمي فيها أو بسبب سوء القصد في القائمين عليها أو بسبب الجهل بالشريعة.

لذا يجب على طالب العلم اتباع المنهج العلمي السديد الذي يؤدي إلى الثمرة المطلوبة من العلم، وهذا يحصل بإخلاص النية والقصد لله سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته وبتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، قال الفضيل بن عياض في معنى قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢]: « أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ».

وعلى هذا دلّ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وذلك أن طلب العلم النافع عبادة من العبادات وقربة من القرب التي يتقرب بها العبد من ربه.

وهناك تلازم بين العلم والعمل، فالعلم لازم لصحة العمل، والعمل لازم للحصول على ثمرة العلم، قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩]

وقد بوّب الإمام البخاري - رحمه الله - على هذه الآية في صحيحه بقوله: «باب العلم قبل القول والعمل» فالعلاقة بين العلم والعمل في القرآن الكريم وثيقة جداً كما أن لفظة العلم في القرآن والسنة ليست قاصرة على مجرد العلم بمعنى المعرفة، بل تشمل العلم والعمل معاً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وليس المقصود بالعلماء هنا أولئك الذين يعلمون لمجرد المعرفة ولا يعملون بل الذين عملوا بما علموا وما الخشية التي حصلت منهم إلا ثمرة العمل بالعلم.

يقول الدكتور محمد أمين المصري: «إن شأن العلم أن يستلزم الإيمان، والإيمان يستلزم العمل، فإن لم يكن هنالك عمل كان العلم ناقصاً وكان الإيمان مختلاً، فلقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين لا يعملون بعلمهم، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٥]، فالآية تعطي صورة حية ناطقة لمن لا يعمل بعلمه، وتشير إلا أن من العلم ما يخالط القلب ويمازج أجزاء النفس ومنه نوع يدخل إلى النفس لكنه لا يؤثر فيها ولا يتأثر بها بل يبقى كسقط المتاع في زاوية من زوايا النفس، وهذا أكبر من الجهل لأن صاحبه يخدع الناظر إليه ويخدع نفسه فهو في ثوب العلماء ونفسه تنطوي على جهالة عمياء».

وقد ذم رسول الله ﷺ الذي يطلب العلم لغير العمل به كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» [أخرجه أحمد والحاكم] فكل سعي المسلم يجب أن يبتغي به وجه الله حتى لا يكون يوم القيامة هباءً منثوراً كعمل الكفار الذين لا يؤمنون بالله.

ولقد جاءت النصوص الكثيرة المنقولة عن الصحابة ﷺ وغيرهم من علماء السلف في الربط بين العلم والعمل وأن العلم يقتضي العمل، وذلك منهج من مناهج حياتهم، ولهذا كان فهم السلف للعلم فهمًا يتميز بالشمول ويقترن بحاجات الأمة ومصالحها، ولم يكن أخذهم بالعلم للتزين والتجمل به، أو الأخذ الترفي المفصول عن الواقع أو التلقي الذهني البارد المجرد عن العمل والحركة، بل كان متسقًا مع آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقوله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

فالله يدعونا في هذه الآيات وغيرها إلى السير في الأرض وعمارتها وإلى النظر فيها نظر تدبر وتفكر يؤثر في النفس وتنعكس آثاره في السلوك، ولم تفصل الآيات بين العلم والعمل ولا بين الدنيا والآخرة وإنما كل ذلك ينبغي أن يعتني به ويعمل له شريطة أن يكون وفق منهج الله وشريعته؛ لأن هذا هو مقتضى شرط الإستخلاف الذي أعطي لأبينا آدم عليه السلام ولذريته من بعده، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وتلقي الهدى منه.

والعلم لا خير فيه إن لم ينبني عليه سلوك مستقيم ويورث في النفس عملاً صالحًا، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن الناس أحسنوا القول كلهم فمن وافق عمله قوله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه».

وقال أبو إسحاق الشاطبي بعد أن ساق قول ابن مسعود الآنف وغيره من أقوال السلف: «والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصوداً بنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به».

وقال الحسن البصري في معنى قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]: «علمتم فعلمتم ولم تعملوا فوالله ما ذلكم بعلم».

وقال سفيان الثوري: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»، وقال الفضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالمًا» وبهذا يتضح بطلان المنهج الجاهلي القائم على قاعدة «العلم للعلم» و«الأدب للأدب»، و«الفن للفن» ونحوها، والتي تعني تجريد العلم عن العقيدة والتصور، وتفصله عن العمل والثمرة، وترسم للبحث العلمي دائرة مستقلة لا دخل للعقيدة والدين أو الغايات النبيلة فيها، مع أن هذه العبادة خاطئة من الناحية الواقعية إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل شيئًا إلا وهو مدفوع بغرض معين خارج عن مجرد العمل.

وفي ظل هذا المنهج لا حرج على الإنسان أن يتعلم أو يبحث في أي شيء ولو كان حرامًا ضارًا أو عقيمًا لا خير فيه ولا غاية سامية له.

وقد نشأ هذا المنهج في ظروف تاريخية خاصة بأوروبا الشاردة من طغيان الكنيسة ورجالها الذين كانوا يفرضون على الناس اعتقاد ما يملونه عليهم من الخرافات والتأويلات المحرفة، ويعاقبون كل من وصل إلى نظرية مخالفة أشد

العقاب وإن كانت حقًا في ذاتها أو مما جعل الله تعالى شأنه موكولاً إلى الجهد البشري والتجربة البشرية.

ضوابط منهج العلم:

في المبحث السابق حاولنا تحديد مفهوم العلم في الشريعة الإسلامية والتعرف على بعض الشرائط الواجب ملاحظتها ليكون العلم نافعًا ومفيدًا، وفي ظل هذا المفهوم للعلم نحاول تحديد الضوابط التي يتقيد بها المنهج العلمي.

والمصدر الأول للمعرفة في التصور الإسلامي هو الوحي الذي يبلغه الله لرسول من رسله، فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران اللذان يرجع إليهما في ضبط الموازين والقيم، ومعرفة الحق من الباطل، والحكم على معطيات العلوم ونتائجها، نقلية كانت أم عقلية فهما مصدر الحق في هذا الوجود، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)**﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)**﴾ [النحل: ٨٦].

فالوحي الرباني هو المصدر المأمون الذي يتميز بالثبات والشمول ويقدم التفسير الشامل للحياة والكون والإنسان وحقيقة الألوهية والعبودية؛ لأنه كلام رب العالمين العليم الخبير المطلع على كل شيء والمبرأ مما يعتري البشر من القصور والظلم والجهل وسوء الفهم والإرتباط بالمصلحة وبالبيئة التي نشأ فيها والتربية التي تلقاها، والمفاهيم والتصورات المتوارثة، فهو الله سبحانه الخالق لكل الخلق وهو أعلم بهم وبما يصلحهم، وقد وضع هذا المنهج في كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ.

فما دام الوحي بهذه الصفة من التكامل والشمول والعدالة، فإنه لابد للمسلم أن يتخذه منهجًا وميزانًا يزن به القيم والأحداث ويضبط به التصورات والمفاهيم ويتخذه حكمًا في هذه القضايا يرجع لحكمه ويتلقى منه.

فلقد وضع الإسلام ضوابطًا لمنهج العلم وتلقيه كما وضع ضوابط لأدوات العلم والمعرفة، فالعقل والسمع والبصر أدوات زود الله بها الإنسان ليحصل عن طريقها على المعرفة، فهي أدوات لا مصادر مستقلة للمعرفة، واعتبار أن الوحي الرباني هو المصدر الذي يرجع له لضبط المعرفة، هو أهم قضية عاشتها الإنسانية، وبسبب الإختلاف فيها وقعت البشرية في حيرة واضطراب واختلاف شديد.

ولو اتفقت البشرية على ميزان موحد لضبط العلم والمعرفة لما وقع بينها هذا التباين الشديد في الاتجاهات والمناهي والمذاهب التي لا توجد بين أغلبها قواسم مشتركة أو نقاط التقاء. وإلا فوقوع الإختلاف من طبائع البشر تبعًا لاختلاف المفاهيم والقدرات حتى داخل المذهب الواحد.

والبشرية إذا لم يكن لها منهج موحد ترجع له عند الإختلاف، وتزن مفاهيمها ونتائج أبحاثها بميزانه، فإنها ستختلف ويشتد اختلافها، فمثلاً في المجال التاريخي نجد أن الروايات والمصادر تتفق على حدث تاريخي معين رغم اختلاف أديان أو مذاهب الرواة، لكنها لا تتفق في تفسير هذا الحدث وفلسفته؛ لأنه في رواية الخبر التاريخي وتدوينه ينقل الراوي ما شاهد أو ما سمع، وتتفق الروايات إذا كان الرواة صادقين، أما في فلسفة هذا الخبر وتحليله فإن كل شخص يأتي بتفسير بناء على مفاهيمه وعقيدته وبيئته التي تربى فيها، فإذا لم يكن هناك مصدر موحد يرجع له في ضبط المفاهيم والأحكام والتفسيرات فستبقى البشرية في اختلاف شديد.

وأشد أنواع الإختلاف اختلاف المناهج والتصورات والقيم، وأن الإهتداء بهدي الكتاب والسنة في منهج الكتابة التاريخية يعود على البحث والباحث بكثير من الفوائد.

- فإنه يورث للباحث جدية في العمل وصفاء في الفكر واهتمامًا بالكليات والأصول ويبعده عن الإغراق في الجزئيات والفروع التي تستغرق جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً في مناقشات قد لا تكون ذات قيمة.

- كما أنه يوجّه الطاقات والقوى إلى جذور القضايا وأمهات المسائل وبشكل حاسم، ويتضح ذلك فيما قصه القرآن الكريم من تاريخ الرسل والأمم السابقة، كما أن من ثمرات ذلك النظر في سنن الله في الأنفس والآفاق والتأمل في أحوال الأمم عبر التاريخ وما وصلت إليه من الرخاء والتقدم وما انتهت إليه مصائرها وأسباب ذلك التقدم وعوامل هذا الإنهيار، قال تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ⑪ ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ⑩ ﴾ [محمد: ١٠] وقال: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ⑬⑦ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].
- ومن ثمرات ذلك أن يكون سعي الإنسان في طلب الأحسن والأقوم والأخذ به هو هدفه ورائده كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ⑱ ﴾ [الزمر: ١٨].
- ومن نتائج ذلك اهتمام الباحث بالقضايا الكبرى للأمة وأن يعمل جهده فيما يؤدي إلى رقيها وتقدمها، وبذلك تكون أبحاثه ودراساته مما يمس واقع الأمة واحتياجاتها الفعلية، وهذا أمر حيوي ولا غنى للباحث عن مثل هذه الدراسات وإلا كانت أبحاثه من باب الترف العلمي المجرد الذي يستهدف إشباع غريزة حب الإستطلاع وحب الظهور.
- كما أن الإستمداد من المصدر الرباني يؤدي بالإنسان إلى الإبتعاد عن الظنون والأوهام وتخليص الفكر من كل المبادئ والمعتقدات التي قامت على الظن أو التقليد وعلى الأفكار والتصورات الجاهلية.
- أضف إلى هذا ما يوفره الإعتماد على الكتاب والسنة من الإبتعاد عن مصطلحات المتكلمين ومذاهبهم المختلفة وكافة المصطلحات الأجنبية ذات المفاهيم المرتبطة بالوضع التاريخي المحلي الغريب عن تاريخنا، وذات المعاني غير المنضبطة والتي تحجب الرؤية الصحيحة عن القارئ.

فمصطلحات مثل الديمقراطية، الإشتراكية، الإنسانية، المساواة، الحرية، الوطنية لها دلالات ومفاهيم مرتبطة بقيم وتصورات المجتمع الذي نشأت فيه، ونقلها إلى ثقافتنا الإسلامية وتاريخنا يعطي أحكامًا مضللة، والمؤرخ ينبغي له أن يسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية وأن يحكم عليها حسب الميزان الشرعي.

وكما أن المنهج الإسلامي قد وضع ضوابط لمنهج تلقي العلم ولوسائل التلقي فإنه أيضًا وضع ضوابط محددة في من نتلقى منه العلم؛ فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم» [رواه مسلم] فنظرة المسلم إلى العلم على أنه عبادة من العبادات توجب عليه الإحتياط والتثبت في تلقي العلم وأن لا يأخذ إلا عن الثقات في دينهم وعقيدتهم خاصة فيما يختص بحقائق العقيدة أو التصور العام للوجود أو بالخلق والسلوك أو القيم والموازين أو النظم الإسلامية أو ما يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني أو بحركة تاريخية، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى العلم في هذه الأمور إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه.

أما غير المسلم فلا يؤخذ عنه العلم في هذه الأمور ولا كرامة، بل لقد حذرنا الله أشد التحذير عن الأخذ والتلقي من الكفار بكافة طوائفهم ومللهم وبيّن لنا مصدر الهدى الذي نتلقى منه، فقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩].

فهذه الآيات إخبار من الله تعالى عن موقف الكفار من الأمة الإسلامية وتحذير لنا من الركون إليهم أو حتى إحسان الظن بمواقفهم تجاهنا، بل إنها تستجيش فينا مشاعر الحمية للحق وتوقظ قلوبنا وتدعوها للحذر الشديد أثناء التعامل معهم وعدم الطمأنينة لهم وهذا هو مقتضى الولاء والبراء الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» [رواه الطبراني والحاكم].

وموقف الكفار هذا من المسلمين لم يكن في فترة تاريخية من الزمن ثم تنتهي بل هو موقف ثابت دائم ما داموا على الكفر وما دمنا على الإسلام، كما هو دلالة الآيات السابقة ودلالة الوقائع التاريخية عبر الزمن المتطاول منذ أن كان هناك كفر وإيمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. لأن من طبيعة الفسق أنه لا يقبل بوجود الحق ولا يستطيع المعايشة معه كما قال تعالى: ﴿**هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩]، فطالما أن هذا هو موقفهم وهذه هي توجهاتهم نحو الأمة المسلمة فإن كل مسلم عاقل يحترم عقله ودينه لا يقبل التلقي منهم في أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ولا منهج تاريخه ولا نظام حكمه أو سياسته أو مجتمعه وعاداته وتقاليده.

يقول وليم جيفور بالكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه». ويقول المبشر تكلي ما ترجمة نصه: «يجب أن نشجع إنشاء المدارس وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي، وإن كثيرين من المسلمين تزعزع اعتقادهم حين تعلموا اللغة الإنجليزية وإن الكتب المدرسية الغربية تجعل الإعتقاد بكتاب شرقي مقدس - يعني القرآن - أمراً صعباً»، فهذه نماذج من شهاداتهم وخططهم التي يعدونها لإخراج المسلمين عن دينهم، فهل يحق لنا بعد هذا أن نأخذ عنهم ونثق فيهم...

ثم هم جهلاء لا علم عندهم في هذه الأمور التي ذكرناها وذلك بشهادة الله رب العالمين وتقريره ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)** ﴾ [الرعد: ١٩]، فيقرر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذين لا يستجيبون للحق هم عمي وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون، وأن الذين يستجيبون له هم أولوا الألباب الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله.

وأن الإنسان ليجد مصداق ذلك في كل من يلقاه من الناس معرضًا عن هذا الحق، وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عميا كما قرر الباري جلّ جلاله فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتلقى العلم ويأخذه عن مَنْ هذه صفته وبخاصة إذا كان ذلك العلم متعلقًا بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان أو القيم والموازين التي تقوم عليها الحياة، أو بالسلوك والتقاليد والآداب التي تسود المجتمع المسلم، وهذا هو موقف المسلم من نتاج الفكر غير الإسلامي بجملته فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية، وأنه لا ينبغي لمسلم يعرف هدى الله ويعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ أن يقصد مقعد التلميذ الذي يتلقي من إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق، وأن هذا الدين جدٌّ لا يحتمل الهزل، وحزم لا يحتمل التميع وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة.

وهذه الضوابط لمنهج العلم وكيفية تلقيه وفي من يتلقى منه العلم توجب علينا الإشارة إلى بعض أهداف تعلم العلم والوسائل المؤدية إلى ذلك.

أهداف تلقي العلم:

في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**.. الحديث» [البخاري ومسلم]

لما كان مدار الأعمال على المقاصد والغايات فإن النية تصحح العمل أو تفسده ولذا وجب أن يرتبط تلقي المسلم للعلم بهدف محدد وغاية واضحة،

وأن يحاول تحقيق شرطي العمل الصالح فيما يتعلمه وهما: الإخلاص، والصواب. فالإخلاص أن يبتغي الإنسان بعمله وجه الله وحده، ولذا جاء في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» [رواه مسلم]، أما الصواب: فهو متابعة الرسول ﷺ ولزوم سنته ودليله الحديث الصحيح الذي روته عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» [رواه مسلم].

ولقد مرّ بنا في مبحث مفهوم العلم طائفة من أقوال علماء السلف الصالح حول فهمهم لمعنى العلم وأنه يقتضي العمل وأن العالم لا يكون ربانيًا حتى يعمل بما علم.

قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)** ﴾ [آل عمران: ٧٩]

ذلك أن تلقي العلم للعمل به يثير في نفس المتعلم الحماس والإستعداد فيستنفر كامل طاقات نفسه ومواهبها، وبذلك يكون فهمه للأمور واستيعابه أكثر، فضلاً عن استظهاره للنصوص وحفظها للإستشهاد بها عند كل مسألة، وهذا الأثر لمنهج التلقي واضح في حياة السلف ومؤلفاته، حتى كثر فيهم الحفاظ وصار ذلك من الألقاب الشائعة بينهم، وكان إتقانهم في الحفظ واستظهارهم للمسائل عجيبًا، ولعلّ هذا مكمن السر في إبداعهم وتأصيلهم للمسائل وشمول بحوثهم وتعدد تخصصاتهم وموسوعيتها رغم قلة الوسائل العلمية المتوفرة لهم.

ومن المعلوم أن كل فرع من العلوم يختص بأهداف محددة يسعى لتحقيقها، ومع ذلك فإن بالإمكان أن نلخص الأهداف العامة التي يتوخاها المسلم في تلقيه للعلم على عموم المصطلح وشموله ويتمثل ذلك في معرفة أحكام الشريعة: أوامرها ونواهيها، حلالها وحرامها، والعمل بذلك ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة.

كما يتمثل ذلك في إعداد الإنسان المؤمن الذي يعرف وظيفته ودوره في

هذه الحياة وذلك بتنمية مواهبه واستعداداته وتوجيهها التوجيه السليم المتفق مع الفطرة ولتحقيق كامل إنسانيته بالعبودية لله وحده واتباع منهجه.

ومن أهداف العلم: التفكر والتدبر في الكون وما حواه من سماوات وأراضين وكواكب ونجوم وعوالم متعددة.. والنظر في السنن الربانية، وقوانين التآلف والإنسجام في هذا الكون، لمعرفة عظمة خالقه ومبدعه وعظيم منته على خلقه، وللإستفادة من ذلك في واقع الحياة واستمرار الخلافة في الأرض، كما أن من أهداف العلم الإطلاع على معالم تاريخ الأمة الإسلامية عبر الأزمان المتطاولة والمتمثل في تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من لدن آدم إلى محمد ﷺ مع معرفة مواقف الجاهليات تجاههم، فإن في معرفة ذلك عبرة وعظة كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

[يوسف: ١١١].

وسائل تلقي العلم:

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فمن نعمة الله سبحانه وتعالى أن زود الإنسان بهذه الوسائل والقدرات اللازمة لتلقي العلم والمعرفة.

ثم تفضل عليه مرة أخرى فعلمه ما لم يكن يعلم وأرسل له الرسل وأنزل معهم الكتب قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

وهكذا فالتعليم هبة من الله فهو الخالق لهذا الكون ولهذا الإنسان، وهو الواهب له هذه القدرات والوسائل، وهو الذي علّمه عن طريق رسله ما يصلح حياته ويقوّم فطرته ويمكنه من تحقيق عبوديته لله، ويبعده عن ضلالات البشرية وانحرافاتها المتمثلة في الأفكار والفلسفات والنظم الجاهلية التي قطعت صلتها بالله وكتبه ورسله.

وهذه الوسائل من السمع والبصر والفؤاد (العقل) مشتركة بين البشرية كلها مسلمها وكافرها لكن المسلم يتميز عن غيره بالمصادر الربانية التي تصحح له فكره واتجاهاته ويزن على هداها نتائج تجاربه وأبحاثه واستقراءاته وقياساته، كما يتميز عن غيره بأهدافه في تلقي العلم إذْ يسعى إلى مرضاة الله وتحقيق العبودية له وتطبيق المنهج الرباني في واقع الحياة، ولأجل ذلك فإن المسلم أقدر من غيره على استخدام وسائل المعرفة الإستخدام المثمر الصحيح الذي يوصل إلى نتائج علمية مستقيمة لأنه - مع توفيق الله له بسبب استقامته على أمر الله - يعرف كيفية استخدام وسائل المعرفة الإستخدام الصحيح وفق الوظائف التي خُلقت لها ويحافظ عليها ويصونها ولا يستعمل ما يؤدي إلى تعطيلها كلها أو بعضها، ولهذا جاء في الأثر: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**» [رواه الترمذي].

أما غير المسلم فإنه يتسبب بأعماله في تعطيل بعض هذه الوسائل فلا تؤدي وظيفتها كما ينبغي، يقول الله تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤]، وفي تفسيرها قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾**» [رواه أحمد الترمذي]

وقال تعالى عن اعتراف الكفار يوم القيامة بأنهم لم يستخدموا هذه الوسائل الإستخدام الصحيح: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠]، أي لو كنا نسمع سمع من يعي ونعقل عقل من يميز، ولذلك قال في الآية التي بعدها: ﴿ **فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١١﴾ ﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فهؤلاء لما عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها التي خلقت لها شبههم الله بالأنعام العجماوات، بل جعلهم أضلّ وأحطّ درجة ومنزلة، ذلك أنهم عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها الصحيحة وهي معرفة الخالق وإفراده بالعبادة ولزوم شريعته، والمعاصي - فضلاً عن الكفر - تحجب الرؤية الصحيحة حتى تنتكس المفاهيم والتصورات، فترى المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخرُ أسودُ مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**» [رواه مسلم].

ولقد ضبط العلماء المسلمون طرق الحصول على العلم سواء كان التلقي عن طريق السمع والرواية وهو النقل بدرجاته المعروفة، فالأخبار المتواترة والمستفيضة أوالآحاد سواء كان نَقَلتها ثقات أم ضعفاء، ولعلماء الحديث في هذا الشأن جهد بارع بلغ الغاية في التدقيق والتحقيق، وقد ضبطوا طرق التحمل ونقل العلم من جيل إلى جيل. أو كان التلقي عن طريق الإستنباط والنظر مثل السير في الأرض بقصد التدبر والتفكر والإطلاع على عجائب قدرة الله، ومثل إجراء التجارب للكشف عن القوانين العلمية، أو كان عن طريق الإستقراء والتتبع في محاولة للوصول إلى قواعد علمية مقننة، فكل هذه الطرق تؤدي للحصول على العلم والمعرفة، وينبغي ترشيد استخدام الوسائل التي زود بها الإنسان والحفاظ عليها باتباع المنهج الرباني الذي يصلحها وتحقق على هداه أقصى ما يمكن أن تحققه.

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية:

لقد اعتنى علماء السنة بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجا دقيقًا في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويفيد منه في دراساته التاريخية، والمصادر المهمة في هذا الشأن هي كتب «مصطلح الحديث» أو «أصول علم الحديث» وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦]، وفي السنة المطهرة في مثل قوله ﷺ: «**نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فربّ مبلغ أوعى من سامع**» [رواه الترمذي].

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت في الرواية واحتاطوا في قبول الأخبار «فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئًا وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها»، وكذا روى عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسى الأشعري.

وبناء على هذا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسني ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الإسناد أو علل المتون.

وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ وكتاب «معرفة علوم الحديث» لأبي عبد الله الحاكم المتوفي سنة ٤٠٥ هـ، و«الكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي

المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، و« الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » للبغدادي أيضًا، وكتاب « الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع » للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ و« علوم الحديث » لابن الصلاح المتوفي سنة ٦٤٣هـ وقد اشتهر باسم مقدمة ابن الصلاح.

فهذه الكتب تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال علي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل والإمام البخاري وأبي حاتم الرازي وأبي زرعة حيث تكلموا في الرجال وفي نقد المتون للأحاديث وبيان عللها، ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب البخاري ثلاثة كتب هي « التاريخ الكبير » و« التاريخ الأوسط » و« التاريخ الصغير »، وابن أبي حاتم دون كلام أبيه وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم « تاريخ ابن معين » وكذلك ابن حنبل مروي عنه كتاب « العلل »، و أيضًا علي بن المديني له كتاب في « علل الحديث ». وقد كتب كل من خليفة بن خياط ومحمد بن سعد كتابًا في الطبقات كما كتب ابن حبان كتابًا في الثقات وكتابًا في المجروحين من المحدثين.

وأيضًا كتب الخطيب البغدادي كتابًا جامعًا في أسماء العلماء والرواة الذين نشأوا في بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية، كما كتب ابن عساكر كتابًا مماثلاً سماه « تاريخ دمشق »، وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة مثل « الكمال في أسماء الرجال » لعبد الغني المقدسي وتهذيبه للحافظ المزي، و« تذهيب التهذيب » للحافظ الذهبي و« تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر، وقد خصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة، ومن أكثرها تداولاً كتاب « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » للذهبي وكتاب « لسان الميزان » لابن حجر العسقلاني.

فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكره - لأننا لم نقصد الاستقصاء - لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها ومعرفة صحيحها من سقيمها، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل «السيرة النبوية» لابن إسحاق و«مغازي الواقدي» و«فتوح البلدان» للبلاذري و«فتوح الشام» لأبي إسماعيل الأزدي و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم، وكتاب تاريخ خليفة ابن خياط، و«الأخبار الطوال» للدينوري و«تاريخ الأمم والرسل» لابن جرير الطبري و«جمهرة النسب» للكلبي و«نسب قريش» لمصعب الزبيري، أو كانت مصادر ثانوية فإنهما تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف، فهي مصادر في المعلومات التاريخية، وليست مصادر في نقد الأخبار.

مفهوم البحث العلمي:

البحث العلمي هو المسلك الذي يتخذه العالم تجاه طائفة معينة من الظواهر أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، أما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا أو من أجل البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون.

وقال بعضهم في تعريفه: «هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة».

ويذكر أحد الباحثين أن هناك مصطلحين متقاربين هما: الأسلوب العلمي ومنهج البحث العلمي، فالأول: الإطار الفكري الذي يعمل بداخله عقل الباحث، والثاني: يعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري.

فظهر من هذه التعريفات أن مفهوم البحث العلمي يعني طريقة الإستدلال والإستنتاج وترتيب الأدلة والموازنة بينها للتوصل إلى الحقائق العلمية.

فهو أصول وقواعد مقننة تهدف إلى ضبط المعرفة وترتيب مباحث العلم، والمناهج المعروفة في البحث العلمي ترجع بالنظر إلى طريقة البحث إلى نوعين:

- منهج الإستدلال والإستنتاج.

- المنهج التجريبي.

والإستدلال إما أن يكون بخبر منقول أو بوثيقة مادية أو نتيجة نظر واستنتاج من مجموعة أدلة أو قرائن منطوقة كانت أو مفهومة، ومجال استخدام هذا المنهج في الغالب هو الدراسات المتعلقة بالإنسان سواء الدراسات الشرعية أم الأدبية واللغوية أم الدراسات الإجتماعية، أما التجربة فتعتمد على الأمور الحسية المشاهدة ومجال استخدامها في الغالب هو العلوم التطبيقية.

ويمكن توزيع المناهج على حسب الموضوعات إلى ثلاثة مناهج رئيسية هي:

منهج الإستدلال الشرعي:

ويقوم هذا المنهج على النصوص الشرعية في الكتاب والسنة إضافة إلى الإجماع والقياس الصحيح والإجتهاد وذلك وفق ترتيب مفصل في علم الأصول مثل: العموم والخصوص، والناسخ والمنسوخ، والمفصل والمجمل، وصحة الدليل، والجمع بين الأدلة التي يبدو بينها التعارض إن أمكن أو اللجوء إلى الترجيح وله طرق متعددة ذكر منها الحازمي في كتابه «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار» خمسين وجهاً، منها كثرة العدد في أحد الجانبين أو أن كون أحد الراويين أتقن وأحفظ أو أن يكون أحد الراويين مباشراً لما رواه والثاني حاكياً، أو أن يكون أحدهم صاحب القصة؛ لأن صاحب القصة أعرف بحاله من غيره وأكثر اهتماماً بها... إلخ.

ومنهج دراسة الظواهر بشرية كانت أو طبيعية :

وهو يقوم على المشاهدة والملاحظة والتتبع، ويعتمد أيضًا على الإحصاءات ودراسة الحالات كما يعتمد على جمع المعلومات والأخبار.

والمنهج الثالث هو منهج دراسة العلوم التطبيقية والرياضية القائم على التجارب العملية وتحليلها.

التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق:

رأينا في المبحث السابق أن المنهج الإسلامي يتميز عن كل المناهج الأرضية بمفاهيمه الأساسية في التصور عن الكون والإنسان والحياة، كما يتميز بمفاهيمه المنهجية، وقد رأينا عمق ارتباط المفاهيم المنهجية بالتصور العقيدي وتأثيره فيها؛ ولذلك اختط العلماء المسلمون منهجًا مستقلاً في التوثيق وإثبات الحقائق لم يشاركهم فيه أحد، وكان هذا المنهج محققًا للغاية الإيمانية ومقاصد العلوم الشرعية، حيث كانت أولى خطوات هذا المنهج قد تمت على أيدي علماء الحديث، وكانت هذه الخطوات تهدف بالدرجة الأولى إلى الحفاظ على السنة النبوية ونفي الخبث عنها عندما فشى الكذب والوضع في الحديث الشريف؛ لأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته لم تكن مدونة بكاملها كما دون القرآن، وإنما كانت تتناقل في غالبها رواية شفوية فلما دعت الدواعي لتسجيلها بالكامل وكان ذلك على رأس المئة الأولى من الهجرة عندما أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي مجموعة من العلماء في مختلف الأمصار بذلك فكتب لهم: «أن انظروا حديث رسول الله، فاجمعوه فإني خشيت دروس العلم».

عند ذلك وضع العلماء قواعد لعلم الرواية والمعرفة النقلية تبلورت مع الممارسة العملية عن مجموعة من العلوم كعلم أصول الحديث (المصطلح) وعلم الجرح والتعديل وتاريخ الرجال وعلم الدراية، أو «نقد المتن» ويمكننا إجمال الخطوات العامة لمنهج توثيق الرواية فيما يلي:

[١] التحري والتثبت في الرواية وكان هذا مما حثّ عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، وسُنّة الخلفاء الراشدين وعمل به الصحابة ﵃.

[٢] التزام الإسناد واعتماده.

[٣] معرفة الرجال والكشف عن حالهم جرحًا وتعديلاً.

[٤] استعمال النقد للمتون والأسانيد.

وقد استفاد من هذه القواعد التي وضعت في الأساس لضبط الحديث الشريف كثير من العلوم النقلية كبقية العلوم الشرعية، مثل التفسير والفقه وكعلم التاريخ والأدب واللغة حتى صار استعمال الإسناد في هذه العلوم من السمات العامة لمناهج التأليف والمؤلفات في القرون الخمسة الأولى، وإن لم يكن ذلك بنفس الدقة والإلتزام الذي وقع من علماء الحديث.

وبالرغم من هذا القصور فقد كان أثر اتباع هذا المنهج على علم التاريخ عند المسلمين بيناً، ومما ينبغي ملاحظته أن هناك اختلافًا بين طبيعة التأليف في المادتين «التاريخ والحديث» ففي تأليف كتب الحديث يمكن ذكر حديثين في محل واحد مع أنه لا صلة بينهما من ناحية الموضوع دون أن يشعر الباحث بأي شيء من الإرتباك، وهذا مشاهد في الكتب التي رتبت على مسانيد الصحابة كما في مسند أحمد بن حنبل ومسند الحميدي وغيرهما، بينما يختلف الوضع بالنسبة لكتب التاريخ حيث يتطلب الأمر ملاحظة الترتيب الموضوعي والزمني فتسلسل الحوادث وتتابعها في نسق واحد يشكل أهمية كبيرة في بناء الفكرة التاريخية مما جعل بعض المؤرخين يترك الالتزام بالإسناد وبعضهم يستعمل ما يمكن أن يعبر عنه بالإسناد «الجمعي» حيث يأخذ الكاتب مجموعة من الروايات ثم يدمج بعضها في بعض ويسوقها مساقًا واحداً، والبعض الآخر استعمل الإسناد في بعض القضايا دون بعض وبعضهم يحذف جزءاً من الإسناد وينقل مباشرة عن المصدر الأعلى.

والحاصل أن كتب غير الحديث تختلف في صياغتها وترتيبها عن كتب الحديث التي هي عبارة عن ضبط النصوص عن الأقوال والأفعال النبوية، لما يتعلق بهذا الضبط من الأمور التشريعية التي تقوم عليها حياة الأمة المسلمة، إن كتب التاريخ والقصص والأخبار تحتاج إلى السرد الموضوعي واستمرار الحوادث والقصص في نسق تاريخي متتابع لكي تتكامل الصورة التاريخية عن موضوع البحث، وإن كان ذكر السند يساعد على التحقق من صحة الرواية ويعتبر عنصرا مهمًا في النقد التاريخي؛ ولذلك حافظ عليه العلماء الأعلام الذين قاموا بالجمع

والتدوين سواء في السيرة النبوية أم في بقية الأخبار التاريخية كما فعل عروة بن الزبير ومحمد بن مسلم الزهري ويعقوب بن سفيان الفسوي وخليفة بن خياط وأبو زرعة الدمشقي وابن جرير الطبري وغيرهم.

قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي:

التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام:

وهذه قاعدة جليلة عظيمة، فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهماً في علم الشريعة علم يقيناً أنه لا شيء من أخطاء البشر مهما كانوا محسوباً على الإسلام، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقى من مصدرها: الكتاب والسنة، لا من عمل الناس وسيرتهم - ما لم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع - ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفاً لنصوص الشرع ولهذا قال الإمام مالك: «ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويُترك إلا النبيّ ﷺ» وكثير من الناس يخطئ في هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادئ الإسلام أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي ويعتبر ذلك الحدوث حجة أو مسوغاً للإقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي أو كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله؛ ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعاً من الأفعال والتنظيمات وهي مناقضة تماماً للأحكام ا لشرعية دون أن يوضحوا بأن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابات المتأخرين ، فإنك تراهم يذكرون في الفنون الإسلامية مثلاً أنواعاً مما حرمه الله مثل فن الغناء، وفن التصوير والنحت، وفن بناء القباب على القبور، وفي النظم المالية مثلاً يذكرون نظام الضرائب والمكوس التي تؤخذ من التجار المسلمين، وغير ذلك

مما نهى الشارع عنه، فيعرضون مثل هذا على أنه تقدم حضاري ومن نتاج الحضارة الإسلامية ويُفاخرون به غيرهم، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام، والمفترض في الباحث أن يصطحب التصور الإسلامي الصحيح في كل دراساته وأحواله، وأن يفرق بين أخطاء البشر وبين قيم الإسلام وموازينه لأن البشر يُخطئون ويصيبون ويستقيمون على الطريق فترة وينحرفون فترات، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ [الأنعام: ١١٥].

والذي ينبغي التنبه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية على الأشخاص والأحداث أن لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الإجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب، على حساب تشويه المنهج الإسلامي؛ لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج، فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر، وصيانته أولى وأحرى، فالحق لا يعرف بالرجال ولا بكثرة من قاله إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة، فالجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والمنهج لابد أن يبقى مصونًا ومحافظًا عليه من التشويه والتحريف.

قواعد في المصادر:

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى؛ لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أي بحث تاريخي، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر؛ لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى، فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية، كما يفعل الأديب والقصصي والشاعر والعالم

الفيزيائي، وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلابد أن يعتني بها غاية الإعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة كدرجة الثبوت والثقة في المصدر، وكالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني، فيقدم ما هو أوثق ثبوتًا كالنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك، وتقدم رواية من كان ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته، وهنا مجموعة من القواعد التي يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها وهي:

١ - اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر:

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف أو الزيادة والنقصان ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨**﴾ [الحجر: ٩]، والقرآن قطعي الثبوت، آية آية وكلمة كلمة، ويأتي بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوي الشريف، فإن النبي ﷺ - كما أخبر الله عنه - لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة ﷺ أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وأدوها إلى من بعدهم كما سمعوها.

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمي وأوثقه في تدوين السنة وفي نقد الرجال والمرويات، وفي الكتاب والسنة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية، كما أنه قد جاء في الكتاب والسنة الإشارة إلى الأحداث المستقبلة سواء كان وقوعه في الحياة الدنيا أو في الآخرة، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها، ومثل أحداث اليوم الآخر، فقد أخبر ﷺ بما تؤول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده، وما يصيبها من التفرق، وما يكون فيها من حركات الإصلاح

والتجديد، كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدي الساعة وهي أشراط الساعة التي اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها في مصنفاتهم، بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة.

وقد جاء في القرآن والسنة أيضًا الإشارة إلى جملة من القوانين التاريخية والسنن الربانية مما يعطي الباحث أو الدارس سعة وشمولاً في النظرة التاريخية وعمقًا في التحليل للأحداث ومقدرة على تشخيص ووصف الدواء.

أما الذين لا يعتمدون القرآن والسنة في مصادر دراساتهم وأبحاثهم، فإنهم يحرمون هذه الفوائد من النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب، فإنهم لا يستطيعون وصف العلاج الحقيقي للأمراض الإجتماعية والخلقية التي تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث وتوجيهها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وعلاج مثل هذه الأمراض والأدواء لا يتلقى إلا من الشارع الحكيم، ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع، لذا فإنه لابد من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعًا من الأوضاع الإجتماعية، وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكيًا واجتماعيًا وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرة في ذلك.

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين: لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار، وذلك لصدق مصدرها وعلمه وهيمنته كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمي، فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب للعلم القطعي في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف،وصحيح السنة وصلنا بمنهج علمي دقيق، والإعتبار الثاني هو لما تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، مما يهيئ للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية، وارتباط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلبًا وإيجابًا.

والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها، وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السنن والروابط التي تربط الأحداث أو ما يسمونه «فلسفة التاريخ» غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة بل بلغ الجنون بأكثرهم إلى القول بتفسيرات ومنظورات تاريخية تأخذ بالتفسير «الأحدي» لحركة تاريخ البشرية ولذلك ظهرت مدارس متعددة في تفسير التاريخ مثل المدرسة الإجتماعية والمدرسة النفسية والمدرسة المادية والمدرسة القومية والجغرافية واللاهوتية الكنسية وغيرها.

وهذه التفسيرات جميعها - باستثناء التفسير الكنسي - تغفل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية، ولا تعطي أية أهمية لما جاءوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والأنداد وإقامة الحكم بين الناس بالقسط، يقول أحد الكتاب المعاصرين مبيناً خطر الدراسات التي لا تعتمد المصادر الشرعية - وإن كان هو لم يسلم من لوثة الإستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها -: «المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث، وكانوا أساتذة للكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق في الدراسات الإسلامية - هكذا - وطرق البحث فيها، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين، وعادوا فكتبوا.. ونقرأ ما كتبوا فنلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المستشرقين أنفسهم، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرأون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه».

فكل دراسة للتاريخ الإسلامي لا تعتمد المصادر الشرعية لابد أن تصاب

بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامي، لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها .

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أُتيحت الفرصة لعدد غير قليل - من الذين لم يتلقوا قدراً كافيًا من علوم الشريعة - للكتابة في التاريخ الإسلامي، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الإستشراقية، وتحمل كثيراً من لوثة الإنحراف الفكري والغزو الثقافي، وتمثل الفهم المشوه للشريعة، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار وذلك راجع إلى قلة البضاعة في الدراسة الشرعية، وللمناهج التي تلقوا بها دراسة التاريخ.

إن الواجب يقضي بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامي وتدريسه يجب عليه دراسة القرآن الكريم ومعرفة أسباب النزول وأصول علم التفسير وأصول علم الحديث، ومعرفة الأحكام الشرعية وعقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق المخالفة لها؛ لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامي وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخي والمنهجية العلمية.

٢ - عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن:

قال الله تعالى: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)** ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا** ﴾ [المائدة: ٤١]، ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف

اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل وهي اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى، وكذلك التوراة والتلمود دونها أحبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة، واختلافاتها الكثيرة، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالى.

فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة، أما أخبارها وقصصها فهي مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا...﴾ الآية»** [رواه البخاري].

ومن المعلوم أن القصص الإسرائيلي من أوسع القصص تفصيلاً لمعلومات تاريخية ولعهود وأزمان سحيقة، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الإعتماد على شيء من ذلك في الأمور الشرعية، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن أو السنة مجملاً أو الذي يغطى به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته فإنه لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان لا الإعتماد والإعتقاد كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين من أمثال الإمام ابن تيمية، والحافظ ابن كثير، فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام وهي كما يلي:

- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.
- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، فذاك كذب.
- ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا فلا نصدق به ولا نكذبه.

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته لما ورد من الإباحة في ذلك، وغالب هذا مما

لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا كان بعض الصحابة ﷺ يسأل مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار عن بعض جزئيات الحوادث، وتفصيل مجملات القصص في القرآن بقدر ما يرون أنه مبين للقصة وموضح لما أجمل فيها ولا يخرج عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ﷺ بقوله: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار**»

[رواه البخاري].

ومن هذا الباب أورد بعض الأئمة الكبار مثل هذه الأخبار والأحاديث الإسرائيلية في كتبهم وتفاسيرهم، لا ليثبتوا بها حكمًا شرعيًا أو يعتقدوا صحتها وإنما على سبيل المعرفة والإستشهاد وحكاية الأقوال وهم مع ذلك ينبهون في الغالب على ما فيها من الخطأ إما تصريحًا أو تلميحًا وقد يسكتون أحيانًا لوضوح الأمر، يقول أبو العباس بن تيمية: «علماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي ﷺ؛ لأنه واجب القبول، وفيما ينقل عن الصحابة، أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها فيهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلتها؛ لأن أصلها غير معلوم، وغايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب، لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**» فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبر به نبينا ﷺ عن الأنبياء وأممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الإحتراز في نقلته».

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يعتمدون في مصادرهم التاريخية على التوراة والإنجيل وينقلون عنهما مباشرة ويعارضون بما فيهما الأحاديث الصحيحة في حين يعيبون على علماء التفسير وغيرهم رواية الإسرائيليات وإدخالها في تفسير القرآن الكريم، ولو فكروا لعلموا أن الأوائل رجعوا إلى نسخ أقدم وربما أوثق من النسخ التي رجعوا هم لها في العصر الحاضر. بل إن بعضًا من

الكتاب المعاصرين يعتمد على التوراة كمصدر تاريخي ويستبعد القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا متابعة للمنهج الإستشراقي الماكر الذي لا يؤمن برسالة النبي ﷺ ولا صدقه.

٣ - معرفة شروط المؤرخ المقبول:

المؤرخ المقبول الرواية يشترط له مجموعة من الصفات والشروط يجعلها بعضهم كشروط راوي الحديث النبوي غير أن الأمر فيه تفصيل، وذلك بحسب المروي وأهميته التشريعية، فإذا كان المروي متعلقًا بالنبي ﷺ أو بأحد من الصحابة رضي الله عنهم فإنه يجب التدقيق في رواته والإعتناء بنقدهم، ويلحق بهذا ما إذا كان الأمر متعلقا بثلب أحد من العلماء والأئمة ثابتي العدالة لأن كل من ثبت عدالته لا يقبل جرحه حتى يتبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه «أما إذا كان الخبر المروي لا يتعلق بشيء من ذلك فإنه وإن كان الواجب التثبت في الكل إلا أنه يتساهل فيه ولهذا قال الخطيب البغدادي: «باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال، ثم روى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النّبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد» ولا يعني هذا التساهل أنهم يروون عن الكذابين وساقطي العدالة؛ لأن ساقط العدالة لا يحمل عنه أصلاً، إنما يقصدون ضعف الضبط في الراوي مثل الغفلة وكثرة الغلط والتغير والإختلاط ونحو ذلك، أو عدم اتصال السند كإرسال أو انقطاع.

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر مثل ما جاء مرويًا عن طريق علماء الحديث، كأخبار السيرة النبوية وخلافة الراشدين وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة، وإنما غالبها محمول عن الأخباريين وبأسانيد منقطعة ويكثر فيها المجاهيل، بل إن بعضها يرد بدون إسناد، أو حتى تبين

للمصادر التي حمل عنها المؤرخ، ومن أجل هذا فإنه قد يكون من العسير تطبيق المنهج النقدي عند علماء الحديث النبوي بكل خطواته على كل الأخبار التاريخية، ولذا فرق جمهور العلماء بين الشروط المطلوبة في المؤرخ لكي تقبل روايته وبين الأمور المشترطة في راوي الحديث النبوي، فتساهلوا في الأول وتشددوا في الثاني وذلك للأهمية التشريعية لما يرويه، فالسبب في التفريق راجع إلى موضوع الرواية، وعليه فإنه يمكن القول بأن الرواية التاريخية إذا كانت تتعلق بموضوع شرعي كتحليل أو تحريم أو ما يدخل في باب سب المسلم وتنقصه أو تدليس حاله على الناس فإنه لابد من التثبت من رواتها ومعرفة نقلتها ولا يؤخذ في هذا الباب إلا عن العدول الضابطين الذين سلمت مروياتهم من المعارضة.

أما إذا كانت الرواية التاريخية لا يتعلق بها إثبات حكم شرعي أو نفيه كما هو الغالب على الروايات التاريخية فإن الأمر عندئذ يختلف، ويقبل في هذا الباب من الروايات الضعيفة ما لا يقبل في سابقه، لاسيما وقد قال بعض الفقهاء بجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب.

والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان:

شروط تتعلق بذاته، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه.

أما الشروط المتعلقة بذاته فهي:

- العدالة.
- القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الرواية، وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد، والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينهما. يقول ابن تيمية: «لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت وإلا فيبقى في كذب وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم».

■ العلم بأصول الأحكام الشرعية، وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، وبمدلولات الألفاظ وموانعها، وللإمام ابن تيمية كلام في غاية الأهمية حول هذاالشرط ذكره في مستهل جوابه عندما سئل عن حكم قتال التتار، فذكر أن هناك أصلين ينبغي أن يستكملا قبل الفتوى: «أحدهما – المعرفة بحالهم. والثاني – معرفة حكم الله في أمثالهم» وهذان الأصلان يقومان على العلم المنافي للجهل، إذ الكلام في الناس لا يجوز بغير علم وبصيرة.

■ مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف خوفًا من الدخول تحت قوله ﷺ: **«إياك والظن فإن الظن أكذب الحديث»** [رواه البخاري ومسلم] ومتى لم يكن ورعًا فإنه وإن كان عالما فإنه لا يجد من الورع والتقى ما يحجزه ويوجب له الفحص والإجتهاد وترك المجازفة.

■ الضبط لما يراه أو يسمعه.

■ تجنب الغرض والهوى وهذا أمر يعز وجوده إلا في القلة النادرة، ولكنه مع الشرط السابق مع الشعور بالمسئولية والخوف من الله واستحضاره ذلك في الذهن يستطيع التخلص بحول الله من الهوى المضل.

■ حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه، وذلك بأن يفهم الموضوع الذي يبحثه فهمًا جيداً ويحيط به من كافة جوانبه.

■ أن يكون جيد العبارة عف اللسان عن المنكر من القول.

وبخصوص الشروط التي تتعلق بما يرويه المؤرخ فقد ذكر السبكي في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي:

[١] اعتماد اللفظ دون المعنى، وذلك بأن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعنى، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة وعبر عنها من عند نفسه.

[٢] أن يسمي المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف.

[٣] أن يكون نقله مضبوطًا فلا يجوز أن يأخذ من الشيخ أثناء المذاكرة ثم يدونه بعد ذلك؛ لأنه في هذه الحالة ربما ينسى بعض الكلام فيقل الضبط.

[٤] زاد السخاوي شرطًا آخر وهو: «التحري فيما يراه من الوقائع التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة ﷺ لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم، والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة، سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات» وهذا الشرط مهم للغاية، وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والإنحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي، وكان ما دُوّن من مثل هذه الأخبار عونًا للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامي حتى أخفوا معالمه الأساسية وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء لا تزيد على كونها صراعًا على السلطة وتكالبًا على الشهوات، وفسروا التاريخ الإسلامي كما يحلو لهم تفسيرًا ماديًا، أو قوميًا، أو علمانيًا.

يقول السبكي: «لا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض».

ويقول الشوكاني في جواب من سأله عن مذهب أهل الحق في شأن ما شجر بين الصحابة ﷺ في الخلافة: «إن كان هذا السائل طالبًا للنجاة فليدع الإشتغال بهذه الأمور في هذا المضيق الذي تاهت فيه الأفكار، فإن هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم وتتطلع لمعرفة ما شجر بينهم قد صاروا تحت أطباق الثرى ولقوا ربهم في المئة الأولى من البعثة وها نحن الآن في المئة الثالثة عشر، فما لنا والإشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وأي فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة وقد أرشدنا إلى أن ندع ما

يريبينا إلى ما لا يريبنا ويكفينا من تلك القلاقل والزلازل أن نعتقد أنهم خير القرون وأفضل الناس» إلى أن قال: «فرحم الله امرأ اشتغل بما أوجبه الله عليه وطلبه منه وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة بل يعود عليه بالضر، ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور مخدوع قاصر الباع عن إدارك الحقائق ومعرفة الحق على وجهه كائنًا من كان».

وما أحسن ما قال إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل ، وقد سُئل عن الفتن أيام الصحابة فما زاد أن تلا قول الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وهذا الذي قرره الأئمة – رحمهم الله – هو الحق الذي تؤيده النصوص الشرعية، وتقتضيه القواعد المنهجية، قال تعالى زاجراً المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) ﴾ [النور: ١٦]، فقد أمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام أهل السوء الذي يناقضه ويقدح فيه. وقد دلت الآيتين على قاعدة جليلة وهي الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق للخروج من الشبهات والتوهمات، وقد يعبر عنها بأن الموهوم لا يدفع المعلوم وأن المجهول لا يعارض المحقق .

كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات: ٦]، فقد أمر

سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق دون العدل والثقة حتى لا نصيب أحداً بجهالة وظلم وقالة سوء، وقد جاء في الحديث: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» [متفق عليه]، وقوله ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**» [رواه مسلم].

لقد دلت هذه النصوص على القاعدة المنهجية التي يجب التمسك بها وهي الرجوع إلى الأمر المعلوم الثابت وأن هذا الأمر لا يدفع بالظنون والشبهات والأوهام، وأنه لابد من الرجوع إلى المصادر الأصلية لمعرفة الحقيقة، فلا يؤخذ من الكذابين والفاسقين؛ لأن فسقهم يدفعهم إلى تصوير الأمر على خلاف ما هو عليه وأن المرء المسلم لابد له من التثبت والتحقق مما يسمع وأن لا يأخذ من كل من هب ودب، ثم يرويه قبل معرفته لحاله، ثم بيان ذلك، وإلا كان من الكذابين.

٤ - معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة:

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التي تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التي ضلت الطريق وفارقت الصراط المستقيم إما بدعوى تأويل غير سائغ، أو استجابة لشهوة وهوى، أو عن زندقة وكفر، وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم؛ لكي تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبي الحسن الأشعري (ت٣٣٠)، في «مقالات الإسلاميين»، وأبي الحسين الملطي الشافعي (ت٣٧٧) في «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»، وأبي محمد بن حزم (ت٤٥٦) في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ومثل أبي الفتح الشهرستاني (٥٤٨) في كتابه «الملل والنحل» كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدوّن الأخبار وصاغها وفقًا لمعتقده الديني ومذهبه السياسي فأبرز مثالب خصومه وأخفى كثيراً من جهودهم وحسناتهم

ولأجل هذا فإنه لابد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على مؤلف ما يرجع إليه من المصادر فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسي والمذهبي؛ لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التي يوردها ذلك المؤرخ بما تكوّن لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه، ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى ومما عند الثقات العدول من المسلمين.

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية فما كان متعلقًا بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته، فإن علماء أصول الحديث قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: من كانت بدعته مكفرة مثل الروافض الذين يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعيلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة كالخرمية والحلولية والثنوية فهؤلاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة.

القسم الثاني: المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة، فمن كان منهم معروفًا بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته، وهذا شرط في كل راوٍ مبتدعًا كان أو غير مبتدع ومن كان مشهورًا بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيدًا لبدعته، واحتجوا لهذا بإخراج البخاري في صحيحه لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم – قاتل علي رضي الله عنه – فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته، ولكن لَمّا عُرِف بالورع والتقوى وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه.

وما كان متعلقًا بالأخبار عن أهل السنة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية فهذاينظر فيه إلى تعصب الراوي من عدمه، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره؛ لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة وكما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلاً في ذاته فيسبر خبره ويقارن بغيره من الأخبار وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي.

والزاوية الثالثة في النظر هي روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذهبهم، وهذا كالإقرار منهم فهو حجة عليهم خاصة حكاية أقوالهم ومذاهبهم فهم أعرف ببعضهم بعضًا وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية، وكما قيل في المثل: «من فمك أدينك».

وها هنا مسألة يجدر التنبيه عليها وهي أن بعض الباحثين المعاصرين يطلقون القول بأنه لا تقبل أقوال أهل المذاهب والأديان والفرق المتخالفة بعضهم في بعض فلا يقبل مثلاً قول اليهود في النصارى ولا قول النصارى في المسلمين ولا قول المسلمين في النصارى واليهود، ولا قول الشيعة في السنة، ولا قول السنة في الشيعة والمعتزلة، وهذا القول فيه خطأ منهجي علمي من عدة وجوه فأولاً: أقوال أهل الفرق وشهادة بعضهم على بعض ليست مرفوضة بإطلاق إنما كل قول ظهر أن العامل عليه هو التعصب فهو الذي يرفض أما ما عدا ذلك فمن الممكن قبوله وفق معايير معينة سبقت الإشارة إلى بعضها. ثانيًا: أقوال العدول الثقات – ولا عدالة مع غير الإسلام – التي إذا سبرت وتتبعت وجدت مطابقة للحق والواقع مقبولة بإطلاق، وليس من العدل والإنصاف أن نساوي بين المسلمين والكافرين والحق والباطل، قال تعالى: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾** ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، لأن المسلم هو الوحيد الذي يقوم على رعاية الحق وحراسته والعمل بمقتضاه بموجب تكليف رباني لذلك فهو الشاهد على البشرية بما عملت، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإذا ألغينا شهادته – كما يرى هؤلاء الكتاب – فمن يقم بالحق ويشهد به..؟ أيكون الملحدون والعلمانيون والمتحررون من الأديان أولى بالشهادة وقول الحق من المسلم؟ إن هذا لا يقول به عاقل، وذلك أن المسلم لديه من الموانع عن الكذب ما ليس لدى غيره، يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن المعلمي (ت١٣٨٦): «وأما كتاب العصر فإنهم

مقتدون بكتاب الإفرنج الذين يتعاطون النظر في الإسلاميات ونحوها وهم مع ما في نفوسهم من الهوى والعداء للإسلام إنما يعرفون الدواعي إلى الكذب ولا يعرفون معظم الموانع منه .

فمن الموانع التدين والخوف من رب العالمين الذي بيده ملكوت الدنيا والآخرة، وقد قال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ١٠٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**علامة المنافق ثلاث، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا أئتمن خان وإذا وعد أخلف**» [رواه البخاري ومسلم] وإخلاف الوعد أغلب ما يكون إذا كان الوعد كذبًا، والخيانة تعتمد الكذب كما لا يخفى، وقال أبو بكر الصديق: «الكذب مجانب للإيمان» وأولئك الكتاب لا يعرفون هذا المانع؛ لأنهم لا يجدونه في أنفسهم، ولا يجدون فيمن يخالطونه من تقهرهم سيرته على اعتقاد اتصافه بهذا المانع لضعف الإيمان في غالب الناس ورقة التدين، ولا يعرفون من أحوال سلف المسلمين ما يقهرهم على العلم باتصافهم بذلك المانع؛ لأنهم ربما يطالعون التواريخ وكتب الأدب كالأغاني ونحوها وهذه الكتب يكثر فيها الكذب، والحكايات الفاجرة، كان فجرة الإخباريين يضعون تلك الحكايات لأغراض منها دفع الملامة عن أنفسهم وترويج الفجور والدعاية إليه، وترغيب الأمراء والأغنياء في الفجور وتشجيعهم عليه، والتقرب إلى الأمراء والأغنياء بالحكايات الفاجرة التي يلذ لهم سماعها إلى غير ذلك، وما في هذه الكتب من الصدق إنما يصور طائفة مخصوصة كالأمراء والشعراء والأدباء، و لو عكف أولئك الكتاب على كتب السنة ورجالها وأخبارهم لعلموا أن هذه الطائفة كان ذلك المانع غالبًا فيهم.

ومن الموانع من الكذب خوف الضرر الدنيوي، وأولئك الكتاب يعرفون شرط هذا المانع وهو لحوق الضرر المادي .. أما شطره المعنوي فإن أولئك الكتاب لا يقدرون قدره، وقد كان العرب يحبون الشرف ويرون أن الكذب أفحش العيوب

المسقطة للرجل كما في قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل الروم عندما سأله عن النبي ﷺ وطلب من أصحابه أن إذا كذب أن يكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عليه. ولا شك أن أبا سفيان كان واثقًا أن أصحابه لن يكذبوه أمام هرقل، ولكنه أنف من الكذب، وخاف أن يعير به فيما بعد.

٥ - معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين:

عرفنا في القاعدة السابقة أنه يتوجب على المؤرخ عندما يرجع إلى أي مصدر أو مرجع أن يتعرف على مؤلفه واتجاهه الفكري والسياسي، وعلى ضوء هذه المعرفة يستطيع أن يأخذ منه وفق ضوابط محددة، وفي هذه القاعدة نحاول التعرف على الضوابط الواجب مراعاتها والإلتزام بها عند الحاجة إلى الرجوع لمصدر مؤلفه غير مسلم.

وهذه الضوابط لابد منها لأن المسلم صاحب منهج مستقل في تصوره وغايته وطريقة عمله، ومنهجه هذا رباني متلقى من الله بواسطة رسوله ﷺ ومن خصائصه الكمال والشمول، ولذلك لا يحتاج إلى شيء من غيره، كما أن له الهيمنة والحكم على كافة المناهج، قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ [المائدة: ٤٨].

والنظر إلى كتب غير المسلمين للأخذ منها يكون بحسب الموضوع، فإذا كان الموضوع متعلقًا بديانتهم، وهي ديانة وثنية، فإنه حينئذ لا بأس من الأخذ عنهم مع النظر والمقارنة، أما إذا كانوا من أهل الكتاب، وما يذكرونه عن ديانتهم ينسبونه إلى الله سبحانه وتعالى أو إلى رسولهم أو غيره من رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فإن هذا لا يقبل منهم، ولا يؤخذ عنهم إلا وفقًا لضوابط رواية الإسرائيليات التي مرت، حتى لا ننسب إلى الله أو إلى رسول من رسله ما لم يقله.

وإذا كان الموضوع متعلقًا بديننا من شرح أو تفسير أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية أو على علم من علوم الإسلام أو نظام من النظم الإسلامية أو دراسة لسيرة النبي ﷺ، فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال؛ لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شيئًا من دين الله؛ ولأن من شروط البحث في هذه القضايا الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة، بل يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم، إن القول في الأحكام الشرعية، وفي النظم الإسلامية، وفي تقدير رجاله وتاريخه لا يُؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولخلافه لو خالف.

أما إذا كان ما في كتبهم ليس له تعلق بشيء من الأنواع السابقة فإنه يخضع لموازين النقد العلمي، وما ثبت منه لا شيء على من أخذ به، ولا سيما إذا كان وصفًا لحالهم وأوضاعهم ومعاشهم؛ لأنهم بها أخبر، ولها أدرى.

صور من التعامل المشبوه مع التراث

ما أكثر صور الخلط والتشويش والتدليس والتلبيس وقلب الحقائق التي حدثت قديمًا وحديثًا، فلم يسلم التراث الإنساني من النظرات الضيقة واللوثة المادية في قراءته والتعامل معه، بل ومحاولات متعمدة لطمس الحقائق الساطعة سطوع الشمس في رائعة النهار، وندلل على ذلك بمسائل ثلاث، وهي الإستشراق، والمذهبية، والعولمة في تعاملها مع هذا التراث.

أولاً - الاستشراق والمستشرقون:

بدأ الإستشراق بدراسة اللغة العربية والإسلام، وانتهى بعد التوسع الإستعماري الغربي في الشرق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده، وأشهر لغاته، وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي أهم ما يعنى به المستشرقون حتى اليوم نظرًا للدوافع الدينية والسياسية، فقد أراد المستشرقون أن يثبتوا لجماهيرهم أن الإسلام دين لا يستحق الإنتشار، وأن المسلمين قوم همج، لصوص وسفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجنسية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وأخلاقي، وقد اشتدت ضراوة الهجوم وخصوصًا مع انصراف الأتباع عن خزعبلات الكنيسة، ولا يخفى الدافع الإستعماري عند أهل الإستشراق، فهم لم ييأسوا بعد الحروب الصليبية من العودة لاحتلال بلاد الإسلام؛ ولذلك اتجهوا إلى دراسة هذه البلاد ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها، وعلى مواطن الضعف فيغتنموها؛ ولذلك تراهم يشجعون القوميات التاريخية ويحيون النعرات الطائفية والحضارات العفنة المندثرة، ويبثون الدسائس للتفرقة بين أوصال هذه الأمة إعمالاً لسياسة «فرّق تَسُد»، وقد يُروّجون لبضائعهم ويشترون الموارد الطبيعية الخام بأبخس الأثمان.

ونفر قليل جدًا أقبل على الإستشراق بدافع حب الإطلاع على الثقافة واللغة

والدين، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته.

وقد عمد كثير من المستشرقين إلى التشكيك بصحة رسالة النبيِّ ﷺ، وأنكروا أن يكون الإسلام دينًا من عند الله، شككوا في صحة الحديث النبوي، وفي قيمة الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي.

وقد تكلم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه «الإستشراق والمستشرقون» عن وسائلهم ومجلاتهم وكتبهم ودعاتهم وإليك ما قال:

وسائل المستشرقين لتحقيق أهدافهم:

لم يترك المستشرقون وسيلة لنشر أبحاثهم وبث آرائهم إلا سلكوها، ومنها:

[١] تأليف الكتب في موضوعات مختلفة عن الإسلام واتجاهاته ورسوله وقرآنه، وفي أكثرها كثير من التحريف المتعمد في نقل النصوص أو ابتسارها، وفي فهم الوقائع التاريخية والإستنتاج منها.

[٢] إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام وبلاده وشعوبه.

[٣] إرساليات التبشير إلى العالم الإسلامي لتزاول أعمالاً إنسانية في الظاهر كالمستشفيات والجمعيات والمدارس والملاجئ والمياتم، ودور الضيافة كجمعيات الشبان المسيحية وأشباهها.

[٤] إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية، ومن المؤسف أن أشدهم خطرًا وعداءً للإسلام كانوا يستدعون إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد والرباط وكراتشي ولاهور وعليكرة وغيرها ليتحدثوا عن الإسلام!.

[٥] مقالات في الصحف المحلية عندهم، وقد استطاعوا شراء عدد من الصحف المحلية في بلادنا وقد جاء في كتاب «التبشير والإستعمار» للدكتورين عمر فروخ ومصطفى الخالدي، وهو من أهم الوثائق التاريخية عن نشاط المستشرقين والمبشرين لخدمة الاستعمار ما يلي: «يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان، أو بلا أجرة في أحوال نادرة».

[٦] عقد المؤتمرات لإحكام خططهم في الحقيقة، ولبحوث عامة في الظاهر، ومازالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١٧٨٣ حتى الآن.

[٧] إنشاء الموسوعة «دائرة المعارف الإسلامية»، وقد أصدروها بعدة لغات، وبدأوا بإصدار طبعة جديدة منها، وقد اطلعتُ على الأجزاء الأولى للطبعة الثانية من سكرتير الموسوعة حين زرت أكسفورد عام ١٩٥٦، وقد بدئ بترجمة الطبعة الأولى إلى اللغة العربية وصدر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلداً، وفي هذه الموسوعة التي حشد لها كبار المستشرقين وأشدهم عداءً للإسلام، قد دسّ السم في الدسم، ومُلئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين عندنا بحيث يعتبرونها حجة فيما تتكلم به، وهذا من مظاهر الجهل بالثقافة الإسلامية وعقدة النقص عند هؤلاء المثقفين.

هذه كلمة موجزة عن المستشرقين وأصنافهم وأهدافهم ووسائلهم، ونرى من إتمام الفائدة للقراء أن نذيلها بذكر أخطر المستشرقين المعاصرين وأهم كتبهم، وبأهم المجلات التي يصدرها المستشرقون في الدول الإستعمارية الكبرى.

أهم المجلات التي يُصدرونها:

(أ) في عام ١٧٨٧ أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٨٢٠، ثم أصدروا «المجلة الآسيوية».

(ب) وفي لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية، وفي عام ١٨٢٣ قبل الملك أن يكون ولي أمرها، وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ».

(جـ) وفي عام ١٨٤٢ أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية الأمريكية »، وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا وروسيا.

(د) ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأمريكيون في هذا القرن « مجلة جمعية الدراسات الشرقية » وكانت تصدر في مدينة جامبير **Gambier** بولاية Ohio ولها فروع في لندن وباريس وليبزج، وتورنتو في كندا، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن، وطابعها العام على كل حال طابع الإستشراق السياسي، وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية، وخاصة في باب الكتب.

(هـ) ويصدر المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر مجلة « شؤون الشرق الأوسط » وكذلك مجلة « الشرق الأوسط »، وطابعها على العموم طابع الإستشراق السياسي كذلك.

(و) وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة « العالم الإسلامي » The Muslim World أنشأها صمويل زويمر Zweimer في سنة ١٩١١، وتصدر الآن من هارتفورد **Hartford** بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج K. Cragg وطابع هذه المجلة تبشيري سافر.

(ز) وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة « العالم الإسلامي » في روحها واتجاهها العدائي التبشيري، واسمها أيضاً .. Le Monde Musulman .

أسماء أخطر المستشرقين المعاصرين وأهم كتبهم:

- أ . ج . أربري : A.J. Arberry إنجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام

والمسلمين ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية» والآن أستاذ بجامعة كمبردج، ومن المؤسف أنه أستاذ لكثير من المصريين الذين تخرجوا في الدراسات الإسلامية واللغوية في إنجلترا، ومن كتبه:

١ - «الإسلام اليوم» صدر في عام ١٩٤٣ .

٢ - «مقدمة لتاريخ التصوف» صدر في عام ١٩٤٧ .

٣ - «التصوف» صدر في عام ١٩٥٠.

٤ - «ترجمة القرآن» صدر في عام ١٩٥٠.

■ ألفرد جيوم: A. Geom إنجليزي معاصر، اشتهر بالتعصب ضد الإسلام، حاضر في جامعات إنجلترا وأمريكا، وتغلب على كتاباته وآرائه الروح التبشيرية، ومن كتبه «الإسلام» ومن المؤسف أنه تخرج عليه كثير ممن أرسلتهم الحكومة المصرية في بعثات رسمية للخارج لدراسة اللغات الشرقية.

■ بارون كارا دي فو: Baron Carre de Vaux فرنسي متعصب جداً ضد الإسلام والمسلمين، ساهم بنصيب بارز في تحرير «دائرة المعارف الإسلامية».

■هـ. ا. ر. جب: H.A.R. Gibb أكبر مستشرقي انجلترا المعاصرين، كان عضواً بالمجمع اللغوي في مصر، والآن أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفرد الأمريكية، من كبار محرري، وناشري «دائرة المعارف الإسلامية»، له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة، وهذا هو سر خطورته، ومن كتبه:

١ - «طريق الإسلام» ألّفه بالإشتراك مع آخرين وترجم من الإنجليزية إلى العربية تحت العنوان المذكور.

٢ - «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» صدر في عام ١٩٤٧ وأعيد طبعه وترجم إلى العربية تحت العنوان المذكور.

٣ - «المذهب المحمدي» صدر في عام ١٩٤٧ وأعيد طبعه.

٤ - «الإسلام والمجتمع الغربي» يصدر في أجزاء، وقد اشترك معه آخرون في التأليف، وله مقالات أخرى متفرقة.

■ جولد تسيهر: Goldizher مجري، عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية»، كتب عن القرآن والحديث، ومن كتبه «تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي» المترجم إلى العربية تحت العنوان السابق.

■ جون ماينارد: Maynard أمريكي متعصب، كان يساهم في تحرير «مجلة جمعية الدراسات الشرقية» الأمريكية، وخاصة باب الكتب الجديدة التي لها صلة بالإسلام وبالشرق على العموم. (انظر - مثلاً ص ٢٢ وما بعدها من العدد ٢، من المجلد ٨، إبريل سنة ١٩٢٤ من المجلة المذكورة).

■ س. م. زويمر: S.M. Zweimer مستشرق مبشر، اشتهر بعدائه الشديد للإسلام، مؤسس مجلة «العالم الإسلامي» الأمريكية التبشيرية، مؤلف كتاب «الإسلام تحد لعقيدة» صدر في سنة ١٩٠٨، وناشر كتاب «الإسلام» وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني في سنة ١٩١١ بلكنهؤ في الهند، وتقديراً لجهوده التبشيرية أنشأ الأمريكيون وقفًا باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشرين.

■ عزيز عطية سوريال: مصري مسيحي، كان أستاذاً بجامعة الإسكندرية والآن يدرس بإحدى جامعات أمريكا، شديد الحقد على الإسلام والمسلمين وكثير التحريف للتعاليم الإسلامية، يستعين على الحقد والتحريف بكونه بعيداً عن مصر والمسلمين، له بعض الكتب عن الحروب الصليبية.

■ غ. فون جرونباوم: G. Von Grunbaum من أصل ألماني يهودي مستورد إلى أمريكا للتدريس بجامعاتها وكان أستاذاً بجامعة شيكاغو، من ألد أعداء الإسلام، في جميع كتاباته تخبط واعتداء على القيم الإسلامية والمسلمين، كثير الكتابة، وله معجبون من المستشرقين، ومن كتبه:

١ - « إسلام العصور الوسطى » صدر في عام ١٩٤٦ .

٢ - « الأعياد المحمدية » صدر في عام ١٩٥١ .

٣ - « محاولات في شرح الإسلام المعاصر » صدر في عام ١٩٤٧ .

٤ - « دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية » صدر في عام ١٩٥٤ .

٥ - « الإسلام » مجموعة من المقالات المتفرقة، صدر في عام ١٩٥٧ .

٦ - « الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية »، صدر في عام ١٩٥٥ .

فيليب حتي : Ph. Hitti لبناني مسيحي تأمرك، كان أستاذاً بقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا ثم رئيساً لهذا القسم، وهو الآن بالمعاش، من ألد أعداء الإسلام، ويتظاهر بالدفاع عن القضايا العربية في أمريكا، وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية في شئون الشرق الأوسط، يحاول دائماً أن ينتقص دور الإسلام في بناء الثقافة الإنسانية، ويكره أن يُنسب للمسلمين أي فضل، فقد كتب - على سبيل المثال - في « دائرة المعارف الأمريكية » طبع سنة ١٩٤٨ تحت عنوان « الأدب العربي » ص١٢٩ يقول: « ولم تبدأ أمارات الحياة الأدبية الجديدة بالظهور إلا في القسم الأخير من القرن التاسع عشر، وكان الكثرة من قادة هذه الحركة الجديدة نصارى من لبنان تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الأمريكيين » . ومحاولات « حتي » انتقاص فضل الإسلام والمسلمين ليست فقط قاصرة على العصر الحديث ولكنها تنطبق على جميع مراحل التاريخ الإسلامي، كما هو موضح في كتبه التي نذكر منها:

١ - « تاريخ العرب » ظهر بالإنجليزية، وأُعيد طبعه عدة مرات، وهو مليء بالطعن في الإسلام والسخرية من نبيه، وكله حقد وسم وكراهية، انظر مثلاً مجلة « الإسلام » الإنجليزية Al - Islam التي تصدر في كراتشي - باكستان ص ١٣٨ من عدد أبريل سنة ١٩٥٨ ، ص ١٤٦ من عدد أول مايو سنة ١٩٥٨ .

٢ - «تاريخ سوريا».

٣ - «أصل الدروز وديانتهم» صدر في سنة ١٩٢٨.

■ أ. ج فينسينك: A.J. wensink عدو لدود للإسلام ونبيه، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري ثم أُخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب حسين الهواري، مؤلف كتاب «المستشرقون والإسلام» صدر في سنة ١٩٣٦، وحدث ذلك بعد أن نشر فينسينك رأيه في القرآن والرسول ﷺ مدّعيًا أن الرسول ألّف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته، انظر «المستشرقون والإسلام» ص٧١ وما بعدها، هذا والمعروف لفينسينك كتاب تحت عنوان «عقيدة الإسلام» صدر في سنة ١٩٣٢.

■ كينيت كراج: K. Cragg أمريكي شديد التعصب ضد الإسلام، قام بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة لفترة من الوقت والآن رئيس تحرير مجلة «العالم الإسلامي» الأمريكية التبشيرية ورئيس قسم اللاهوت المسيحي في هارتفورد «ومتعهد» مبشرين، ومن كتبه «دعوة المئذنة» صدر في عام ١٩٥٦.

■ لوي ماسينيون: L. Massignon أكبر مستشرقي فرنسا المعاصرين، ومستشار وزراة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال أفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، زار العالم الإسلامي أكثر من مرة وخدم بالجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي العربي في دمشق، متخصص في الفلسفة والتصوف الإسلامي، ومن كتبه:

«الحلاج الصوفي الشهيد في الإسلام» صدر في سنة ١٩٢٢، وله كتب وأبحاث أخرى عن الفلسفة والتصوف، وهو من كبار محرري «دائرة المعارف الإسلامية».

■ د. ب. ماكدونالد: D.B. Macdonald أمريكي من أشد المتعصبين ضد

الإسلام والمسلمين، يصدر في كتاباته عن روح تبشيرية متأصلة ، من كبار محرري « دائرة المعارف الإسلامية » ومن كتبه:

١ - « تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام » صدر في سنة ١٩٠٣.

٢ - «الموقف الديني والحياة في الإسلام» صدر في سنة ١٩٠٨.

■ مايلز جرين: M. Green سكرتير تحرير مجلة « الشرق الأوسط » .

مجيد قدوري: مسيحي عراقي، رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة جون هوبكنز في واشنطن، ومدير معهد الشرق الأوسط للأبحاث والتربية بواشنطن، متعصب حقود على الإسلام وأبنائه، ومن كتبه المشحونة بالطعن والأخطاء «الحرب والسلام في الإسلام» صدر في سنة ١٩٥٥، وله مقالات أخرى.

■ د. س. مرجوليوث: D.S. Margoliouth إنجليزي متعصب ضد الإسلام ومن محرري « دائرة المعارف الإسلامية » كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي في دمشق، من كتبه:

١ - « التطوات المبكرة في الإسلام » صدر في سنة ١٩١٣.

٢ - « محمد ومطلع الإسلام» صدر في سنة ١٩٠٥.

٣ - « الجامعة الإسلامية » صدر في سنة ١٩١٢.

■ ر. ا. نيكولسون: R. A. Nickolson كان من أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين ومن محرري « دائرة المعارف » تخصص في التصوف الإسلامي والفلسفة وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، وهو من المنكرين على الإسلام أنه دين روحي ويصفه بالمادية وعدم السمو الإنساني، ومن كتبه :

١ - « متصوفو الإسلام» صدر في سنة ١٩١٠.

٢ – « التاريخ الأدبي للعرب » صدر في سنة ١٩٣٠.

■ هارفلي هول: رئيس تحرير « مجلة الشرق الأوسط » الأمريكية،وخطورته أنه يوجه سياسة مجلة من أهم المجلات المعنية بشئون الشرق الأوسط السياسية والثقافية في العصر الحديث.

■ هنري لامنس اليسوعي: H. Lammens فرنسي ١٨٧٢ – ١٩٣٧ من محرري دائرة المعارف الإسلامية ، شديد التعصب ضد الإسلام والحقد عليه، مفرط في عدائه وافتراءاته لدرجة أقلقت بعض المستشرقين أنفسهم (انظر ص ١٥، ١٦ من ١، من المجلد ٩ يناير سنة ١٩٢٥ من « مجلة جمعية الدراسات الشرقية » الأمريكية، ومن كتبه بالفرنسية :

١ – « الإسلام ».

٢ – « الطائف ».

■ يوسف شاخت: J. Schacht ألماني متعصب ضد الإسلام والمسلمين، له كتب كثيرة عن الفقه الإسلامي وأصوله، من محرري « دائرة المعارف الإسلامي » ودائرة معارف العلوم الإجتماعية ، وأشهر كتبه: « أصول الفقه الإسلامي ».

بعض الكتب الخطيرة التي لها مكانة علمية عند بعض الناس:

موضوعات:

١ – « دائرة المعارف الإسلامية »: The Encyclopaedia of Islam صدر بعدة لغات حية يعاد طبعها في الوقت الحاضر، وقد ظهر بعض أجزاء الطبعة الجديدة.

٢ – « موجز دائرة المعارف الإسلامية » Shorter Encyclopaedia of Islam .

٣ – « دائرة معارف الدين والأخلاق » Encyclopaedia of Religion And Ethics .

المقالات المتعلقة بموضوعات إسلامية:

٤ - « دائرة معارف العلوم الإجتماعية » Encyclopaedia of Social Sciences (الموضوعات المتصلة بالإسلام والعرب).

٥ - « دراسة في التاريخ » (القسم المتصل بالإسلام ورسوله) من تأليف أرنولد توينبي A. Toynbee

الكتب:

١ - « حياة محمد » من تأليف سير وليام موير W. Muir

٢ - « الإسلام » من تأليف ألفرد جيوم A. Geom

٣ - « دين الشيعة » من تأليف د. م. دونالدسون D. M. Donaldson

٤ - « تاريخ شارل الكبير » من تأليف القس تيربن Bishop Turpin

٥ - « الإسلام » ظهر بالفرنسية من تأليف هنري لامنس H. Lammens

٦ - « الإسلام » (تحد لعقيدة) ظهر بالإنجليزية من تأليف المبشر زويمر S.M.Zweimer

٧ - « دعوة المئذنة » ظهر بالإنجليزية من تأليف كينيت كراج K. Cragg

٨ - « الإسلام اليوم » بالإنجليزية من تأليف ا. ج. آربري A. J. Aberry

٩ - « ترجمة القرآن » الترجمة الإنجليزية من وضع ا. ج. آربري.

١٠ - « تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي » ظهر بالألمانية وتُرجم إلى العربية، من تأليف جولد تسيهر: Gold Ziher .

١١ - « تاريخ العرب » ظهر بالإنجليزية والعربية وطبع عدة طبعات، من تأليف فيليب حتي.

١٢ - « اليهودية في الإسلام » ظهر بالإنجليزية من تأليف إبراهام كاش.

١٣ – «عقيدة الإسلام» ظهر بالإنجليزية من تأليف ا.ج. فينسينك Wensink

١٤ – «الحلاج الصوفي الشهيد في الإسلام» ظهر بالفرنسية من تأليف لوي ماسينيون L. Massignon .

١٥ – «الحرب والسلام في الإسلام» ظهر بالإنجليزية من تأليف مجيد قدوري.

١٦ – «تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام» ظهر بالإنجليزية من تأليف د. ب. ماكدونالد D.B. Macdonald .

١٧ – «الإتجاهات الحديثة في الإسلام» ظهر بالإنجليزية وترجم إلى العربية، من تأليف هـ. ا. ر. جب Gibb .

١٨ – «طريق الإسلام» ظهر بالإنجليزية وتُرجم إلى العربية من تأليف جماعة من المستشرقين، اشترك في تأليفه ونشره هـ.ا.ر. جب Gibb .

١٩ – «التصوف في الإسلام» ظهر بالإنجليزية وترجم إلى العربية من تأليف ر. ا. نيكلسون Nicholson .

٢٠ – «مصادر تاريخ القرآن» بالإنجليزية من تأليف آرثر جيفري Arthur Jeffry .

٢١ – «أصول الإسلام في بيئته المسيحية» بالإنجليزية من تأليف ر. بل R.Bell.

٢٢ – «مقدمة القرآن» بالإنجليزية من تأليف ر. بل.

٢٣ – «التطورات المبكرة في الإسلام» بالإنجليزية من تأليف د. س. مرجوليوث D.S. Margoliouth .

٢٤ – «محمد ومطلع الإسلام» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٢٥ – «الإسلام» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٢٦ – «الجامعة الإسلامية» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٢٧ – «قنطرة إلى الإسلام» ظهر بالإنجليزية من تأليف أريك بيتمان.

٢٨ – «إسلام العصور الوسطى» ظهر بالإنجليزية من تأليف ج. فون. جرونباوم G. Von Grunebaun.

٢٩ – «الإسلام» مجموعة مقالات متفرقة ظهرت بالإنجليزية للمؤلف السابق.

٣٠ – «الأعياد المحمدية» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٣١ – «الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٣٢ – «دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية» بالإنجليزية ولنفس المؤلف.

٣٣ – «محاولات.. في شرح الإسلام المعاصر» مجموعة مقالات ظهرت بالإنجليزية لنفس المؤلف.

ثانيًا - الجمود المذهبي في التعامل مع التراث:

الناس قديمًا وحديثًا، إن لم يجمعهم الحق شعّبهم الباطل، وإن لم توحدهم عبادة الله مزقتهم عبادة الشيطان وإن لم يستهوهم نعيم الآخرة تنازعوا على متاع الدنيا الفانية، وأسباب الإختلاف بين البشر كثيرة، ومنها غموض الموضوع في ذاته، والنظرات التبعيضية التجزيئية في التعامل معه.

ومثال ذلك: عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده، وقيل لهم: صفوا لنا الفيل، فأخبر الذي مسّ الرّجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة، وأخبر الذي مس الظهر أن خلقته تشبه الهضبة العالية والرابية المرتفعة، وأخبر الذي مسّ أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره، فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك، وكل يكذب صاحبه ويدعي عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل، ولا ريب أن الفيل فيه هذه الأجزاء مجتمعة، وقديمًا قالوا: إذا عُرف موضع النزاع بطل كل نزاع.

ومن أسباب الإختلاف بين الناس اختلاف الرغبات والشهوات واختلاف الإتجاه وتقليد السابقين وما يترتب على ذلك من تعصب، وكذلك ما نراه من تفاوت المدارك وطبائع العقول، وقد تكون العصبية القومية أو العنصرية سببًا في

الإختلاف وهي داخلة في حب الرياسة والسلطان، وقد يندفع البعض في نصرة حاكم ضال مضل ويُعلن آراءه زاعمًا أن ما يدعو إليه هو الحق، والخطر يكمن في منافق عليم اللسان غير حكيم القلب، يغريهم بفصاحته وبيانه، ويضلهم بجهله، لقد لوى البعض حقائق التراث، ونظر للدنيا بمنظار القومية أو الإشتراكية أو الديمقراطية، وفسر آخرون حوادث الكون تفسيرًا وجوديًا أو جنسيًا... وهكذا فكل إناء بما فيه ينضح، إن من أعظم النظريات التي تؤسس الفكر البشري المنحط، نظرية ماركس (المعدة)، ونظرية فرويد (الجنس)، ونظرية دور كايم (مسئولية المجتمع) يتكلمون عن نسبية الأخلاق وحياتهم أشبه بلوثة مادية.

فإذا انتقلنا إلى دائرة المسلمين وجدنا أن الخلاف قد دبّ بسبب ترجمة الفلسفة حتى ظهر من علماء المسلمين من نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين وأخذوا بطريقتهم كابن سينا والفارابي والكندي والرازي... واختلط أمر الإنبهار بطب ابن سينا بفلسفته المريضة، وكان لدخول كثيرين من أهل الديانات القديمة في الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس، دور كبير في ظهور الكثير من الفِرَق كالصوفية والشيعة، فقد سيطرت على كثير من هؤلاء العقائد والمشاعر الموروثة من الديانات القديمة ، هذا بالإضافة إلى دخول البعض في الإسلام ظاهرًا؛ لإفساده وبث الأفكار المنحرفة كما كان يفعل الزنادقة وغيرهم من المنحرفين، حتى طُعن في الإسلام باسم الإسلام، وحورب الإسلام بيد أبنائه بعدما كان يُحارب بيد أعدائه.

وكذلك من أسباب الخلاف العصبية العربية، والتنازع على الخلافة، وشيوع التفكير الفلسفي وعلم الكلام، بل أدى الخلاف الفقهي في استنباط الأحكام الشرعية إلى نوع من التعصب والجمود المذهبي، حتى صار البعض يرد كل ما خالف إمامه ولا يقبل منه شيئًا حتى ولو استبانت له الحجة، وقد نهى الأئمة عن هذا التعصب، وعن هذا الجمود وذموه وعدّوه من جملة البدع، والتمذهب بمذهب إمام معين من الأمور الجائزة للعاجز عن الإجتهاد لعذر وليس بلازم؛ إذْ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، والإنتقال بين المذاهب بمجرد التشهي بغير دليل

والإنتقاء من المذاهب ما يناسب الهوى بدعة ضلالة ومنكر يخالف الإجماع، ومن تتبع رخص المذاهب تجمع فيه الشر كله، فكيف بمن تتبع زلات العلماء وصنع منها دينًا، ولا سبيل لحسم هذا التمذهب المذموم إلا بإسلام الوجه لله تعالى والرجوع للكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، والأخذ بالحجة التي يأخذ بها العلماء، ومن استبانت له السُّنّة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس، فالتحاكم إلى الله ورسوله يقطع الخلاف، فإن لم تتضح الحجة عذر كلٌّ أخاه، ووُكل سريرته إلى الله عز وجل، وأحسن الظن بأخيه وأساء الظن بنفسه.

ثالثًا - التراث في حقبة العولمة:

العولمة من المصطلحات التي تتردد في هذه الآونة بكثرة، فبعد انهيار الإتحاد السوفيتي برزت أمريكا كقوة عظمى، تقود المجتمع الدولي وتفرض عليه هيمنتها، وصار على الدنيا أن تطبق اتفاقيات الجات، وأن تصبح نظمًا ديمقراطية، وأن تشيع فيها أجواء الحرية - الحرية الشخصية، وحرية الرأي والتعبير والفكر، بالإضافة إلى حرية التملك - ولم يعد يُعمل للمسلمين أي حساب نتيجة ضعفهم وانصرافهم عن دينهم، بل صارت كثير من بلدانهم نهبة لأعداء الإسلام والمسلمين يعيثون فيها قتلاً ودمارًا، ويُطالب المسلمون بتغيير الكثير من الأحكام الشرعية كمفهوم الولاء والبراء والجهاد... بل وصل الأمر إلى أن طرح عليهم أعداؤهم قرآنًا بديلاً هو (الفرقان الحق) ويُطلب منهم اللحاق بثقافة الغرب مما ينذر بطمس الهوية وإضاعة التراث الحضاري لهذه الأمة إن تم للأعداء ذلك - ولن يتم بإذن الله - فقد تكفل سبحانه بحفظ دينه، وحفظ من يقوم به على مر العصور، ويجدر بنا الإشارة إلى ذكر الطوائف التي تسعى لإقامة نظامها وسط هذا الصخب.

(أ) اليهود - لعنهم الله - يسعون لإقامة الدولة العالمية:

إن إقامة دولة لليهود في فلسطين جاء ثمرة لأمور عديدة، فهذه الدولة هي

ثمرة الجهد اليهودي المنظم، وثمرة هيئة الأمم المشبوهة، وثمرة الخيانة لبعض زعماء العرب، وهي ثمرة التآمر الماسوني الصهيوني الذي أقصى السلطان عبد الحميد وأتى بأتاتورك والحرب العالمية الأولى، وهي ثمرة التآمر البريطاني ووعد بلفور، ثم هي قبل كل شيء وبعده انتقام رباني بسبب نسياننا لديننا، إنهم لم يكتفوا بانتزاع الحق من أهله والإستيلاء على المقدسات في غفلة من أصحابها، بل استطاعوا أن ينتزعوا الإعتراف بدولة إسرائيل من المسلمين !! ، وأن يقيموا علاقات طبيعية معهم، ويفرضوا سياسة الأمر الواقع في صورة سلام ذليل مهين تُوِّج في النهاية باتفاق غزة – أريحا، بين الجانب الفلسطيني والجانب اليهودي، وهكذا أراد لهذه القضية الإسلامية الكبرى أن تنتهي وتموت، فمن لا يملك يعطي من لا يستحق، وبينما يحرص اليهود على جمع شتاتهم من كل بلاد العالم لإقامة دولة إسرائيل الكبرى وهدم المسجد الأقصي لإقامة هيكل سليمان على أنقاضه، وبحيث تصبح القدس عاصمة لهذه الدولة العالمية، ويتكلم ساستهم وزعماؤهم بلغة الدين المحرف والمبدل، فلا مساومة عندهم على القدس «أورشليم» وأرض فلسطين هي أرض الميعاد، وشعبهم هو شعب الله المختار، بل هم ما تنازلوا عن أريحا إلا لأن التوراة المغيَّرة تقول لهم:

«ملعون من عمّرها، ويفقد بكره من أقام فيها» وفي المقابل وجدنا أنفسنا نخجل من إظهار شعائر ديننا الحق، بل يعترينا الخجل ونتجرع المرارة عندما نرى آثار الفرقة والخلاف في جوانب كثيرة من حياتنا، فالحدود المصطنعة التي حالت دون اتصال المسلم بأخيه والنعرات الزائفة كالوطنية والقومية ... وغياب المنهج الإسلامي وعدم تطبيق الشريعة، وغيرها كثير من سياسات فرِّق تسُد، مما مكن الأعداء من رقابنا وسهَّل عليهم افتراسنا واحدة تلو الأخرى، فالسوري والعراقي والأردني، لا يفكر إلا في حدود مصلحته الوطنية، زعموا !!! .

أما قضية الإسلام والمسلمين، وإقامة الشرع والدين والإحساس، والشعور

بشعور الجسد الواحد فقد غاب من حياتنا، وما لجرح بميت إيلام، ولذلك فلا غرابة أن يُدار أمرنا على موائد اللئام بهذه الكيفية، فقد ذهبت الوفود إلى مؤتمر السلام، وكل يتحدث عن نفسه، لا يصح له أن يتحدث عن غيره، واليهود طرف في مواجهة هؤلاء جميعًا، وهكذا أصبحت كل صور المذلة والمهانة والضياع وكأنها أمور واقعية، لا ننتبه لها وإذا انتبهنا فلن نلقى لها بالاً !! . وهل تصلح هذه الشرذمة وهذا التفرُّق لاسترداد المسجد الأقصى، أُولى القبلتين، وثالث الحرمين ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)** ﴾ [الإسراء: ١] .

لا نستغرب إذا تلاعب اليهود بنا كما يتلاعب الصبيان بالكرة، فقد غابت الخلافة والوحدة الإسلامية، وضيعنا الإسلام، ولا تصلح هذه البدائل المهزوزة في مواجهة اليهود كالإشتراكية والديمقراطية والفرعونية والبعثية والنصيرية والكتاب الأخضر .

وختامًا نقول: إن عدونا الجاثم على صدورنا، وفي بقاعنا المقدسة ومن يؤيده من يهود العالم وكثير من مسيحي الغرب ودول العالم ولا سيما أمريكا وروسيا وإخطبوط الماسونية العالمي، لا يمكن أن يرهبنا إذا اعتصمنا بجناب الله وعدنا إلى إسلامنا واستشعرنا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

(ب) النظام العالمي الجديد « القديم »:

كان الجهاد الأفغاني بمثابة أول مسمار في نعش الشيوعية العالمية، فقد انصرفت روسيا – القوة العظمى الثانية– إلى أمورها الداخلية تاركة حلفاءها، مما أدى لتراجع الدب الروسي أمام أمريكا – وإن كانت الشيوعية والرأسمالية وجهان لعملة يهودية واحدة – وهذا مهد الطريق للهيمنة الأمريكية كقوة استعمارية تفرض نظامها على شعوب العالم، واعتبرت أمريكا نفسها شرطي العالم الذي يسعى لفرض القانون الدولي والنظام العالمي والشرعية الدولية !!! .

وأنها تملك المكانة الأخلاقية لنشر السلام والحرية في العالم، وكانت بداية الحديث عن الإرهاب الدولي، ثم تجارة المخدرات ثم الأصولية والأصوليين، ووصفوا الأصولي بأنه يدين بالولاء والتبعية لمنهج الإسلام وحده، ولا يقبل بالهيمنة الأمريكية ووصاية الغرب، وأنه يؤمن بأن الإسلام هو وحده، وأن تعاليمه التي تعود لأكثر من ألف وأربعمائة سنة يمكن أن يقوم على أساسها دولة في القرن العشرين، وأنهم يرفضون الإسلام المُعلَّب المودرن، الذي صُمم في لندن أو باريس أو واشنطن، وأن الأصولية تهدد كل الأنظمة الوادعة والصديقة، وذكروا أن الغرب اكتشف أن التطرف الديني أخطر بكثير من الشيوعية، ولا يخفى على أحد ما الذي فعلته أمريكا في ڤيتنام، وكيف قتلوا ربع مليون شخص في ظهرهم أثناء انسحابهم، وإمدادهم اليهود بترسانة أسلحة لقتل الفلسطينيين ودعمهم الإنقلابات هنا وهناك، وكان آخر ذلك محاولاتهم الإستيلاء على الصومال تحت اسم زرع الأمل !! .

إن الحرب دائرة بين الإسلام وأعدائه، وقد أسفر هؤلاء الأعداء عن وجوههم القبيحة وكثرت تصريحاتهم في الآونة الأخيرة، بأن الإسلام هو العدو الذي يعد له حلف الأطلنطي العُدة للقضاء عليه، والله غالب على أمره ومُتم نوره ولو كره الكافرون، فاليهود والأمريكان وأوروبا لا يقولون للشيء كن فيكون، وكلهم في قبضته سبحانه، وقد رأينا الدمار الذي ألحقه فيضان المسيسيبي وإعصار أندرو بالأمريكان، ولعل الله يلحق بهم مصيراً مثل الذي لقيه الروس على يد المجاهدين في أفغانستان ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٤، ٤٥]، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، فهيا بنا نعد لهم كما يعدون لنا ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فنحن أحق منهم بإقامة النظام العالمي الواحد .

(جـ) الوحدة الأوروبية « معاهدة ماستريخت » :

أقامت أوروبا سوقًا أوروبية مشتركة وشاركت في حلف الأطلنطي، ولم تكتف بذلك، بل سعت في إتمام معاني الوحدة الأوروبية فأبرمت معاهدة ماستريخت، لأنها رأت أن لديها مقومات هذه الوحدة فَنُظُمُها ديمقراطية متشابهة، ومصلحتها واحدة، والعصر الذي نعيش فيه هو عصر التكتلات والتجمعات القوية، فلا مكان لضعيف في عالم الغابات، وأوروبا عندما سعت لتحقيق وحدتها كانت تسير سيرًا حثيثًا، في سبيل تفتيت المسلمين وإضعافهم وتفريق كلمتهم، ونظرة سريعة على ما حدث في العراق وفلسطين وما يحدث في البوسنة والهرسك وروسيا يدل على ذلك، ولا نقول: هم يكيلون بمكيالين، بل هو مكيال واحد، فالأطماع والحروب الصليبية لم تنته ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

نحن لا نستغرب لموقف هؤلاء الأعداء، ولا ننتظر منهم غير ذلك، فسُنن التدافع بين الحق والباطل والإيمان والكفر ماضية في الخلق ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ولكن الغرابة ممن يملك كل مقومات الوحدة الإسلامية، ثم هو لا يسعى في تحقيقها، وهل ليس بمقدورنا أن نقيم سوقًا إسلامية مشتركة، وقوة عسكرية رادعة وعملة موحدة، وخصوصًا ونحن نملك عقيدة وشريعة وتاريخًا ولغة وغاية ومصالح... واحدة، وأعدادنا كبيرة ومليارتنا المودعة في بنوك أوروبا وأمريكا كثيرة... !!!. بل لك أن تحزن أكثر عندما تجد الوحدة بين بلدين مسلمين تموت قبل أن تولد، وتحمل في طياتها عوامل فشلها، لأنها لم تقم على أساس من الإسلام ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢)** ﴾ [الملك: ٢٢]، ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)** ﴾ [الإسراء: ٧٢].

الديمقراطية صنم العصر(١)

الديمقراطية دين عند أهلها، ويُراد فرضها على المسلمين، وقد لهجت بها ألسنة الكثيرين، فهذا يقول: طبقوا الديمقراطية، والثاني يقول: نحن نعيش على هامش الديمقراطية.. والثالث يقول: لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية، والرابع يقول: بيدنا لا بيد عمرو، فالديمقراطية لا تُفرض من الخارج بل لابد وأن تأتي من الداخل... كلمات كثيرة ليس للإسلام فيها نصيب؛ ولذلك نحتاج لإلقاء شيء من الضوء على هذا المصطلح الوافد المستورد.

الديُمقراطية:

الديمقراطية معناها الحرفي: حكم الشعب، أو حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، فالسلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية منبثقة من الشعب، وتحكم أيضاً باسم الشعب، والشعب باختياره الحر يقوم بتنصيب حكامه، فالشورى وانتخاب الحاكم ومناقشة رئيس الدولة هذه هي الديمقراطية وهي تستلزم وتتضمن إعطاء الحريات للناس مثل :

[١] حرية العقيدة. [٢] حرية الرأى.

[٣] حرية التملك. [٤] الحرية الشخصية.

والديمقراطية نظام مأخوذ من النظام اليوناني القديم، وقد ارتبطت الديمقراطية بمبدأ سياسي واقتصادي، وهو الليبرالية والرأسمالية.

تعريفات لا بد منها :

[١] الليبرالية :

« معناها الحرفي - الفكر الحر » وتقوم على العلمانية « أي اللادينية، وليست

---

(١) راجع كتابنا « الديمقراطية في الميزان ».

مأخوذة من العلم » التي تفصل الدين عن الدولة، فالدين لله والوطن للجميع، وتدعو لحرية المرأة والتبرج والإختلاط، وأن يكون الإقتصاد رأسمالياً، وأن تكون النزعة قومية عنصرية، والغرب يدين بهذا المنهج، وقد قامت أحزاب على أساسه كحزب الوفد.

[٢] الرأسمالية :

نظام اقتصادي غربي وله عقيدته التي تقوم على العلمانية « اللادينية » - وكل نظام له عقيدة - وهذا النظام يطلق عليه البعض أحياناً اسم نظام إمبريالي « أي استعماري »، وأصحاب رؤوس الأموال يطلق عليهم إسم الطبقة البرجوازية.

[٣] الرأسمالية والإشتراكية وجهان لعمله واحدة :

وكلاهما وليدة اليهودية العالمية، وكل نظام يسعى لحمل الآخر إذا سقط وفشل وفق سياسات محسوبة، والبروليتاريا « هي الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين» وهي التي يقولون عنها أنها تناضل من أجل إنتزاع حقها من البرجوازية والإمبريالية.

تحذير لابد منه :

فقد وفدت علينا ألفاظ ومصطلحات كثيرة مستوردة مع الغزو الفكري، واختلفت كذلك كثير من المصطلحات الإسلامية، وتكلم بهذه الكلمات الوافدة كالليبرالية وغيرها أحياناً من لا يتهم في دين ولا صدق نية،كانوا ضحايا الفكر العلماني الوافد، بل ولم يسلم حتى أصحاب المدرسة العقلانية كمحمد عبده وغيره من هذه الهجمة الشرسة، فالواجب علينا تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية وأن نزن كل كلمة بالميزان الشرعي، هذا إذا أردنا إقامة البشرية على المنهج الرباني لا إقامة خليط من هذه المناهج والمفاهيم المتضادة، وأن نعلم أنه لا إلتقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى الضلال، ولا بين الإسلام والكفر، وأن الكفر ملة واحدة سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين وثنيين أو شيوعيين،

وأنه لابد من البراءة من الشرك والمشركين، وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام الذي ارتضاه ربنا للعالمين.

لا مشاحة في الإصطلاح، هذا إذا كان الإصطلاح لا يصادم ما جاء في كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، ولكل مصطلح معنى متفق عليه عند أهله، فإذا كان الإصطلاح يخالف معناه في الإسلام من معان، فلا يجوز ذكره على سبيل الدعوة إليه وإن قيد بوصف إسلامي له، كما يحلو للبعض أن يصنع فيضيف الإسلام للفن أو الإشتراكية أو الديمقراطية على سبيل الترويج لهذه البضائع الفاسدة، وإلا فما علاقة الإسلام بالإشتراكية الشيوعية، وما علاقة الإسلام بهذا الفن الرخيص من عري وخلاعة ورقص وغناء وفحش وتفحش ؟!! فالواجب على كل مسلم أن يتقي الله في أقواله وأفعاله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وقد حذرنا رب العزة جل وعلا من النطق بكلمة راعنا لأن اليهود ينطقون بها وكانت فيهم قبيحة فقد كانوا يقصدون بها التنقص من شخص رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وعلى الرغم من أن المسلم لا يمكن أن يكون مقصوده كمقصود اليهود، وبالرغم من هذا كان التحذير والنهي «ومن تشبه بقوم فهم منهم» [أخرجه أحمد]، ولابد من صحة العلم بالإضافة لإخلاص النية، واللغة العربية هي لغة القرآن، والقرآن نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فلا داعي لترويج كلمات وافدة مستوردة لا ندري ما معناها ولا ما يراد من ورائها، وترديد كلمات كالديمقراطية فيه ترويض للعقول بقبول الديمقراطية بمعناها الحقيقي، وقد أمرنا بمخالفة أهل الباطل، والإبتعاد عن آرائهم الزائفة.

يقول الأستاذ محمد قطب في كتاب « واقعنا المعاصر » (ص ٣١٤) أثناء حديثه عن سعد زغلول: « هنا ينبغي أن ترجع إلى لطفي السيد، وإلى نازلي

هانم، وأثر الصالون بعامة في قلب الرجل الأزهري دارس الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي « يقصد بذلك سعد زغلول »، فإن كرومر لم يضعه في وزارة المعارف إلا بعد أن اطمأن إلى تهذيبه في الصالون، هذه واحدة، ثم كان سعد هو الوكيل المنتخب لمجلس شورى القوانين بحكم « شعبيته » الذائعة الصيت،وينبغي أن نعرف أولاً ما هو مجلس شورى القوانين، إنه في ظاهره مجلس نيابي لتعويد الشعب أن يحكم نفسه بنفسه، وما كان الإنجليز حريصين قط – في أي بلد احتلوه – على أن يردوا السلطة للشعب الذي اغتصبوا حريته وأخضعوه لهم بالحديد والنار، إنما كان الهدف الحقيقي من هذا المجلس هو إصدار قوانين تحكم البلاد بدلاً من الشريعة الإسلامية، وما كان الإستعمار الصليبي – في مصر خاصة – يرغب أن يستقل بسلطة إصدار القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية، رغم ما له من سلطان كما صنع في الهند مثلاً لأن مصر بلد الأزهر، وبلد علماء الدين لعدة قرون، ومن الخير له حسب أسلوبه الذي اتبعه في مصر، الأسلوب البطيء الأكيد المفعول أن تكون هناك سلطة « شعبية » هي التي تعطي الشرعية لهذه القوانين، فيكون الشعب هو الذي يصدر القوانين المخالفة للشريعة بمعرفته وبرغبته، وتكون سياسة الإستعمار هي التظاهر بالغضب والإستياء من أن الشعب يريد أن يفرض إرادته على المستعمرين، وفي وسط اللعبة تمر القوانين المطلوبة كأنها كسب للشعب جاء رغم إرادة الاستعمار، وكان للمجلس وكيلان، أحدهما معين والآخر منتخب، وكان الوكيل المنتخب هو سعد زغلول فقد كان له في ذلك الوقت من الشهرة الشعبية ما يجعله ينتخب بسهولة في ذلك المكان، نعم كان هو الممثل الشعبي الذي يعبر – بمنصبه هذا – عن كون الشعب ممثلاً في المجلس.

ولكن أي شعب كان يمثله سعد وهو يصوغ القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية ويمنحها الشرعية، هل هو شعب مصر المسلم الذي ينبغي بمقتضى إسلامه أن يتحاكم إلى شريعة الله ويرفض التحاكم إلى كل شريعة غير شريعة الله؟ وبصرف النظر عن حال الشعب يومئذ – من إقبال على الإسلام أو إدبار أو إهمال

هذه القضية بالكلية، فإن سعداً ليس فرداً عادياً من الشعب بل هو قائد وزعيم، والقيادة معناها توجيه الأمة إلى ما ينبغي أن تتجه إليه وإيقاظها له إن كانت غافلة عنه وتجنيدها له بكل طاقاتها حتى تصل إلى تحقيقه – وسعد بثقافته – ليس بعيداً عن مجال الشريعة، بل هي مجال دراسته في الأزهر، فأين ذهبت حساسيته للإسلام حتى صار موضوع فخره أنه الوكيل المنتخب للمجلس الذي يصوغ القوانين الوضعية لتحكم الناس بدلاً من الشريعة الإسلامية ؟! » اهـ.

الديمقراطية العلمانية اللادينية ومبدأ فصل الدين عن الدولة:

الفارق كبير بين الإسلام والديمقراطية أو العلمانية، يظهر ذلك في المنشأ والطريق والغاية ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) ﴾ [الملك : ٢٢]، والبصيرة تقتضي منا أن نستصحب هذه الموازين والضوابط التي تكلمنا عنها في حكمنا على الديمقراطية وما تنطوي عليه من مبادئ، وللإسلام حكمه في كل شئ، وهو يعلو ولا يُعلى عليه، بما فيه من سمات الربانية والعموم والشمول وغيرها، ومن لدن آدم حتى قيام الساعة لا يمكن أن تسعد البشرية بدونه، وبحسب إنحرافها عن منهج الإسلام بحسب الضنك والشقاء الذي تعانيه، ولو جاز لنا أن نلتمس عذراً للغرب أو الشرق في تباعده عن دين الله ومناداته بهذه المناهج والفلسفات، فإننا لا نجد عذراً لهذه الأمة في الإنسلاخ عن دينها ومتابعتها للكفرة والملاحدة في فصل الدين عن الدولة، وإسلامها يناديها من يوم بدر وأُحد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران : ١٤٤].

ومعلوم للقاصي وللداني أن النَّبي ﷺ أقام دولة بالمدينة واتسعت رقعتها في عهده وعهد الخلفاء من بعده، وكان يحكم بالإسلام لا بشيء سواه في نواحي الحياة المختلفة.

يقول النَّبي ﷺ : «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت**» [رواه أحمد والطبراني والبزار]. وإذا كانت معاني الخيرية قد قلّت في الأمة جيلاً بعد جيل، إلا أن حكام المسلمين كانوا يحرصون على الحكم بكتاب الله وبسُنة رسول الله ﷺ، وإن وجدت أخطاء في التطبيق وظلم وجهل في بعض الأحيان، فالعيب فينا وليس في شرع الله عز وجل، وعلى العباد جميعاً أن يستقيموا على أمر ربهم إن أرادوا سعادة وفلاحاً في الدنيا والآخرة، وقد استخدم أعداء الإسلام عيوب المسلمين وأخطائهم في التشهير بالإسلام ذاته، والتنفير منه حتى يتيسر لهم إقصاءه عن الدنيا وحكمها، وكأن علاج المريض هو البتر والإهلاك، ولا سبيل لإصلاح العوج والخلل.

صنعوا ذلك مع الخلافة العثمانية والعباسية والأموية، بل وامتدت أيديهم إلى تزييف وتشويه وتدليس صور صحابة النَّبي ﷺ الكرام الذين نقلوا لنا الإسلام، فدرسوا لنا قصة الخلاف بين عليّ ومعاوية، وكذبوا على صحابة النَّبي ﷺ حين صوروهم على أنهم طالبوا ملك ورئاسة يتنازعون على ذلك، ويحتال بعضهم على البعض الآخر، وانحصر تاريخ الأمة بعد ذلك في قصة هارون الرشيد والخلافة العباسية – خلافة الفسق والمجون كما ذكروا – والخلافة العثمانية التي هي خلافة الجهل والفقر والمرض!! وأصبح لزاماً على أبناء الأمة المسلمة أن يتطلعوا لتاريخ الشرق والغرب المجيد، وإلى عظمة الرجل الأبيض وحضارته، ولكي يتم لهم التقدم والتطور فعليهم أن يقلدوا الغرب، ولا سبيل لذلك إلا بفصل الدين عن الدولة، فيقبع الإسلام داخل المسجد بمن يسمون رجال الدين، وتحكم الدولة بعد ذلك بمن يسمون رجال الدولة « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » أو الدين لله والوطن للجميع، ثم إذا طالب الناس بالعودة والرجوع لدين الله قالوا لهم : هل تريدون منا أن نعود لعهد هارون الرشيد أو عهود الديكتاتورية والرجعية

والتخلف ؟!!، وأصبحت الديمقراطية هي الحل البديل، والعلمانية اللادينية هي سبيل الإصلاح عند قوم قد ضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

العلمانية والعلمانيون في العالم العربي والإسلامي :

أصبحت الآن العلمانية هي اللافتة المرفوعة على أنظمة الحكم في معظم بلدان العالم العربي والإسلامى،وأصبح يروج لها بكل وسائل الإعلام،ويدعو ويبشر بها كتاب وساسة ومفكرون، وتقوم على أساسها أحزاب تحمل مبادئها ومن دعاتها : « أحمد لطفي السيد – إسماعيل مظهر – قاسم أمين – طه حسين – عبد العزيز فهمي – ميشيل عفلق – أنطون سعادة – سوكارنو – سوهارتو – نهرو – مصطفى كمال أتاتورك – جمال عبد الناصر » وغير هؤلاء كثير ممن لا يزالون أحياء ينفثون سمومهم في جسم هذه الأمة.

يقول لطفي الخولي (أحد دعاة العلمانية المعاصرين) في ندوة مناقشة ما يسمى بالتطرف الديني، وكان العلمانيون قد تجاذبوا أطراف الحديث وأدلى كل منهم بدلوه حتى وصل الكلام إليه يقول: « مناقشتنا وصلت إلى نوع من الإلتقاء على حل إيجابي هجومي يمكن أن نصوغه في أنه لابد أن تقام جبهة فكرية سياسية في العمل السياسي تتبنى مشروع التقدم والنهضة أي في إقامة الجبهة الوطنية التقدمية من خلال حركة ديمقراطية تعتمد الديمقراطية في التغيير».

وقد بدأت العلمانية في أوروبا، وصار لها وجود سياسي مع ميلاد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م، وقد عمت أوروبا في القرن التاسع عشر، وانتقلت لتشمل معظم دول العالم في السياسة والحكم في القرن العشرين بتأثير الإستعمار والتنصير الذي يطلق عليه اسم التبيشر– وفي مصر أدخل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م، وكان الخديوي إسماعيل مفتوناً بالغرب وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا.

الجذور الفكرية والعقائدية للعلمانية اللادينية :

[١] العداء المطلق للكنيسة بصفة خاصة، وللدين بصفة عامة أياً كان سواء وقف إلى جانب العلم أو عاداه، ومعلوم أن العلمانية ولدت في أوربا إثر الصراع بين العلم المادي التجريبي والكنيسة بخرافاتها وخزعبلاتها وفسادها باسم الكهنوت وبيع صكوك الغفران وتحريقها لكثير من علماء المادة الذين خالفوها، ترتب على ذلك إنهزام الكنيسة في النهاية أمام العلم المادي التجريبي وظهرت المقولة بفصل الدين عن الدولة ومقولة: « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ».

[٢] لليهود دور بارز في ترسيخ العلمانية وإبراز العلمانية حتى يتيسر لهم السيطرة على أمم الأرض بعد تكسير حاجز الدين في نفوس العباد، ومعلوم أن اليهود يسعون من أجل إقامة دولة اليهود العالمية وعاصمتها القدس، ولذلك ولدوا الثورات كثورة فرنسا بمبادئها التحررية،وصدروا هذه المبادئ الخربة للعميان، واستخدموا في ذلك أذناباً لهم، وما زالوا حتى هذه اللحظة يعممون نظرية العداء بين العلم من جهة والدين من جهة أخرى على الرغم من أن الإسلام لم يقف ضد العلم والأخذ بأسباب التحضر والتقدم كما وقفت الكنيسة، ويكفينا قول الله تعالي: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾، وقول النبي ﷺ : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير** » [رواه مسلم].

﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء : ٩]، وذلك في كل ناحية من نواحي الحياة، وقد أطلق بصر العباد، وحث على التدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرض ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** (١٩٠) ﴾ [آل عمران : ١٩٠]، وختمت آيات كثيرة بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ و ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾، والإعجاز العلمي

في القرآن أظهر من أن يجحده أحد، وما من حقيقة ثبتت في الكون ويتعرف عليها الخلق إلا وهي موافقة للسنن الشرعية، وإن كان القرآن ليس كتاباً للفلك أو الأحياء، إنما كتاب هداية ورشاد، والعلوم النافعة تؤخذ من كل من أفلح فيها كائناً من كان، والواجب على الأمة أن تسعى لإقامة حضارة على منهج العبودية لله جل وعلا، والتسليم لحكمه سبحانه لا لحضارات القلق هذه الزائفة التي قامت على أساس الكفر العلماني اللاديني، والتي أوشكت بل أعلنت إفلاسها ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

الأفكار والمعتقدات العلمانية:

[١] بعض العلمانيين ينكرون وجود الله أصلاً، وبعضهم يؤمنون بوجود الله لكنهم يعتقدون بعدم وجود أية علاقة بين منهج الله وبين حياة الإنسان.

[٢] الحياة تقوم عندهم على أساس العلم المطلق، وتحت سلطان العقل والتجريب.

[٣] إقامة حاجز كثيف بين الروح والمادة والأخلاق والقيم الروحية كما يسمونها هي قيم سلبية.

[٤] فصل الدين عن السياسة، وإقامة الحياة على أساس مادي.

[٥] إعتماد مبدأ المكيافلية في فلسفة الحكم والسياسة والأخلاق، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

[٦] نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية،وتهديم كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولي، وفي بلدان العالم العربي والإسلام ركزوا في هجومهم وتزييفهم على عدة معان منها :

- الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة.

- الزعم بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية.
- الزعم بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة، ويدعوا إلى التخلف.
- الدعوة إلى تحرير المرأة وفق الأسلوب الغربي.
- تشويه الحضارة الإسلامية.
- تضخيم حجم الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي، والزعم بأنها حركات إصلاح كالمعتزلة والخوارج.
- إحياء الحضارات القديمة كالفرعونية في مصر، والبابلية في العراق، والأشورية في الشام، والإهتمام بالحفريات القديمة.
- إقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية من الغرب، ومحاكاته فيها، وإرسال البعثات إلى الخارج دون أسس أو حصانة شرعية، ثم يعودون صرعى الفكر العلماني ليقودوا الأمة قيادة لادينية، في الوقت الذي حصلوا فيه على أعلى الشهادات العلمية.
- تربية الأجيال تربية لادينية، وذلك حتى تتخرج أجيال يقودون البلاد والعباد قيادة علمانية بعد ذلك، ولذلك أصبحت المدارس إما مدارس علمانية، وإما مدارس تبشيرية (أي تنصيرية)، وقد رفض الشيوعيون كل العلوم الغربية واستبعدوها بوصفها علوماً برجوازية كما يقولون، وشعروا بحاجاتهم إلى بناء كافة العلوم في ضوء المفاهيم الماركسية اللينينية بل كانوا ينقلون أبناء الأفغان المسلمين إلى روسيا ليتعلموا وفق هذه المفاهيم، وحتى يسهل عليهم قيادة البلاد قيادة إلحادية بأمثال هؤلاء الذين تربوا على موائدهم.

فنحن في أمسّ الحاجة إلى إعادة صياغة المناهج التعليمية والتربوية وفق كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وفارق كبير بين الصياغة الإلحادية التي تخرج

أجيالاً من الملاحدة، وبين الصياغة الإيمانية التي تخرج علماء مؤمنين يتكلمون بلسان المسلمين، ويفكرون بعقليتهم، ويقودون البلاد قيادة إيمانية يتأسون فيها بخير القرون، وبمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فمن قال: إن الإسلام يعني التخلف ويحارب العلم، كان الرد أن يمتلك المسلمون القوة وأن يتعلموا، ومن قال: إن الإسلام لا يصلح لحياة الناس، كان الرد هو إقامة الإسلام العلمي الواقعي، وهكذا يصبح الحق حقاً والباطل باطلاً.

وليس الدليل في كل وقت كلاماً، فالعالم الواقعي هو الميدان لجهادنا وإثبات حقنا وإقامة دليل للرد على كل شبهة، أما إذا أصبحت الكتب والأوراق فقط هي الميدان الذي نحارب من خلاله، فإننا ولا شك نخسر المعركة، فالرد يكون كلاماً في مقابلة الكلام، وعملاً في مقابلة الأعمال، فإذا أفرزت العلمانية والإلحاد إنحرافاً ونجاسة، فيجب على التوحيد أن يوجد طهراً واستقامة، وإذا كانت هذه النظم الوضعية تعني الظلم، فالتوحيد يعني العدل، فالعدل يجب أن يكون واقعاً ومحسوساً، والإسلام يجب أن يكون واقعاً مطبقاً وليس مجرد قضية كلامية نصرخ بها هنا وهناك، ويوم نملك لكل شبهة جواباً يراه الناس أفعالاً لا كلاماً فقط، حينئذ نستطيع بحول الله وقوته وتوفيقه أن نقضي على هذه المناهج والزبالات التي تفتقت عنها عقول البشر.

الدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي

أردنا أن ندلل بالديمقراطية على مدى اللوثة التي تصيب التراث العالمي من جرائها، ونشير هنا بمثال آخر للدعوة ذائعة الصيت، الدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي، هذه الدعوة التي تتناقض مع الشرع من جهة، ومن جهة أخرى فلا واقع لها ولا رصيد، فنحن نعيش فيما هو أشبه بغابة تُطالب فيها الضحية بعدم التأوه بينما يفرض الجاني نظامه ويصبح هو القاضي والجلاد.

يقول علي بن نفيع العلياني في كتاب «أهمية الجهاد»:

«الدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي تكاد تصم الآذان بضجيجها في هذا الزمان، بل لقد أصبحت لكثرة القائلين بها كأنها الحق الصراح وما عداها هو الباطل عند بادي الرأي الذي لا يعرف الأحكام الشرعية، أما من يفهم الكتاب والسنة ويتمسك بهما فلا يزيده كثرة النداء بها إلا مقتا لها ولأصحابها؛ لأنها دعوة مائلة عن نهج الحق، وهذه الدعوة التي تنتشر اليوم إنما تنتشر استجابة لمبادئ هيئة الأمم المتحدة لا استجابة لمبادئ الإسلام، واقرأ ما جاء في ديباجة ميثاق هيئة الأمم المتحدة تتكشف لك الأمور (نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزانًا يعجز عنها الوصف، وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان، وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية وأن نبين الأحوال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الإلتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي!! وأن ندفع بالرقي الإجتماعي قدمًا وأن نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح، وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن

نعيش معًا في سلام وحسن جوار وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدولي، وأن نكفل بقبولنا مبادئ معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا تستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة، وأن تستخدم الأداة الدولية في ترقية الشؤون الإقتصادية والإجتماعية للشعوب جميعها، وقد قررنا أن نوحد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض، ولهذا فإن حكوماتنا المختلفة على يد مندوبيها المجتمعين في مدينة سان فرانسيسكو الذين قدموا وثائق التفويض المستوفية للشرائط قد ارتضت ميثاق الأمم المتحدة).

وجاء في مقاصد هيئة الأمم المتحدة ومبادئها ما يلي:

المادة الأولى:

[١] حفظ السلم والأمن الدولي، وتحقيقًا لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم لإزالتها ولقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتذرع بالوسائل السلمية وفقًا لمبادئ العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

[٢] إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها، وكذلك اتخاذ التدابير الملائمة لتعزيز السلم العام.

[٣] تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والإنسانية، وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعًا، والتشجيع على ذلك إطلاقًا بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء

[٤] جعل هذه الهيئة مرجعًا لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

وقد حاول لفيف من الكتاب أن يثبتوا أن هذه الدعوة لا تنافي أحكام الجهاد وهذا بناء على مفهومهم الخاطئ للجهاد إذْ يقصرون الجهاد على جهاد الدفاع وبالتالي لا يرون مانعًا أن يعيش المسلم بجوار الكافر من غير ضرب جزية على الكافر أو إخضاعه لحكم الإسلام.

يقول الدكتور محمد البهي تحت عنوان السلام العالمي في الإسلام: «السلام العالمي معناه نبذ الخصومات بين الشعوب والجماعات، وقيام العلاقات بينها على أساس من الإستقرار والطمأنينة، السلام العالمي هو توجيه نشاط الشعوب والجماعات نحو حياة إنسانية أفضل وأهدأ وتوجيهها إلى البناء بدلاً من الهدم لصالح الجماعة العامة وهي الإنسانية... وهنا نرى الإسلام يُقر مبدأ عدم الإعتداء ثم مع إقرار هذا المبدأ يسعى لتحقيق خطوة أخرى بعده هي العمل لصيانة السلم وإدامته... والإسلام لا يحمل على الإيمان بعقيدته ولا يكره الناس عليها».

وانطلاقًا من هذا المفهوم الخاطئ للجهاد تجد أغلب الكتاب العصريين يقررون أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلام، وأنهم لا يحاربون الكفار إلا إذا اعتدوا عليهم، وقد بينّا فيما مضى بطلان هذا القول وأن الجهاد قد شرعه الله ابتداءً ودفعًا لإعلاء كلمة الله وإخضاع الكفار لحكم الإسلام وإذلال من تقبل منه الجزية بدفعها وهو صاغر، وذكرنا النصوص الشرعية الموضحة لذلك وإجماع أمة محمد عليه الصلاة والسلام عليه قبل أن تنبت هذه النابتة التي تتلمذت على موائد المستعمرين والمستشرقين والمبشرين، والإسلام لا يقر السلام الذي يزعمه أولئك، وهو أن تبقى كل دولة تمارس الكفر على شعبها وتشرع لهم من عند نفسها وهي مرفوعة الرأس لم تذل بجزية ولا قتال ويعترف لها بحق تقرير المصير وأن تطبق ما شاءت من كفر وزندقة وإلحاد على خلق الله، إن الإسلام من هذا براء وحكم الإسلام في الكفار واضح وهو تخيير الدول الكافرة بين الإسلام أو دفع الجزية وهي صاغرة أو القتال إلا إذا عجز المسلمون عن جهادهم فهذه ضرورة

واستثناء وليست أصلاً في الإسلام، ويجب على المسلمين أن يعدوا العدة حتى يصلوا إلى الحال التي تمكنهم من ممارسة الجهاد كما أراد الله، أما أن يجعل حال الضرورة هو الأصل في الإسلام فهذا هو التحريف لدين الله وهو المؤامرة الرهيبة التي تمارس الآن ضد حكم الجهاد يدل على ذلك ما شرعته لجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة من واجبات على الدول المشتركة في هيئة الأمم المتحدة، إذْ جاء في تشريعاتها الطاغوتية ما يلي:

[١] في المادة الأولى: أوجبوا على كل دولة مراعاة أحكام القانون الدولي، وهذا غير جائز، فإن الواجب على الدولة المسلمة أن تراعي أحكام القرآن لا أحكام القوانين الموضوعة من البشر.

[٢] وفي المادة الثانية: أوجبوا على الدول تسوية النزاع سلمياً مع مراعاة أحكام القانون، وهذا إيجاب ما لم يوجب الله، بل الدولة المسلمة تخير الدولة الكافرة بين خصال ثلاث: إما الإسلام، أو الجزية مع الصغار، أو القتال، إلا في حال ضعفها فلها أن تهادنها هدنة مؤقتة كما في صلح الحديبية.

[٣] وفي المادة الثالثة: أوجبوا على كل دولة ألا تتدخل في الشؤون الداخلية والخارجية لدولة أخرى، وهذا خلاف حكم الإسلام الذي أمر بالتدخل حتى يكون الدين كله لله.

[٤] وفي المادة الرابعة: أوجبوا على كل دولة ألا تساعد أي دولة تلجأ إلى الحرب في غير صورة الدفاع، وهذا الحكم لا يجوز في الإسلام بل لو غزت دول مسلمة بلاد الكفار لنشر الإسلام لوجب مساعدتها.

[٥] وفي المادة الخامسة: أوجبوا على الدول عدم الإعتراف بأي زيادة إقليمية تؤخذ عن طريق الحرب، وهذا غير جائز في الإسلام بل ما فتحه المسلمون عن طريق الجهاد فهو ملك من أملاكهم.

[٦] وفي المادة السادسة: أوجبوا على الدول عدم تشجيع الثورات الأهلية في

أقاليم الدول الأخرى، وهذا غير جائز، بل إذا كان في بلد الكفار أقلية مسلمة، فالواجب على المسلمين مساعدتهم حتى يزيلوا حكم الكفر عنهم؛ لأنه لا يجوز للمسلم أن يخضع تحت حكم كافر.

[٧] وفي المادة السابعة: أوجبوا على كل دولة أن تكون الأحوال في أقاليمها لا تهدد السلام الدولي، وهذا في الإسلام لا يجوز، بل يجب على المسلمين إعداد العدة والإعتناء بها لإرهاب الكفار وتهديدهم وتبديل أمنهم خوفًا حتى يخضعوا لحكم الله ورسوله.

[٨] وفي المادة الثامنة: أوجبوا على الدول معاملة الأشخاص الخاضعين لحكمهم على مقتضى حقوق الإنسان التي أعلنَتها الأمم المتحدة، ومنها حرية الإلحاد، ومساواة المسلم بالكافر، وهذا لا يجوز في الإسلام.

[٩] وفي المادة التاسعة: أوجبوا على الدول الخضوع لكل المعاهدات الدولية وكل ما كان من القانون الدولي العام ولا يحل للمسلم الخضوع إلا لأحكام القرآن والمعاهدات لها أحكام في الشرع الإسلامي تخالف ما يوجد في القانون الدولي فلا يحل للمسلمين أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

[١٠] وفي المادة العاشرة: أوجبوا على الدول عدم اللجوء للحرب مطلقًا إلا في حال الدفاع إذا اعتدت قوة مسلحة على أراضيها، وهذا إسقاط لأحد أنواع الجهاد وهو جهاد الإبتداء والطلب.

وبهذا يظهر أن ما شرعته لجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة مناقض لحكم الجهاد في الإسلام، وأن الرضا به وتحكيمه رضا بالطاغوت وتحكيم للطاغوت.

سلك الله بنا سبيل الهدى والرشاد، ورد الأمة الإسلامية إلى مصدر عزها ورفعتها كتاب رب العالمين وسُنة الهادي الأمين ﷺ وعلى أصحابه أجمعين.

الإسلام دعوة عالمية
في مواجهة دعاوى كفرية

أمر رسول الله ﷺ أن يصدع في المشركين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وكانت الآيات المكية تنزل عليه بهذا المعنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص، ٨٧، ٨٨]، وقد رأينا كيف بيَّن لخباب بن الأرت رضي الله عنه سُنن من قبلنا في الصبر واحتمال الأذى، قال له: «والله ليتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وقد حدث ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، وانتشرت هذه الدعوة في أرجاء المعمورة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فأعزهم الله بعد ذلة، وجمعهم بعد فُرقة، وكانت هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا كله يُلقى على عاتق هذه الأمة واجبات عظام ومسؤوليات كبيرة، ينبغي أن تقدرها حق قدرها، وأن تحملها بقوة لتقوم بدور القيادة والريادة لهذه البشرية، والشهادة على سائر الأمم.

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، ولن تتم هذه القيادة وهذه الشهادة إلا بعودة صادقة إلى منابع القوة والعز والتمكين، وذلك بالتمسك بهذا الدين عقيدة وعبادة وشريعة كاملة للحياة، وعندئذ يتحقق وعد الله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ونحن في سعينا وأخذنا بأسباب إقامة نظامنا العالمي، لابد من معرفة أننا لسنا وحدنا في الساحة، فهناك طوائف كثيرة كفرية، تسعى هى الأخرى لفرض نظامها الذي تراه .

تنقية التراث

تنقية التراث مما شيب به عبر عصور متطاولة، من الواجبات الشرعية وأعظم المهمات الدينية، وهذه المهمة لا تقتصر على تمييز صحيح الحديث من ضعيفه، فما من جانب من جوانب الحياة إلا وشابته انحرافات، حتى عاد الأمر غريباً كما بدأ غريباً، وتكدر النبع الصافي الذي تربى عليه سلفنا الصالح، فقد تسربت إليه فلسفات وبدع وضلالات، شبّ عليها الصغير وهرم عليها الكبير، ونظرة على المصطلحات الوافدة والكلمات المستوردة، التي نتكلم بها ونتسمى بها ونسمي بها محلاتنا تدلك على مبلغ الخطر، لقد حُذر المسلمون من النطق بكلمة راعنا، وكان اليهود ينطقون بها ويقصدون التنقص من شخص رسول الله ﷺ، على الرغم من أن المسلم قد لا يدري ذلك، وإن نطق بها فلا يمكن أن يكون هذا هو مقصوده، ورغم ذلك نُهينا عن التشبه بغيرنا، قال تعالى: ﴿**لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا**﴾ [البقرة: ١٠٤] فما بالك بمن يروّج للنظم الوضعية والقوانين الطاغوتية الكفرية، ويتكلم بالإشتراكية والديمقراطية، نحتاج لوقفة جادة ننقي بها تراثنا، وبداية الأمر لابد من التعرف على واقعنا فمسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة.

واقع الأمة الإسلامية:

في محاضرة قيمة بعنوان: «الوحدة الإسلامية أسسها ووسائل تحقيقها» تحدث الدكتور/ أحمد بن سعد الغامدي عن واقع الأمة الإسلامية فقال:

أولاً: في العقيدة:

(أ) إنحرافات إلحادية .

(ب) إنحرافات في الجانب النظري – العلمي – من العقيدة .

(جـ) إنحرافات طائفية قديمة .

(د) إنحرافات طائفية حديثة .

ثانيًا : في العبادة :

(أ) الغلو المفرط في أدائها .

(ب) الإهمال المطلق لها .

(جـ) عدم الإلتزام بالأداء الصحيح لها .

ثالثاً : في الشريعة :

(أ) محاربة الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها .

(ب) محاولة التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأنظمة الوضعية .

وقد ذكر أسباب هذا الواقع فقال:

[١] الجهل بدين الله .

[٢] الغزو العسكري لبلدان المسلمين .

[٣] الغزو الفكري .

أولاً - الانحرافات العقائدية

[أ] إنحرافات إلحادية :

هدف أصحابها استبدال المبادئ الكافرة بعقيدة الإسلام، وهم طوائف متعددة ويسلكون طرقًا متنوعة .

يقول الأستاذ مصطفى صبري : « ومن البلية أن الحركات التي تُثار في الأزمنة الأخيرة ترمى إلى محاربة الإسلام في بلاده بأيدي أهله والتي لا شك أنه أخبث أفانين الكفر » .

ويقول في مكان آخر : « لكن البلاد الإسلامية عامة ومصر خاصة مباءة اليوم لفئة تملكوا أزمة النشر والتأليف، ينفثون من أقلامهم سموم الإلحاد غير مجاهرين بها وربما يتظاهرون بالدين » .

ويقول الدكتور / محمد محمد حسين بعد عرضه للدعوات الهدامة: «كانت هذه الدعوات تسلك إلى أهدافها مسالك متباينة، وتلبس أثوابًا مختلفة ولكنها جميعًا ترمى في آخر الأمر إلى توهين أثر الإسلام في النفوس، وتفتيت وحدته التي استعصت على القرون الطوال».

[ب] إنحرافات في الجانب النظري - العلمي- من العقيدة:

وذلك فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله، فقد وجدت الإتجاهات المنحرفة التي تتنكر لهذا الجانب أو لبعضه فأوَّلت الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة، وردت الأحاديث الأخرى والتي تُعرف الناس بربهم عزَّ وجل، وكان أول من أظهر هذه البدعة الضالة – بدعة الحديث في أسماء الله وصفاته وتأويلها – الجعد بن درهم فأوَّل الإستواء والكلام لله عز وجل وتبعه على ذلك المعتزلة الذين أصبحوا فيما بعد فرقة مستقلة في منهجها وفهمها تقابل أهل السُنَّة.

قال الشهرستاني: «الفريقان من المعتزلة والصفاتية متقابلان تقابل تضاد»:

وقد أتى القوم من ضلال عقولهم القاصرة، وظنهم أن إثبات تلك الصفات الواردة في كتاب الله عز وجل وسُنَّة رسوله ﷺ يقتضي التشبيه بالمخلوق، وينتج من هذا المذهب أن القرآن الكريم والسُنَّة النبوية لم يستطيعا بيان مراد الله عز وجل من خلقه من أقرب الطرق، فتعددت بذلك الفِرق، وانقسم المسلمون إلى متابع لهذه الطائفة، ومخالف لها، وحدث في تاريخ الأمة الإسلامية بسببها حوادث ومشكلات، ولا زالت آثار هذه الطائفة قائمة في المجتمع الإسلامي إلى اليوم.

[جـ] إنحرافات طائفية قديمة:

لا زالت قوية ونشطة رغم انحرافها وفساد معتقداتها، ومن تلك الطوائف: «طائفتا الشيعة والصوفية»:

فالأولى: تقوم على عقيدة تخالف عقيدة الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ، فمن ذلك إسباغ صفات الألوهية على أئمتهم وإدعاؤهم أنهم يعلمون

الغيب وأنهم يتلقون الوحي من السماء، وفي كلا الأمرين إساءة إلى الله عز وجل وتكذيب لدينه، وأخيراً فإنهم يتهمون أصحاب رسول الله ﷺ بالخيانة والردة عن الإسلام، وهذا يؤدي إلى إبطال الإسلام .

فأما ادعاؤهم علم الغيب لأئمتهم فقد ورد في أهم مصادرهم بألفاظ صريحة في أبواب مستقلة، فقد ورد في كتاب «أصول الكافي» – وهو أهم كتاب عندهم – عناوين تؤكد ذلك منها: «باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم»، ومنها: «باب أن الأئمة إذا شاؤا أن يعلموا علموا»، ومنها: «باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء» .

وأما إدعاء نزول الوحي على الأئمة فيذكرون عن جعفر الصادق، أنه قال وهو يتحدث عن مصادر علم الأئمة: «وأما النقر في الأسماع فأمر الملك» أي صوت الملك، فعلم الغيب لا يُظهر الله عز وجل عليه إلا أنبيائه ورسله، كما جاء ذلك في كتاب الله عز وجل حيث يقول: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)** ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ولذلك فإن الشيعة تعتقد أن الأئمة يأتيهم خبر السماء كما روي ذلك الكليني مؤلف أصول الكافي، فقال: «إن المفضل سأل أبا عبد الله – أي جعفر الصادق – بقوله: جُعلتُ فداك يفرض الله طاعة عبد على العباد ويحجب عنه خبر السماء؟ قال: لا، الله أكرم وأرحم وأرأف بعباده من أن يُفرض طاعة عبد على العباد، ثم يُحجب عنه خبر السماء صباحًا ومساءً» .

ويعلق الشارح على هذا القول: «ولذلك الإمامية ذهبوا إلى أن الإمامة لا تصلح إلا لمن له منزلة النبوة» .

هذه بعض عقائدهم المنحرفة، والتي تجعل لهم اتجاهًا آخر، ودينًا يُخالف دين المسلمين .

الثانية : الصوفية فقد ابتدعت تقديس الأفراد ورفع التكاليف عن بعض الناس كما أعادت إلى الأذهان تلك الطقوس الكنسية التي أفسدت الدين النصراني حيث اتخذت من البشر وسائط عند الله بها تقضي الحاجات، وتغفر الزلات إلى عشرات أخرى من الإنحرافات، فأما دعوى سقوط التكاليف فإنهم يزعمون أن للإنسان درجة إذا وصل إليها سقط عنه التكاليف .

قال ابن تيمية – رحمه الله –: «ومن هؤلاء – أي الصوفية – من يحتج بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، ويقول معناها: اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة، وربما قال بعضهم: اعمل حتى يحصل حال، فإذا حصل لك حال تصوفي سقطت عنك العبادة» .

ويقول عنهم كذلك: «والغالبية في المشايخ قد يقولون: إن الولي محفوظ والنبي معصوم، وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال من يرى أن الشيخ أو الولي لا يُخطئ ولا يُذنب» .

ويقول الدكتور/ إبراهيم هلال وهو يتحدث عن نتائج غلو الشيعة والصوفية في ذكر فضائل الأولياء: «ولعل أبرز مظاهر هذا التفضيل ما يدعيه بعض الصوفية من حلول الله فيهم أو اتحادهم به مما يتضمن القول بالوهيتهم وتصرفهم في الأكوان وفي الناس».

ولعل هذا هو السبب وراء التقديس وصرف العبادة إلى الأولياء المتمثل في بناء القباب على قبورهم والطواف حولها ودعاء أصحابها والذبح والنذر لهم إلى غير ذلك من صور العبادات التي لا يكاد يسلم منها بلد من بلدان المسلمين إلا من رحم الله عز وجل .

وقد كان هذا الإنحراف في الفكر الصوفي من الأسباب المباشرة لظهور الشرك في الأمة بتقديس الأموات وطلب الحاجات منهم، واتخاذ قبورهم مزارات، وأماكن عبادة، فزاحم تعظيم الأموات توحيد الله عز وجل في القلوب، فكثرت

الأضرحة وتعدد الفِرق والأحزاب لكل حزب ضريح به يستغيثون وعنده يذبحون وإليه عند نزول الحوادث يلجأون .

[د] إنحرافات طائفية حديثة :

تتمثل في طوائف مستقلة كالبهائية والقاديانية ونحوها من الطوائف التي خرجت على عقيدة الإسلام بدعوى النبوة لزعمائها ونزول الوحي عليهم، وهي تتستر في كثير من البلدان باسم الإسلام وهي خارجة عليه لمخالفته لعقيدة « ختم النبوة » التي هي جزء من عقيدته، فإن زعيم البهائية : « حسين بن عليّ المازندراتي » يزعم أنه نزل عليه الوحي وجمعه في كتاب سماه الأقدس، وكذلك زعيم القاديانية « غلام أحمد بن غلام مرتضى » له كتاب اسمه : تذكرة وحي مقدس، يزعم أنه أوحى به إليه، وقد كُتب بأربع لغات وهو: العربية، والفارسية، والأردية، والإنجليزية .

وليست هاتان الطائفتان هما الوحيدتان في إدعاء نزول الوحي بل هناك طوائف أخرى وأشخاص آخرون ادعوا نزول الوحي كزعيم البلاليين « اليجا محمد عليّ » في أمريكا وغيره.

ثانياً - إنحرافات عبادية :

[أ] الغلو المفرط في أدائها :

والذي كان يتمثل فيما سبق في طائفتي الخوارج والصوفية حيث كان لكل منهما غلو مفرط في جانب أو جوانب منها، فالخوارج شددوا على أنفسهم وحمّلوها فوق طاقتها من قيام بالليل وصيام بالنهار، حتى ظهر ذلك على ملامح وجوههم ومظاهر أجسادهم، وقد وصفهم النبي ﷺ بعد زيارة لهم فقال: « **فدخلت على قوم لم أرى قط أشد منهم اجتهاداً، جباههم قرحة من السجود وأياديهم كأنها ثغن** - غلظ ركبة البعير من أثر البروك - **الإبل عليهم قمص مرحضة** - بليت من كثرة استعمالها - **مشمرين مسهمة** - أي متغيرة وجوههم من السهر».

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الطائفة بقوله: « **يخرج قوم من أمتي يقرؤن القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، ولا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** » [رواه مسلم وأبو داود] .

وأما الصوفية فقد بالغوا في الذِّكر والزهد، وعاشوا في ظلمات الخلوات للوصول إلى « درجات اليقين » التي يسقط عندها عنهم كل التكاليف الشرعية بزعمهم، وقد أنكر ابن عقيل - رحمه الله - عليهم هذه الأهواء والبدع فقال: « ما أعجب أموركم في التدين: إما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة » .

[ب] الإهمال المطلق للعبادات والإكتفاء بالتلفظ بالشهادتين:

وهذا الإنحراف كان من ثمرات الإرجاء الذي لا يُعطي للعمل اهتماماً إذ أن الإيمان يثبت عند المرجئة بالقول فقط - عند بعضهم - وبالإعتقاد عند البعض الآخر، وكان جهم بن صفوان هو أول من زعم أن « الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، والكفر هو الجهل به فقط »، وذكر البغدادي أن المرجئة: إنما سمو مرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان .

[جـ] عدم التزام كثير من المسلمين بالأداء الصحيح للعبادات :

فترى أحدهم يؤدى هذه العبادات ولا يلتزم فيها بشروطها وواجباتها وأوقاتها .

ثالثًا - في الشريعة:

[أ] محاربة الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها :

وهذا من آثار الإستعمار العسكري والفكري الذي فرَّق الأمة وأفسد عقليتها بحضارته وصناعته وكفره وجحوده، فوجد في المسلمين من يتحمس لقوانينه

وفكره ويدعوا إلى تطبيقها ومتابعتها، وقد حظيت هذه الفئة بعناية الإستعمار ورعايته، وسُلِّم لها زمام المجتمعات التي كان يسيطر عليها، فخلفها فيها وقام على تطبيقها وتنفيذها بكل دقة .

[ب] محاولة التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأنظمة الوضعية :

فيؤخذ من الشريعة ما يتعلق بالأمور الشخصية، وتكمل بقية الجوانب من القوانين الوضعية .

وقد ذكر الأستاذ « محمد الخضر الحسين » عن أسلوب دعاة هذا المبدأ فقال : « فاخترع هؤلاء طريقًا حسبوه أقرب إلى نجاحهم وهو : أن يدَّعوا أن الإسلام : توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون في حقائقه ما له مدخل في القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشُبه لعلهم يجدون في الناس جهالة أو غباوة فيتم لهم ما بيتوا » .

ويقول الأستاذ / مصطفى صبري عن هذه المحاولة والتي تعني فصل الدين عن الحكم والسياسة :

« لكن حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه، وقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون في البلاد الإسلامية كيد للدين ومحاولة الخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد في غيره، فهو ثورة حكومية على دين لشعب، هذا عرض موجز لواقع المسلمين الذي قد أصيب في كل جانب من جوانبه مما كان له أسوأ الأثر على وحدة الأمة واجتماع كلمتها، فقد أصيبت الأمة في عقائدها، وعباداتها، وشريعتها، وما لم يصحح هذا الواقع على ضوء التوجيهات الواردة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فلن تقم للأمة قائمة ولن تجتمع لها كلمة » .

بعث وإحياء التراث

لابد من عودة الأمة إلى مكان الصدارة والريادة؛ حتى تتبوأ مكانتها اللائقة بها في قيادة الدنيا بدين الله، وحتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فلا يليق بورثة خير أمة أُخرجت للناس أن يُدار بهم على موائد اللئام، وأن يصبحوا في ذيل الأمم، وتصبح لغتهم التي هي لغة القرآن سادس اللغات بعد الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية ...

لقد بات الأعداء يسيّرون دفّة أمورنا وبكل غطرسة واستكبار؛ ولذلك كان لابد من بعث وإحياء التراث الحق في الأقوال والأفعال وعلى مستوى الفرد والأمة، تلهج به القلوب والأرواح قبل الألسنة، وهذا يتطلب جهاداً كبيراً، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإذا كان البعض قد أنشأ اللجان لإحياء التراث هنا وهناك - فجزاه الله خيراً عنّا - وهي خطوة على الطريق، ومسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة، ولابد في ذلك من تقدير حجم الجهد المطلوب ووضوح الطريق، ومبلغ الصعاب التي تواجه من ينهض بذلك.

الصراع بين الحق والباطل:

وهذه السُّنة من أهم السُّنن الربانية أن يدور صراع بين الحق متمثلاً في دين الحق الذي ارتضاه ربنا للعالمين من لدن آدم حتى قيام الساعة، وبين غيره من النظم والدساتير والفسلفات والمناهج المعوجة والمنحرفة عن الإسلام.

وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ويقول: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)

الَّذين إن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١] .

وأعظم معروف هو إخلاص العبودية لله جل وعلا، وأول منكر هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات والإعراض عن شريعة الله، فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل، وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة ولا حتى مئات المعارك إذ أنه يتخذ عدة أشكال، ويمتد في مساحات طويلة تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع وقد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في جوانب أخرى، واستمراره يأتي من كثرة الأعداء في الداخل والخارج، من النفس والأقارب والأموال والأزواج، ومن الشيطان وجنوده ومن الكفار على مختلف ألوانهم وأشكالهم يهوداً كانوا أو نصارى أو ملاحدة، والإنسان وهب من القدرات والقوى ما يستطيع به مع توفيق الله وهدايته من السيطرة والانتصار .

وهذا الصراع بدأ مع خلق آدم وأمر إبليس بالسجود له فامتنع محتجاً بشرف عنصره وأنه خُلق من نار فكيف يسجد من خُلق من نار لمن خُلق من الطين؟، فخاب اللعين وخسر عندما اعترض على أمر ربه ولم يذعن له ولم يخضع له بل ولم يستغفر ربه حين عصى بل تمادى في غيه وسأل الله النظرة والمهلة إلى يوم القيامة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ [الحجر: ٣٦] .

واقتضت حكمة الله إمهاله إلى يوم القيامة ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]، وجعل يطيف بآدم فوجده خلقاً أجوف فقال: لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليَّ لأعصينك .

فوسوس لأبينا آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها وأقسم لهما إنه لهما لناصح ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿٢٢﴾ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٣].

لم يعهدا من قبل أن يجدا مخلوقاً يقسم بالله كذبا، ولذلك يقول العلماء: من خدعنا بالله انخدعنا له.

ثم أمر الجميع بالهبوط إلى الأرض ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، وقطع إبليس عهداً على نفسه فقال: ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ [النساء: ١١٨]، ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال أيضاً: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، وحذر رب العزة عباده من كيده ووسوسته فقال: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ [الأعراف: ٢٧].

وامتد الصراع إلى بني آدم وبني إبليس، وبين لنا ربنا جلّ وعلا أن الشيطان ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [فاطر: ٦]، وأنه لا حجة له في إغواء العباد: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: ٦٥]، وكل سلطان في القرآن فهو الحجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ [البقرة: ٢٧٥]، صراع بدأ ولم ينته بل ولن ينتهي حتى تنتهي الحياة، وفي الحديث: «الجهاد ماض في أمتي لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل حتى يقاتل آخر رجل من أمتي المسيح الدجال» ضعيف السند وله شواهد كقوله: «الجهاد ماض مع كل بر وفاجر» من رواية مكحول عن أبي هريرة ولم يسمع منه، وفي الحديث الآخر: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة» [رواه البخاري ومسلم].

وقد انحرف كثير من الناس عن منهج ربهم ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠]، ولذلك يقول تعالى: ﴿وقليل من

عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣]، وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، قالوا: وأين ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف» [رواه البخاري] ولذلك يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق: ٣٠].

فالحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة، ولكن اعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف: ١٠٦]، والشيطان في حربه وصراعه لبني آدم لا ينام.

كما قال الحسن حين سئل أينام الشيطان؟، قال: لو نام لاسترحنا.

وإذا كنا نتغافل عن مهمتنا فإن الشيطان يواصل الليل والنهار في سبيل إنفاذ وعده وتابعه على ذلك خلق كثير أصبحوا من أوليائه بل وفاقوه في حيله كالتلميذ الذي يفوق أستاذه يواصلون الليل والنهار في المكر والكيد للإسلام والمسلمين، وشنوا على هذه الأمة حرباً لا هوادة فيها واستخدموا في هذه الحرب كل صور الأسلحة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف: ٨].

حرب عسكرية وسياسية واقتصادية وحرب فكرية أو ما يسمى بالغزو الفكري وهو أعنفها، وأطلقوا على الأمة سهاماً كثيرة بحيث من لم يصبه سهم أصابه السهم الثاني أو العاشر.

وكانت الديمقراطية هي إحدى هذه السهام الخبيثة التي أطلقت على الأمة بالإضافة إلى نِحَل وفلسفات ونظريات، وركزوا في سبيل ذلك على كل القطاعات من رجال ونساء وكبار وصغار، واستخدموا كل الوسائل من إذاعة، وتليفزيون ومجلات وجرائد، ولم تسلم مناهج التعليم في مختلف المراحل من هذا الدس، وحشدوا من أجل ذلك جيوشاً جرارة من الساسة والزعماء والمفكرين ورجال الأدب لترويج هذه النظريات والفلسفات في أوساط المسلمين الذين يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

بل وحاول أصحاب هذه المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم وتأييدها أن يجدوا سنداً تاريخياً لها في الوقت الذي حرصوا على تشويه تاريخ هذه الأمة الإسلامي لإبعاد المسلمين أكثر وأكثر عن دينهم، وأتوا للأمة بحثالات البشر ووضعوهم في مقام القدوة والقيادة وأضفوا عليهم ألقاب البطولة والزعامة، فنادوا بالتغريب وبأخذ كل ما عليه الغرب حتى هذه النجاسات الموجودة في أمعائهم لكَيْ تتطور الأمة كما تطور هؤلاء .

ومن بين هؤلاء مصطفى كمال أتاتورك الذي وُصِفَ بالبطولة وأنه محرر الشعب التركي من سلطة السلاطين، واتخذ مثلاً لكثير من الثورات في البلاد العربية حتى أن شوقي بعد الإنتصار المريب على الإنجليز أنشد يقول:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ولكن ما لبث أن ظهر على حقيقته حيث ألغى الخلافة، واللغة العربية حتى في الآذان، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض العلمانية اللادينية على الشعب التركي ونزع الحجاب ثم ظهرت الوثائق التاريخية فأثبتت عمالته للإنجليز وصلته بالماسونية حتى أنه عندما حضرته الوفاة استدعى السفير الإنجليزي وطلب منه أن يتولى حكم تركيا من بعده فاعتذر السفير بلباقة حتى لا تتكشف العمالة .

وإذا كان الصراع قديماً وعقد الإخاء وثيق بين كل قوى الكفر فلتستمع لما

يقوله كاسترو «رئيس كوبا» للسفير الإسرائيلي في بلاده: «على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاً إسلامياً دينياً حتى لا يجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة في المجتمعات الإسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية». «الإسلام والحضارة الإنسانية لمحمد خفاجي».

والباطل صورة مكرورة فقد أرسل اللورد اللنبى إلى وزارة الخارجية البريطانية وذلك بعد تحريه شهراً وكانت انجلترا قد غيرت مندوبها أبرق يقول:

[١] الثورة تنبع من الأزهر وهذا أمر له خطورته.

[٢] أفرجوا عن سعد زغلول وأرسلوه إلى القاهرة.

ورجع سعد زغلول ليصرف الثورة من ثورة دينية إلى ثورة وطنية تنادي بتحرير التراب.

تقريب التراث

ما من نبي إلا وبُعث بلسان قومه ليُبين لهم، وما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، والمسلم مطالب بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، وبما يعرفون، حتى لا يُكذب الله ورسوله، فتقريب تراثنا من العقول والقلوب وبحيث يصبح واقعًا في حياة الناس ليس معنى تقريب التراث أن نغير أو أن نبدل في دين الله، أو أن ننزل على رأي الأعداء في مطالبتهم الأمة بتطوير الخطاب الديني الذي هو عبارة عن طمس الكثير من القضايا الشرعية الواردة في الكتاب والسنة ككفر أهل الكتاب وترك موالاتهم والجهاد في سبيل الله ... قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [يونس: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ⑨ ﴾ [القلم: ٩]، وقال: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ⑮ ﴾ [الأنعام: ١٥].

وكان أبو بكر ﷺ يقول: «لو أن إحدى قدميّ في الجنة وأخرى خارجها ما آمن مكر الله، إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون». وقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إن أنا قلت في القرآن برأيي». كما لا نعني بالتقريب أيضًا ما يحدث في مؤتمرات التقريب المشبوهة.

مؤتمرات التقريب بين الأديان والسنة والشيعة:

الدعوة إلى زمالة الأديان أو وحدتها، دعوة خبيثة فاجرة، من شأنها تخدير مشاعر المسلمين تجاه اليهود والنصارى، وإقرار معاني التبديل والتغيير التي حدثت في التوراة والإنجيل، كما أنها ستكون سببًا في صرف اليهود والنصارى عن الدخول في الإسلام، لأن كثيرًا من اليهود والنصارى قد سئموا مما يُسمى

عندهم بالمسيحية أو اليهودية التي هي من صنع الأحبار والرهبان، وليست الدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى وعيسى - عليهما السلام - فالدعوة إلى الصداقة بين أهل الأديان أو زمالتهم دعوة مارقة فاسدة، وقد جاور النبي ﷺ اليهود في المدينة جادلوه وخاصموه ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، ولم يدعهم للتوفيق بين الإسلام واليهودية أو إلى التقريب بينهما، ولو علم في ذلك خيراً لفعله، وقدم عليه وفد نجران فحاجوه في النصرانية، ودعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام، ونزل عليه قول تعالي: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران: ٦٤].

ثم دعاهم إلى المباهلة «أي يُنزل الله لعنته على الكاذب» فخافوا وأشفقوا على أنفسهم، فعرض عليهم إما الإسلام أو الحرب أو الجزية، فاختاروا دفع الجزية، وشبيه بدعوة التقريب بين الأديان، دعوات التقارب بين أهل السُنَّة والفرق الضالة كالشيعة، فلا تقارب ولا تقريب إلا بأن تتحول السُنَّة إلى شيعة، أو الشيعة إلى سُنَّة؛ فالشيعة لهم إسلامهم الخاص بهم والذي يفترق عن الكتاب والسُنَّة، وما كان عليه سلف الأمة، نبئونا بعلم كيف نتقارب مع الخوميني مثلاً، وهو يذكر في كتاب الحكومة الإسلامية «أن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون»، ويقول: «قد ورد عن الأئمة قولهم: إن لنا مع الله حالات لا يسعها مَلَكٌ مقرب ولا نبي مُرسل».

ويتكلم في مسألة ولاية الفقيه الشيعي، ينقل قول الإمام الغائب !!: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»، ويتكلم عن عصمة الأئمة فيقول: «ومن هنا فقد شدد أئمتنا المعصومون» وهم لا يعترفون إلا بحكم النبي وعليّ - بزعمهم - ويتهمون الأمة في كل عصورها بالانحراف بما فيها عهد الخلفاء الراشدين.

يقول الخوميني: «بهذا جرت السيرة على عهد الرسول وعلى عهد أمير المؤمنين»، ويقول: «ولم تكن حكومة معاوية تمثل الحكومة الإسلامية من قريب ولا بعيد»، ويقول: «لقد حاول الشيعة منذ البداية تأسيس دولة العدل الإسلامية، ولأن هذه الدولة أو هذه الحكومة وجدت فعلاً في عهد النبي وفي عهد الإمام عليّ عليه السلام فإننا نؤمن بأنها قابلة للتجديد، لكن الظالمين عبر التاريخ منعوا توضيح الإسلام في أبعاده جميعها».

ـ وهذا قليل من كثير ذكره، يتضح منه الضلال المبين، فهل سيتركونه إذا أردنا الوحدة أو التقارب معهم، أم سيصرون عليه؟، وحينئذ لا يسعنا إلا أن نردد قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٤ ـ ٢٦].

١ ـ حماسة تأتي على حساب الضوابط الشرعية:

يقول الشيخ / سعيد شعبان أمير حركة التوحيد الإسلامي بلبنان في كتابه مفهومنا القرآني للوحدة الإسلامية (ص ٥٦، ٥٧): «منذ اليوم الأول الذي قام فيه الإمام الخوميني بالثورة في إيران وسمعنا أقواله، فهمنا مراميه ومقاصده، وجدنا أنفسنا مضطرين شرعًا لأن نكون إلى جانبه لا لأنه شيعي ولا لأنه فارسي، بل لأنه مسلم على دين الله، فنحن ورثنا المذهب السُنِّي عن آبائنا وورثنا القومية والعروبة في أصل نسبنا، ولكن الإسلام لا ينظر إلى المذاهب فهي من صنع البشر، ولا ينظر إلى القوميات، «الناس بنو آدم، وآدم من تراب» [أخرجه الترمذي]، نحن في الأصل كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

[المعارج: ٣٩].

ثم قال: «وإنني أقول بأن أكثر ما يؤخذ علينا في علاقتنا مع الثورة الإسلامية أننا نتولى أقوامًا يطعنون بالصحابة وببيت النبوة، ونقول لهم نحن في مقابل

الوحدة الإسلامية نفعل كما فعل الحسن بن عليّ ﷺ، الذي أراد للأمة أن لا تسيل دماؤها جميعًا، رضى أن يبايع إنسانًا يعتبر لدى الجميع خارجًا على الإمام، فهل كانت وحدة المسلمين يومها وحدة تقوم على الظلم؟،هل يحق للحسن أن يبايع خليفة ظالمًا ويجر كل المسلمين إلى الظلم؟، إنني أقول وبكل محبة أن ما يربطنا بإخواننا الشيعة هو الإسلام ما يفرقنا هو الإختلاف ونحن لا نقترب منه، إن الذي جمعنا على الثورة الإسلامية هو حب الله ورسله والمؤمنين فنحن نحب في الله، نحب الإمام السُنَّة والشيعة في الله، ونحن نعمل على وحدة الكلمة وننسى كما قلنا لكم الشتيمة تصل إلى آذاننا فنجعلها وراء آذاننا وتحت أقدامنا. ا هـ .

هذا الكلام شبيه بكلام بعض قادة إحدى الدعوات المعاصرة عندما أيدوا دولة الرافضة وأفادوا بوجوب تقريب السُنَّة من الشيعة وليس تقريب الشيعة إلى الحق، ولم يوجهوا لهم مجرد اللوم لكفرهم بالقرآن والسُنَّة وسبهم لخيرة الأمة، اللهم إلا عندما أيدت دولة الرافضة قتل المسلمين في سوريا ومذابح حماة هناك!!، هكذا تضيع الضوابط الشرعية في زحمة السياسة والحماسات الفارغة، وزيادة في التوضيح نقول:

(أ) من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الدين، البدعة أظلم من المعاصي، وهي بريد الكفر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، قال الشاطبي – رحمه الله –: «وأيضًا فإن فرقة النجاة وهم أهل السُنَّة مأمورون بعداوة أهل البدع والتشريد بهم والتنكيل بمن انحاز إلى جهتهم بالقتل فما دونه، وقد حذر العلماء من مصاحبتهم ومجالستهم حسبما تقدم، وذلك مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، لكن الدرك فيها على من نسب في الخروج من الجماعة بما أحدثه من اتباع غير سبيل المؤمنين لا على التغادي مطلقًا، كيف ونحن مأمورون بمعاداتهم وهم مأمورون بموالاتنا والرجوع إلى الجماعة ؟».

(ب) أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، والمسلم قد يترك حظ نفسه، ولكنه لا يفرط في حق ربه، ولذلك ما مست يد النبي ﷺ امرأة ولا خادمًا ولا دابة، إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم ﷺ، كما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(جـ) أثنى النبي ﷺ على الحسن رضي الله عنه وقال: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، ومعاوية رضي الله عنه ليس كالشيعة، لا يجوز اللمز ولا الغمز فيه، وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إن ناسًا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر، فقالت: «**وما تعجبون من هذا، انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر**»، وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «**لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة – يعني مع النبي ﷺ – خير من عمل أحدكم أربعين سنة**»، صححه الألباني، وفي رواية وكيع: «**خير من عبادة أحدكم عمره**».

(د) أمر الشيعة لا يقتصر على سب الصحابة فحسب – راجع ما ذكرناه عنهم وما نقلناه عن الخوميني – وقد قال أيوب السختياني: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من صحابة رسول الله ﷺ، فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا ليعطلوا العمل بالكتاب والجرح بهم أولى، وهم زنادقة».

(هـ) جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «**لعن الله من آوى مُحدثًا**» قال أبو السعادات: فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه» فتأمل ...

(و) قد يكون القول كفرًا يطلق القول بتكفير قائله؛ فيقال: من قال كذا فهو كافر، أما الشخص المعين فلا يُكفَّر إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليه، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مُطاع، حتى تنتفي الشبهات وتقطع المعاذير .

(ز) لم يزد عليّ في خلافه مع معاوية رضي الله عنه على أنه قال: «إخواننا بغوا علينا»، وقال: «قتلاي وقتلى معاوية في الجنة»، والصحابة رضي الله عنهم هم خيار أولياء الله المتقين، والواجب علينا أن نُمسك عما حدث وشجر بينهم.

(ح) كيف نقطع صلتنا بسلفنا الصالح تحقيقًا لوحدة مزعومة مع الشيعة، ونستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب: ٤].

٢ - شبهة تتعلق بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾:

ليس معنى بغضنا للشيعة ولعقائدهم المنحرفة، ألا نحب انتصارهم على من هم أسوأ منهم كالأمريكان مثلاً، فنحن نحب الخير والصلاح، ونكره ونبغض الشر والفساد، ونقبل الحق من كل من جاء به، ونرد الباطل على صاحبه كائنًا من كان، ونؤيد أولى الطائفتين بالحق ونناصرها لأخذ الحق لها، وقد قال النبي ﷺ عن حلف الفضول: «**لو دُعيت به في الإسلام لأجبت**»، وهو حِلف كان في الجاهلية وتم في دار عبد الله بن جدعان لنصرة المظلوم، وليس معنى نصرته أن تقر باطله أو أن توافقه في كفره، وقد كان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفرس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذلك قول الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥**﴾ [الروم: ٤، ٥]، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿**الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ**﴾ [الروم: ١ - ٤]، خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة بها.

قال النحاس: «وقول آخر وهو أولى: أن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى، إذ كان فيه دليل على النبوة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه».

قال ابن عطية: «ويشبه أن يعلِّل ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مؤنة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه؛ فتأمل هذا المعنى مع ما كان ﷺ ترجاه في ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به وغلبته كل الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه، وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين لأن جبريل عليه السلام أخبر بذلك النبي ﷺ يوم بدر».

قال القرطبي: «ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك، فسروا بظهورهم على عدوهم وبظهور الروم أيضاً، وبإنجاز وعد الله».

ما انتفعت البشرية وما انصلحت قديمًا وحديثًا بمثل تراثنا

خير الناس أنفعهم للناس، ولا ريب أن من بنى المصنع والمدرسة والكوبري، واخترع المصباح والطائرة، ومن نبغ في مجال الزراعة والهندسة والطب... قد قدم نفعًا للناس، وأنفع من هؤلاء جميعًا من هدى البشرية إلى طريق الله، ولذلك كان الأنبياء والمرسلون وأتباعهم هم أنفع الخلق للخلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، قال تعالى: ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ [المائدة: ٥٠].

ما قيمة أن يمتلك الإنسان الدنيا ويخسر ربه ودينه ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)** ﴾ [الزمر: ١٥] إن ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢)** ﴾ [محمد: ١٢].

والمتتبع لدعوة الأنبياء والمرسلين يجد التركيز على هذه القضية ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [المؤمنون: ٣٢] فهي مادة كل صلاح وإصلاح، وفي الحديث الصحيح، قال النبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله، فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**» فالتوحيد أولاً ولا صلاح إلاّ بإيمان، ولذلك أخطأ من اعتبر بوابة الإصلاح اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، فضلاً عن أن تصبح دعوة البعض لا للتمديد ولا للتوريث وكفاية...

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ**

غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر: ٦٥].

والإسلام دين شامل لكل ناحية من نواحي الحياة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قد يدين الكافر بديمقراطية، أما أن تصبح هي الغاية والوسيلة عند المسلمين فهذا من تلبيس شياطين الإنس والجن ومما لا ينتهي منه العجب، فقد صارت الديمقراطية هي مادة الإصلاح لا أقول عند كثير من عوام المسلمين بل عند بعض دعاتهم، وصار التظاهر والإضراب عن الطعام... هو وسيلة إقامة الحياة الديمقراطية والجنة الموعودة التي بشّر بها الأعداء وراجت على الأغرار من هذه الأمة، لقد بعث الله إلى مدين أخاهم شعيبًا فبدأ دعوته بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود: ٨٤]، أمرهم بتوفية المكيال ونهاهم عن البخس والفساد وذكرهم بالله واليوم الآخر، ثم قال: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود: ٨٨].

حذرهم من أن يسلكوا مسلك الأمم الهالكة من قبلهم، ودعاهم للإستغفار والتوبة، وكانت هذه هي دعوته الإصلاحية، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد ركّز على دعوة التوحيد في مكة والمدينة، وبنى المسجد أول ما قدم المدينة، وكان أول ما سمعه منه ابن سلام قوله ﷺ: «**أطعموا الطعام، وأفشوا السلام وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**» إن كل طاعة سواء كانت واجبة أو مستحبة هي بمثابة مادة أو مبادرة إصلاحية، تنصلح بها

البلاد والعباد ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [آل عمران: ٦٦] وكذلك عندما ننهى عن الربا والزنا وشرب الخمر والغيبة والنميمة والظلم والبغي...

نحن نقدم بذلك مبادرة إصلاحية يسعد بها البلاد والعباد، لقد حاولت أمريكا تحريم الخمر وأنفقت الملايين وطبعت مليارات الأوراق وسجنت المئات وما استطاعت منعها، وكان يكفي عند المسلمين في منعها أن يقال لهم: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، فقالوا: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا، وأُريقت شوارع المدينة بالخمر، لا مانع من ولاية العهد، ولا مانع من الإستمرار في الرئاسة والحكم طيلة الحياة شريطة أن نحكم بما أنزل الله، وعلى ذلك جرى العمل زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي... رضي الله عنهم أجمعين، فنحن لا نبالي إن حكمنا عبد حبشي مئة سنة بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ .

وصندوق الإنتخاب الذي يُعوّل عليه البعض قد يأتي بملحد زنديق، والأكثرية ليست عونًا للحق ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف: ١٠٣]، لقد جاور المسلمون الأمم فما أخذوا دين فارس، وما انبهروا بديمقراطية اليونان أو الرومان، بل كانوا حذرين من الإفساد الذي يُصاغ ويُصب في قوالب الإصلاح، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، إن إصلاح الديمقراطية أشبه بلذة ساعة وألم دهر، ولو تحقق - ولن يتحقق - فهو قاصر على هذه اللحظة الفانية، أما الإصلاح بدين الله فهو الإصلاح الحقيقي الذي يعقبه فلاح ونجاح ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤]، ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

إن المسلم الحق قد يكون أمة وحده، ينصلح به حال البلاد والعباد إذا سار علي درب الأنبياء والمرسلين، وقد يُحال بينه وبين الكثير من الأسباب المادية ولا يعدم الدعوات الصالحات التي يُغير بها سبحانه وجه الأرض، فقد دعا نبي الله نوح ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٠-١٥]، لقد أتى الطوفان بعد هذه الدعوات نصرة للمؤمنين ودماراً على الكافرين.

وقصّ علينا سبحانه ما كان من زكريّا قال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم: ٣، ٤]، لا يشقى العبد بطاعته لله، وقد ينصلح الأمر بدعوات صالحات، ولا حجر على سعة رحمة الله.

وإليكم بعض ملامح تراثنا وإسهاماته في نفع البشرية:

أولاً - ميزان وضابط:

لا بد من ميزان وضابط نزن به أنفسنا قبل الناس، وإن وافقناه كنا على حق، وإن خالفناه وجب علينا أن نراجع أنفسنا على فقهٍ نحاسبها على أساسه.

والمسلم دينه الإسلام وهو يجري منه مجرى الدم من العروق ولا حياة له بدونه ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشوري: ٥٢] فلا تتصور سعادة ولا هناءة في البعد عن دين الله، ولذلك ينتقل الناس من كرب إلى شقاء، ومن تعاسة إلى نكد كلما ازدادوا بعداً عن منهج حياتهم وصلاحهم ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ومن رحمة الله تعالى أن حفظ لنا الإسلام وحفظ أيضاً من يقوم به ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر: ٩]، بل وحفظت السُّنة أيضاً في داووين الإسلام، وميز لنا العلماء الأجلاء بين صحيحها وضعيفها، فكان الإسلام بمثابة واقعاً تطبيقياً.

فقد أقام النَّبي ﷺ دولة بالمدينة واتسعت رقعتها بعد ذلك لتشمل أرجاء المعمورة، وهذه الدولة حكمت بدين الله سياسة واقتصاداً واجتماعاً وأخلاقاً وكان لها عهود وعقود ومعاملات وسياسة داخلية وخارجية، وعلى ذلك درج الخلفاء من بعده، وهذا الأمر لا يخفى إلا على من أعمى الله بصيرته فلم يبصر الشمس في رابعة النهار ثم خرج يزعم بعد ذلك ويقول: أين نظام الإسلام في السياسة أو الحكم أو الإقتصاد؟! ومثل هذا لم يرجع لكتاب الله ولا سُنة رسول الله ﷺ، وتناسى الواقع التطبيقي للإسلام في أزهى عصوره: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» [متفق عليه].

ومن طالع كتب الفقه والحديث والتفسير والسير وجد تفاصيل ذلك كله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ⑮ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وما بعد النور إلا الضلال والعمى، والحق أبلج والباطل لجلج، وعلى الحق نور وهو واحد، والباطل كثير لا ينحصر، والبدع كثيرة وطرق الغواية كذلك، وهي عبارة عن فلسفات وتصورات ومذاهب تختلف فيما بينها وتشترك في أنها ضلال وبعد عن الحق والحقيقة.

وبإزاء الطريق المستقيم الذي رسمه الله لعباده وأمرهم بسلوكه سنجد طرقاً متعرجة متشابكة وظلام متكاثف ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ⑮③﴾ [الأنعام: ١٥٣].

هذا الطريق المستقيم طريق طويل وممتد ابتدأه ربنا جل وعلا بآدم «أبو

البشر» وكان نبينا مكلماً وسار فيه الأنبياء والصالحون كلهم أسلم وجهه لله واستقام على دين الله وقام بواجب العبودية لله رب العالمين ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾

[البقرة: ١٣٢].

لم يعتمدوا على حولهم وقوتهم ولا على عقولهم وعلومهم، وكانوا يحذرون الرأي والهوى في دين الله فلم يبتدعوا ولم يخترعوا ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وما خلت الأرض من قائم لله بحجة ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وأتباع الحق هؤلاء قد يقلون هنا ويكثرون هناك، ويدعون غيرهم إلى طريق الأمن والإيمان حتى وإن سخر بهم واستهزأ منهم، وكما ورد: «**ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**».

وإذا كان كل نظام له عقيدة، فالعقيدة ليست مختصة بالإسلام بل كل ديانة أو مذهب لابد لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات .

والعقائد منذ بدء الخليقة إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان:

[١] العقيدة الصحيحة: وهي العقيدة الحقة التي جاء بها الرسل الكرام في أي زمان ومكان، وهي عقيدة واحدة لأنها منزلة من العليم الخبير، ولا تختلف من رسول إلى رسول، ومن زمان إلى زمان، ولذلك يخطئ من يقول: الأديان السماوية، لأن الدين واحد لا يتعدد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو الذي بعث به نوح وموسى وعيسى ورسول الله ﷺ

ولكن تعددت الشرائع وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع.

[٢] العقيدة الفاسدة: وفسادها مس كونها نتاج أفكار البشر ومن وضع عقلائهم ومفكريهم، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وأفكار .

وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها وتغييرها وتبديلها كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإنهما حرفتا منذ عهد بعيد فسادها كان من هذا التحريف وإن كانت عقيدة سليمة في الأصل، واستبدلت التوراة بالتلمود والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام باثنى عشر إنجيلاً اتفقوا على أربعة منها وطرحوا الثمانية الأخرى وكلها تحريف وتغيير ولذلك يصادم بعضها بعضاً، فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فإنه لن يجدها في اليهودية ولا في النصرانية ولا في كلام الفلاسفة، وإنما يجدها في الإسلام في أصليه: الكتاب والسُّنة، تقنع العقل بالحجة والبرهان وتملأ القلب إيماناً ونوراً وحياة ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⦗٩⦘ ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ⦗٢٢⦘ ﴾ [الملك: ٢٢] .

ثانيًا - واقع البشرية ونظريات الإصلاح:

عندما ذهبت البشرية تلتمس الهدى في غير شرع ربها ضلت وأضلت، ولم تجد السعادة التي كانت تنشدها، ولا الراحة التي كانت تتلمسها، وذلك لأنها أسلمت رقبتها لبشر سماتهم النقص والقصور لا يدركون كثيراً من مصالحهم الحقيقية فضلاً عن أن يقودوا البشرية إلى حياة الخير وبر النجاة.

ثم تنازع هؤلاء الذين انحرفوا عن منهج خالق الخلق ومالك الملك فى حجر الزاوية وأساس الإصلاح فقال البعض: البداية تكمن في الإصلاح الإقتصادى وبصلاحه تنصلح الدنيا بأسرها، وخالفهم فريق آخر فقال: بل أساس كل صلاح أو إصلاح هو الحكم والسياسة.

وظهرت نظريات وفلسفات وخرجت جيوش من المصلحين يعالجون عوج البشرية، ويا ليتهم إذ شخصوا الداء عرفوا دواءه واستقاموا على منهج الله بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فعالجوا الإنحراف بانحراف والعوج بعوج آخر.

وقامت العلوم الإنسانية فى الغرب وفي مقدمتها التربية على أسس خطيرة، وهذه الأسس باختصار شديد:

[١] النظرية المادية التي لا تعترف بوجود الخالق جل وعلا وتضع مكان كلمة الله عبارة الطبيعة وأصبحت الطبيعة هي الإله الجديد عند الغرب الذي يعطي ويمنع، وبمقتضاها يسير الكون وفق هذا النظام المحكم الدقيق ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس: ٤٠].

[٢] النظرية التي تخضع الإنسان لمفهوم الحيوان سواء من ناحية النفس «نظرية فرويد» أو المعدة «كارل ماركس» أو مسئولية المجتمع «نظرية دور كايم».

[٣] نسبية الأخلاق باعتبار أن الأخلاق ليست من الدين ولكنها عادات وتقاليد.

وهؤلاء جميعاً أخطأوا الطريق ولا يشفع لهم حسن نواياهم إن وجدت، وهم خالفوا مقتضى العقل والفطرة والكتب المنزلة والأنبياء المرسلة في آن واحد لما تباعدوا عن دين الله الذى ارتضاه للعالمين ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) ﴾ [الملك: ١٤] .

ومعرفة الواقع من حيث هو واقع أمر مطلوب ومشروع إذا أردنا أن ننهض من كبوتنا وأن نبلغ رسالة ربنا للخلق كافة من باب عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه، ولحديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كانت الناس تسأل رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير» [رواه البخاري]، وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يهدم الإسلام إذا نشأ فيه من لا يعرف الجاهلية»، والجاهلية صور مكرورة لا تقتصر على حقبة زمنية ولا على مكان دون آخر.

وقد ذكر لنا منها القرآن عدة صور مثل :

[١] تبرج الجاهلية : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب : ٣٣]، لكون المرأة كانت تظهر خصلة من شعرها أو تسير مسفحة بصدرها وسط الرجال .

[٢] حمية الجاهلية : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

[٣] حكم الجاهلية : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

[٤] ظن الجاهلية : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ولما سمع النبي ﷺ أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ يعير أخاه بأمه قال له : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » [رواه البخاري] .

ولا شك أن غفلة البشرية وانسلاخها اليوم عن دين الله أمر لا يخفى على أحد فانتشرت الجريمة والظلم والإنحلال والفضائح السياسية، وانعدمت الأخلاق بالرغم من التقدم المادي، ووجدت مشكلات كثيرة يتولد بعضها عن بعض ويؤثر بعضها في وجود بعضها الآخر .

والإلحاد الآن يعتبر أم المشكلات وإحدى مظاهر العصر، وهو عبارة عن كفر بالخالق وميل عن طريق الإيمان، ومع طغيان موجة الإلحاد أصبحت الكنيسة بخزعبلاتها أثراً من آثار الماضي، واختفت تقريباً عدة نِحلَ مثل : الهندوكية والبوذية أمام مد الإلحاد الغربي والحياة العصرية، بل العالم الإسلامي والذي يقر بالتوحيد نوعاً ما لم يسلم من هذه الموجات الإلحادية والتي أصبحت تشكك بعض أبنائه في دينهم، والإلحاد الآن هو الدين الرسمي المعبر عنه بالعلمانية اللادينية في كثير من بلدان الغرب والشرق على حد سواء ... الأمر الذي ولد في النهاية ما يسمى بحضارة القلق على قول البعض .

وإذا كان الواجب علينا معرفة التوحيد وما ينافيه من الشرك، والحلال والحرام، والفرائض بما تصح وبما تبطل، والأمور التي تستصلح بها القلوب كالصبر والشكر والإخلاص، فإن من الواجب على الإنسان أيضاً إذا وقعت شبهة أن يتعلم من دين الله ما يستدفع به هذه الشبهة عن نفسه، وما أكثر الشبهات والنظريات والفلسفات التي يموج بها الواقع ! مثل الإشتراكية والديمقراطية والفرعونية وزمالة الأديان .

وبسبب الجهل بواقعها وحقيقتها انحرفت فيها قطاعات من الناس ينادون بها ويصرخون بتطبيقها والعيش في ظلالها . يفعلون ذلك مع صلاتهم وصيامهم ولا يجدون حرجاً من الخلط بين الإسلام وغيره من النظم والفلسفات .

ثالثًا - بعض خصائص وسمات الإسلام:

إذا كان الإسلام هو الميزان الضابط، وهو الحاكم، وكل شيء من الأنظمة والمناهج والفلسفات محكوم عليه، وهو يعلو ولا يُعلى عليه، وهو الصبغة التي صبغنا الله بها، والدين الذي ارتضاه سبحانه للعالمين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم في كل زمان ومكان، فلا شك أنه حوى واتسم بخصائص ومميزات تؤهله لذلك .

ومن أعظم هذه الصفات والخصائص:

[١] صفة الربانية:

فالإسلام من عند الله، وهو وحيه سبحانه لنبيه ﷺ ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)**﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] وجبريل عليه السلام هو ملك الوحي الذي كان ينزل بأمر الله على المرسلين كموسى وعيسى ورسول الله ﷺ، والقرآن الكريم بلفظه ومعناه من عند الله ونقل إلينا نقلاً متواتراً حفظته السطور والصدور أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، والسُّنة المطهرة الصحيحة معناها من عند الله واللفظ لرسول الله ﷺ .

وإذا كانت النظم الوضعية مصدرها الإنسان بقصوره وعجزه، فالإسلام مصدره رب الإنسان ومالكه الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدي، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢]، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢].

وقد أوجب ربنا علينا اتباع كتابه وسُّنة نبيه ﷺ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، والنبي ﷺ صادق مصدوق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

والنظم والفلسفات وإن رفعت راية العدل وتحقيق المساواة وغيرها إلا أنها في الحقيقة عبارات جوفاء لا رصيد لها من الصحة في الأعم الأغلب من الأحوال، والتمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس ما يزال موجوداً حتى عند أكثر الدول تحضراً - كما يزعمون - في القرن العشرين.

فمن النصوص القانونية في بعض الولايات الأمريكية «إن النكاح بين شخصين أحدهما أبيض وآخر زنجي يعتبر نكاحاً باطلاً» بل يحرم القانون عندهم أي دعوة لإقرار المساواة أو الزواج بين البيض والسود.

أين هذا الظلم الصارخ من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] وفي الحديث الشريف الذي أورده القرطبي في تفسيره عن الطبري بإسناده عمن شهد خطبة رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود علي أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟**»، قالوا: نعم، **قال: «ليبلغ الشاهد الغائب»**.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا:

من يكلم فيها رسول الله ﷺ قالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة ابن زيد حِب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة رضي الله عنه،فقال رسول الله ﷺ : «**أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟**» ثم قام فخطب ثم قال: «**إنما هلك من قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ؛ وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» [متفق عليه] وأن النَّبي ﷺ قال لأبي ذر لما قال لرجل من المسلمين: يا ابن السوداء: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»

[رواه البخاري].

والعقيدة ولا شك هي الضمان لحسن تطبيق النظام، والمؤمنون الذين يرجون ربهم ويخافون سوء الحساب ينقادون لأمر ربهم سرا وعلانية ويخافون على أنفسهم من مخالفته وعصيانه ﴿**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ⑮﴾ [الأنعام: ١٥]، أما القوانين والمبادئ الوضعية التي شرعها الإنسان فإنها لا تظفر بهذا المقدار من الإحترام والهيبة إذ ليس لها سلطان على النفوس، ولا يقوم على أساس من العقيدة الحقة والإيمان الصحيح كما هو الحال بالنسبة للإسلام، ولهذا فإن النفوس تجرؤ على مخالفة القانون الوضعي كلما وجدت فرصة لذلك وقدرة على الإفلات من ملاحقة القانون وسلطان القضاء ورأت هذه المخالفة موافقة لأهوائها محققة لرغباتها، والواقع خير شاهد على ما نقول.

ولننظر بعد ذلك كيف أتى ماعز والغامدية لرسول الله ﷺ وأقرا على نفسيهما لإقامة الحد عليهما لما زنيا فيرجعهما النَّبي ﷺ مرة بعد أخرى، وهما يصران على تطهير نفسيهما، لا شك أن رقابة الله وخوف الله هو الذي دفعهما لذلك .

ولما نزل تحريم الخمر يروي أنس رضي الله عنه ويقول:

« كانت الكؤوس تدار على رأس أبي طلحة وأبي عبيدة وأبي دجانة وسهيل بن بيضاء ومعاذ بن جبل إذ سمعنا أن الخمر قد حُرمت يقول: فما دخل علينا

وما خرج منا خارج حتى كان منا من اغتسل ومنا من توضأ وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد » وفي رواية: «**قلنا: انتهينا ربنا انتهينا**» قالوا ذلك لما سمعوا قول ربهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)** ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، فكانت المسارعة بالتنفيذ دون تلكؤ أو تردد أو شك أو ارتياب، وقام المسلمون إلى زقاق الخمر فأراقوها وإلى دنانه فكسروها وغرقت شوارع المدينة يومئذ بالخمر.

ولما شرعت أمريكا قانون تحريم الخمر سنة ١٩٣٠م وبموجبه حرم بيع الخمور وشراؤها وصنعها وتصديرها واستيرادها مهدت له بدعاية تكلفت « ٦٥ » مليون من الدولارات، وكتبت تسعة آلاف مليون صفحة في مضار الخمر ونتائجه وعواقبه، وأنفق ما يقرب من « ١٠ » عشرة مليون دولار من أجل تنفيذ القانون، وقتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نفس، وحبس نصف مليون شخص، وغرم المخالفون له غرامات بلغت ما يقرب من أربعة ملايين دولار، وصودرت أموال بسبب مخالفته قدرت بألف مليون دولار ثم قاموا بإلغاء القانون في أواخر سنة ١٩٣٣م. كان يكفيهم مع الإيمان قوله سبحانه: ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ ليقولوا: انتهينا ربنا.

[٢] الشمول:

فللإسلام حكمه في كل قضية من قضايا الحياة ؛ سواء تعلقت بالفرد أو الجماعة، بالمسجد أو بالسوق، بالسياسة الداخلية أو الخارجية ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]، ويقول تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فهي على قول بعض المفسرين تتعلق بالقرآن، فكل قضية لها حكمها في كتاب الله إما إجمالاً وإما تفصيلاً،

والأفعال أو الأقوال التي تصدر عن الإنسان بل الخلجات والأفكار التي تدور في النفوس أو القلوب لها حكمها في دين الله، وهي تأخذ حكماً من الأحكام الخمسة «واجب ومندوب ومباح ومكروه وحرام».

والإنسان الذي حمل الأمانة على ظلمه وجهله إذا نصب من نفسه مشرعاً وإلهاً مع الله لا بد وأن تتسم تشريعاته ونظمه ومناهجه بالظلم والجهل والقصور والهوى والنقص، ولذلك رأينا القوانين والنظم الوضعية تفصل فصلاً مريباً بين القواعد الأخلاقية والقواعد القانونية، فلا مكان فيها للأخلاق، في الوقت الذي امتزجت فيه الأخلاق بالأحكام الشرعية امتزاجاً كاملاً، فلا ضرر ولا ضرار، والمعصية لا تواجه بالمعصية والخطأ، ونحرص على تقوى الله فيمن لا يتقي الله فينا.

وهذا الإلتزام يتأكد في أحرج الظروف وأدق الأوقات ولذلك: «لما أتى أبو جندل يستصرخ المسلمين يوم الحديبية، وكان النبي ﷺ قد أبرم الإتفاقية أو العهد مع أبيه «سهيل بن عمرو» أمره النبي ﷺ أن يرجع وقال له: **«يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»** [رواه أحمد] وقال أيضاً: **«إنا لا يحل في ديننا الغدر»** [رواه البخاري وأحمد].

فهذا معنى من معاني شمول الشريعة، فالعهود كان يبرمها النبي ﷺ الذي أقام دولة بالمدينة وفق شرع الله، وفي ذات الوقت امتزجت المعاني الأخلاقية بالوعد والعهود امتزاجاً لن تجد مثله في السياسات الميكافيلية والغاية فيها تبرر الوسيلة كما هو معلوم.

بل ويقرر الفقهاء المسلمون أن الأجنبي «غير المسلم» إذا دخل إقليم الدولة المسلمة بأمان ولمدة معينة، لا يجوز تسليمه إلى دولته إذا طلبته خلال هذه المدة، ولو على سبيل المفاداة بأسير مسلم عندها، ويبقى المنع من تسليمها إياه وذلك لأن على الدولة الإسلامية أن تفي بعهودها له، فيبقى آمنا لا يمسه سوء، وتسليمه

بدون رضاه غدر منها بعهدها له، ولا رخصة فيها بل ولا يصح تسليمه حتى وإن قتلت دولته جميع رعايا الدولة المسلمة المقيمين في أرضها لأن فعلها ظلم ولا مقابلة بالظلم .

والمسلم وهو يتعامل مع الخلق لا ينسى خالقه وقد أمر أن يعي كل ذي حق حقه ويقول الرسول ﷺ : «**يا عثمان إني لم أؤمر بالرهبانية أرغبت عن سُنَّتي ؟**» قال: لا يارسول الله، قال: «**إن من سُنَّتي أن أصلي وأنام، وأصوم وأطعم، وأنكح وأطلق، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني، يا عثمان إن لأهلك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً**» [رواه الدارمي] ويعلم أن قضاء القاضي وحكم الحاكم وفتوى المفتي لا تجعل الحلال حراماً ولا تحول المعصية إلى طاعة قال رسول الله ﷺ : «**إنكم تختصمون إليَّ وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى لكم على نحو مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة**» .

وبالتالي فلا يحل لمسلم أن يبيح لنفسه فعل الحرام أو أكله، وإن أباح له ذلك القضاء، ولأن الحاكم يحكم حسب الظاهر والله يتولى السرائر، ولأن مناط الثواب والعقاب في الآخرة على حقائق الأفعال ونيات الإنسان وما ارتكبه من حلال أو حرام، والعبرة بالمقاصد لا بالألفاظ .

وفي ظل هذا الشمول سنعلم أنه لا فصل بين العلم والعمل، ولا بين الدين والدولة، ولا بين الدنيا والآخرة، ولا بين الأرض والسماء،ولا بين الصلاة والسياسة، ولا بين الأخلاق والحكم، ولا بين الزكاة والإقتصاد، ولا بين ساعة وساعة، ولا بين رجل ورجل، فلا يصح بعد ذلك أن نقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أو الدين لله والوطن للجميع، ورجال الدين ورجال الدولة، أو ساعة لربك وساعة لنفسك، أو اليوم خمر وغداً أمر ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقوله تعالى: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ [المائدة: ٤٩]، لا ينفصل عن قوله تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ [النساء: ١٠٣] .

وقوله تعالى: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين (٥٨) ﴾ [الأنفال: ٥٨]، لا يتباعد عن قوله جلا وعلا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة: ٨] .

وقوله سبحانه: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٢٩) ﴾ [التوبة: ٢٩]. خرج من مشكاة واحدة هو وقوله سبحانه: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران: ١٩]، وتقرأ في الأمر بالشوري: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشوري: ٣٨] .

وفي إيتاء الزكاة: ﴿ وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ [فصلت: ٦، ٧]. وفي أداء الأمانة: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [النساء: ٥٨]. وفي الميراث: ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ [النساء: ١١]. وفي تحريم الربا: ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي عقوبة السارق: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ [المائدة: ٣٨] . وفي التعزير: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشوري: ٤٠] .

وفي علاقة الإبن بوالديه: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ [لقمان: ١٥] . وفي علاقته بزوجته: ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [النساء: ١٩] .

شمول واضح وظاهر لكل ناحية من نواحي الحياة، ولو ذهبنا نستطرد لنقلنا آيات القرآن الكريم وسُنة النبي ﷺ، الذي لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن

أكمل له ربه الدين، وأتم عليه النعمة، ورضى لنا الإسلام ديناً، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد بين لنا وأعطانا من كل شئ علماً، وحتى لا نحتاج بعد ذلك لهذه الزبالات التي تفتقت عنها عقول البشر واعتبروها مناهج وفلسفات ونظريات ومن بينها الديمقراطية .

[٣] العموم:

النبي ﷺ ليس نبياً للعرب فقط وإنما للبشرية كافة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)** ﴾ [تبارك: ١]، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)** ﴾ [ص: ٨٨]، ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فهذه الرسالة للأبيض والأصفر، والأحمر والأسود، ويقول النَّبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**» [متفق عليه].

ولذلك توجه الصحابة ومن بعدهم بهذه الدعوة إلى رستم الفارسي وهنا وهناك، وأرسل النَّبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام،وقال له: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**- أي الفلاحين- ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾ [آل عمران: ٦٤]» [رواه مسلم].

وكانت الفتوحات الإسلامية لإعلاء كلمة الله في الأرض بل هذه الرسالة تعدّت الإنس إلى الجن ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ** ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

فالجن حين تنادت بذلك قالت: أنزل من بعد موسى، ولم يقولوا: أنزل من بعد عيسى، وذلك لأن التوارة شريعة مستقلة مثل القرآن بعكس الإنجيل فهو عبارة عن الأخلاق والآداب والأحكام التي أضيفت إلى التوارة وأصبحت مكملة لها، ولذلك يسمون التوارة بالعهد القديم.

وعموم الشريعة الإسلامية وبقاءها، وعدم قابليتها للنسخ والتبديل والتغيير بالنقص والزيادة، كل ذلك استلزم أن تكون قواعدها وأحكامها ومبادؤها وجميع ما جاءت به على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان ويفي بحاجاتهم ولا يضيق ولا يتخلف عن أي مستوى عال وصحيح يبلغه البشر بل بلوغ درجة الكمال البشرى المقدور إنما يحدث بالإستقامة على دين الله لا شئ سواه، والعليم الخبير هو الذي جعلها عامة في المكان والزمان وخاتمة لجميع الشرائع ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)** ﴾ [الملك: ١٤]، ويقول النبي ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»

[رواه مسلم].

فجاءت الأحكام والقواعد صالحة لكل زمان ومكان، ومهيئة للبقاء والإستمرار، تحقق مصالح العباد في العاجل والآجل والدنيا والآخرة، وتدرأ عنهم المفاسد والأضرار في العاجل والآجل أيضاً حتى قال بعض العلماء: إن الشريعة كلها مصالح إما درأ مفاسد أو جلب مصالح، والمصلحة تتحقق أتم تحقيق

بالرجوع لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعدم مخالفة شرع الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

ولذلك شرعت الرخص عند وجود المشقات، كإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر، والضرورات تبيح المحظورات وتقدر بقدرها، كإباحة أكل الميتة لمن خاف الهلكة ولم يجد مباحاً، والضرر يزال، ولا ضرر ولا ضرار .

وجاءت نصوص الشريعة بحفظ الضروريات الخمس وهي: «الدين والنفس والعقل والنسل والمال» ولحفظ الدين شرع الإسلام العبادات والجهاد وعقوبة المرتد وزجر من يفسد على الناس دينهم، ولحفظ النفس شرع النكاح والقصاص وتحريم إلقاء النفس في التهلكة ولزوم دفع الضرر عنها، وشرع لحفظ العقل تحريم الخمر والمخدرات، والنسل شرع الإسلام لإيجاده الزواج ولحفظه عقوبة الزنى والقذف وحرمة إجهاض المرأة الحامل إذا استتم الجنين أربعة أشهر بإتفاق العلماء، ولحفظ المال شرع الإسلام لتحصيله أنواع المعاملات من بيع وشراء ونحو ذلك وشرع لحفظه حرمة أكل مال الناس بالباطل أو إتلافه بلا وجه سائغ مشروع والحجر على السفيه وتحريم الربا وعقوبة السرقة .

كما وردت النصوص أيضاً بتحصيل حاجيات الإنسان «كالطلاق إذا لم تعد الحياة الزوجية تطاق» والتحسينات «كالطهارة للبدن والثوب، وستر العورة والنهي عن بيع الإنسان على بيع أخيه، والنهي عن قتل النساء والأطفال في الحروب» .

يقول ابن القيم – رحمه الله – عن شريعة الله: «مبناها وأساسها على الحكمة ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن الرحمة إلى ضدها وعن

المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه » اهـ .

ولا يمكن أن نغلق باب الإجتهاد أمام من تمهدت له أسبابه وحصل أدوات الإجتهاد، والنظر في كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، والشريعة بما حوت من مبادئ « كالشورى والمساواة والعدل وإزالة الضرر » وأحكام تفصيلية في كل ناحية من نواحي الحياة لا يمكن أن تضيق بحاجات الناس المشروعة، ولا تعجز عن تحقيق مصالحهم الحقيقية في أي زمان ومكان .

ومصادر الشريعة سواء أكانت أصلية وهي الكتاب والسُّنة، أو المصادر التبعية كالإجماع والقياس وغيرها ولله الحمد جاءت في غاية القدرة والإستعداد للبقاء والعموم بحيث لا يحدث شئ جديد إلا وللشريعة حكم فيها بالنص الصريح أو بالإجتهاد الصحيح، وبالتالي لا تضيق الشريعة بالوقائع الجديدة والحوادث المستجدة، والصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا لم يجدوا نصاً قاسوا الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر .

[٤] الجزاء:

وخاصية الجزاء تختلف كثيراً عن عقيدة الفداء والخطيئة وصناديق الغفران عند النصارى، فمن أذنب فعليه أن يبادر بالتوبة، وتأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه، ويشرع الستر على الإنسان إذا لم يكن مشهوراً بارتكاب الفواحش «**من أتى شيئاً من القاذورات فليستتر بستر الله فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله**»، وفي رواية أبي داود يقول النبي ﷺ لهزال – وهو الذي أتى بماعز الأسلمي لرسول الله ﷺ لما زنى –: «**لو سترته بثوبك لكان خيراً**»، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾

[النور: ١٩].

ولا يجب على الإنسان أن يذهب إلى الحاكم لإقامة الحد عليه إذا زنى مثلاً

لأن النَّبي ﷺ أرجع ماعز والغامدية مرة بعد أخرى، وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى: أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف – قال: **«فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر»** [رواه البخاري ومسلم]، والتوبة تمحو كل ذنب كفراً كان أو دونه ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾**﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] .

ونحن لا نفرح بكثرة عدد المحدودين أو المرجومين، ولا يصح أن نأخذ الناس بالشبهات فالحدود تدرأ بالشبهات، وروى ابن حزم بسند صحيح: «أن عبد الرحمن ابن حاطب كانت له نوبية صامت وصلت وهي أعجمية لا تفقه، وكانت ثيباً فحملت، فأرسل إلى عمر بن الخطاب فسألها: أحبلت ؟ قالت: نعم من مرعوش بدرهمين، فاستشار عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، فقال عليٌ وعبد الرحمن: وقع عليها الحد أي الرجم . فقال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فقال لعثمان: صدقت والذي نفسي بيده ما الحد إلا على من علمه، ثم أمر بجلدها مائة وتغريبها عاماً تأديباً لها لتهاونها في السؤال عن الحرام والحلال في أمر دينها» وورد في صحيح البخاري «أن امرأة بالمدينة كانت تظهر في الإسلام السوء» وفي رواية أخرى: «كانت أعلنت في الإسلام»، وفي رواية لابن ماجه: «فقد ظهر منها الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها» ولكن لما كانت جريمتها بدون بينة قاطعة ما أقيم عليها الحد مع أن النَّبي ﷺ قال عنها مرة: **«لو كنت راجماً بغير بينة لرجمتها»** .

ومن عجيب الأمر أن قطاعاً من الناس إذا ذكر الإسلام أو الشريعة الإسلامية لم يتبادر لذهنه من هذه الكلمة إلا الحدود كقطع يد السارق أو رجم الزاني

المحصن، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى الغربة التي وصل إليها الحال ومدى الضياع الذي وصلت إليه الأمة لما تباعدت عن كتاب ربها وسُنَّة نبيها ﷺ، غفلة عن شمول الإسلام لجميع نواحي الحياة وتنظيمه لها بل وغفلة أيضاً من معنى الجزاء في الإسلام والأصل في الجزاء أنه عقاب أخروي ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وهذا من أعظم الزواجر للنفوس المؤمنة عن المخالفة والعصيان، وربنا جل وعلا أحق أن يطاع فلا يعصي، وأن يذكر فلا ينسي، وأن يشكر فلا يكفر.

والجزاء الأخروي لا يمنع الجزاء الذي يوقعه الحاكم على المخالف لأحكام الإسلام، والجزاء في الدنيا أيضاً لا يمنع الجزاء في الآخرة عن المخالف العاصي إلا إذا اقترنت معصيته بالتوبة النصوح، فلا إصرار على الذنب، بل يندم على ما مضى، ويعزم على عدم العودة فيه مرة ثانية، وقيل: أن يندم بالقلب ويستغفر باللسان ويقلع بالجوارح، والمؤمن يعلم أنه لو أفلت اليوم من الجزاء الدنيوي فلن يفلت غداً من الله، فهو مالك الدنيا والآخرة، والخلق خلقه، والعبد عبده، والأمر أمره، وليس يخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، ولهذا يذهب هو بنفسه لإقامة الحد عليه ولاستيفاء الحق منه ففي رواية لعمران بن حصين في صحيح مسلم «أن النَّبي ﷺ لما أراد الصلاة على الغامدية قال له عمر: يارسول الله أتصلي على هذه الزانية ؟ قال ﷺ: « لقد تابت توبة لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم» [رواه مسلم]، وفي رواية بريدة «أن النَّبي ﷺ أمر برجم الغامدية، فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فنضح الدم على وجه خالد، فسبها فقال النبي ﷺ: «مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفِر له، ثم أمر بها وصلى عليها ودفنت»

[رواه مسلم].

ونطاق الجزاء في الإسلام واسع وشامل شمول الإسلام لجميع شئون الحياة، ومن ثم تعلق الجزاء في الإسلام بمسائل العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، فكل مخالفة لهذه الأمور لها جزاؤها في الآخرة،وقد يكون لها جزاء في الدنيا أيضاً، ومجتمع يطبق فيه حكم الله على الغني والفقير والرئيس والمرءوس لا بد وأن يسعد في الدنيا قبل الآخرة .

[٥] الإسلام دين الواقعية كما أنه دين المثالية :

وهذه السمة الواضحة لا تنفصل عن أخواتها من صفات هذا الدين، الذي امتن علينا ربنا، وشرفنا بالإنتساب إليه، وأن نكون تحت لوائه بما فيه من عدل واعتدال، وتوازن واتزان، حتى وإن رماه الملاحدة بالتخلف والرجعية والجمود، ونسبوا لأنفسهم – حين نادوا بالديمقراطية وغيرها من الفلسفات والمناهج – أنهم أصحاب دعوات تطورية وتحضرية وتقدمية، وأنهم يريدون أن يعيشوا حضارة القرن العشرين، ونحن بشر ولسنا ملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، نصيب ونخطىء، فإن وافقنا الحق فذلك فضل من الله، وإن خالفناه فمن أنفسنا ومن الشيطان والله منه برئ .

ورب العزة جل وعلا لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف عباده ما لا يطيقون، فالواجبات تسقط بالعذر والعجز وعدم الإستطاعة ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الحج : ٧٨]، فالإسلام لا يغفل طبيعة الإنسان، وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، ولذلك فالطاعات تتفاوت من واجبات إلى مستحبات، والمعاصي تتفاوت كذلك من أكبر الكبائر إلى الكبائر إلى الصغائر، والتقوى لها أصل وأساس، وهي أن يفعل العبد الواجبات وينتهي عن المحرمات، فإذا فعل المستحبات وترك المكروهات فقد تمت تقواه لله عز وجل ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ [فاطر : ٣٢]، والظالم لنفسه هو الذي غلبت سيئاته على حسناته، وهذا قد يدخل النار، ثم إذا دخلها فلا يدخلها

دخول الكفار، ولا يعذب فيها عذاب الكفار، ولا يخلد فيها خلود الكفار ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)** ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، والمقتصد هو الذي تتساوى حسناته مع سيئاته وهؤلاء يوقف بهم بين الجنة والنار ما شاء الله أن يوقف بهم، ثم يؤمرون فيدخلون الجنة، والسابق بالخيرات هو الذي غلبت حسناته على سيئاته، وهؤلاء يدخلون الجنة لأول وهلة، فالعباد يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في الدنيا والأخرة، وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله**» [رواه أحمد].

وكما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد ذكر ربنا جل وعلا أصناف الناس في أكثر من موضع من كتابه منها سورة الواقعة وسورة المطففين، والأولياء يتفاوتون أيضاً في درجات الولاية بحسب إيمانهم وتقواهم ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، والإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه، والإحسان يتضمن الإيمان ويزيد عليه، ولذلك يقول تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهؤلاء كان معهم أصل الإيمان الذي منعهم من الدخول في عداد المنافقين، ولم يكن معهم الإيمان الكامل الذي يستحقون به الدخول في هذا المعنى ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ١٥].

والعبد الذي يتابع الفرائض بالنوافل يصل إلى درجة المحبة، كما في حديث الولي: «**وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**» [متفق عليه]، والرجل عندما أتى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام فبين له الرسول ﷺ أركان الإسلام، فانطلق الرجل وهو يقول: والله لا أزيد ولا أنقص منه شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**» [متفق عليه] والمستوى الأرفع والأعلى حببت الشريعة إلى الناس بلوغه، ولكن لم توجبه

عليهم، وإلزامهم جميعاً به في كل وقت فيه حرج، والحرج في الشريعة مرفوع، وهذا من واقعية الإسلام، وهذا المستوى العالي يشمل فعل المستحبات والمندوبات وترك المكروهات، فالصلاة والصيام والزكاة والحج منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب ونافلة كصلاة الظهر والنوافل قبلها وبعدها، وصيام رمضان الواجب ثم صيام الإثنين والخميس مثلاً مستحب .

وفي الإعتداء تجوز المعاقبة بالمثل، والعفو والصبر أفضل ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** (١٢٦)﴾ [النحل: ١٢٦]، والكلام بالباطل حرام يجب تركه، وهذا من معاني المستوى الأدنى، ثم الثرثرة وكثرة الكلام بما لا يفيد ولا ينفع مكروه، وإن لم يكن فيه باطل، لما ورد في الحديث: «**اتق الله حيثما كنت**» [رواه أحمد والترمذي والحاكم]، وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**» [متفق عليه]، فالكلام الكثير بما لا ينفع مكروه وتركه أفضل، وهذا من معاني المستوى الأعلى.

وقد رخص الإسلام في النطق بكلمة الكفر حال الإكراه بالتهديد بالقتل مثلاً إلا أن العزيمة في مواطن إظهار الدين أفضل، ومن واقعية الإسلام إيجاد المخارج في أوقات الشدة والضيق أو في أحوال الإضطرار، كالفطر في رمضان للمريض والمسافر، وإباحة الصلاة للمريض وهو قاعد أو نائم «**صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطيع فعلي جنب**» [رواه البخاري]، ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة ١٨٥]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى» [متفق عليه] .

وقد نهى الإسلام عن الإفراط والتفريط، والغلو والجفو، والإسراف والتقصير، وخير الأمور الوسط، فلا رهبانية في الإسلام، وتعذيب الجسد وتحميله ما لا يطيق

ليس من مناهج الإسلام، فلذلك لما سأل الثلاثة عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما علموها وكأنهم تقالوها، فقال الأول: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثاني: وأما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء، فلما علم النَّبي ﷺ بذلك قال: **«أما والله إني لأتقاكم لله، وأكثركم له خشية: أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وهذه سُنَّتي، ومن رغب عن سُنَّتي فليس مني»** [متفق عليه]، أي ليس على هديي أو طريقتي المحمودة، وليس له أيضاً أن يعيش حياة البهائم السائمة، فيتلذذ بالحرام ولا يلتفت لدين، بل الواجب أن تحل ما أحل الله، وأن تحرم ما حرم الله، وأن تعظم حرمات الله ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)**﴾ [الحج: ٣٢] ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا**﴾ [هود: ١١٢]، وأن نعيش حياة الإعتدال، وقد قال النَّبي ﷺ لعبد الله بن عمرو: **«ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل»**، قلت: بلى يارسول الله، قال: **«فلا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك** – أي لمن يزورك من الأصدقاء – **عليك حقاً»** [رواه البخاري ومسلم].

فيجب أن نحرص على شمول النظر، ونتأسى في ذلك بخير القرون، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم عند الصلاة يصلون في المسجد، ويحرصون على إدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين ومتعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون، ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال، فالخير كل الخير في الرجوع لكتاب الله، ولسُنة رسول الله ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)**﴾ [الأحزاب: ٢١]، ونحن في هذا المنهج لا نحتقر طاعة، ولا نستهين بمعصية وإن دقت ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وفي الحديث: **«اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»** [رواه الترمذي وحسنه].

رابعًا - المنهج الإصلاحي لإمام دار الهجرة:

كأني بالبشر بعد نوم طويل، قد استيقظوا على صخب وضجيج، هذا يطالب بإقامة حياة ديمقراطية، والثاني يصف نظام الحكم الديمقراطي، والثالث يذم الديكتاتورية، والرابع يطالب بحوار ديمقراطي...

وإذا تباهى الشخص وافتخر قال: أنا ديمقراطي، وقد ينتقصه الآخر، فيقول له: أنت لست ديمقراطيًا، وقد يمتن الحاكم على شعبه، فيوضح لهم أنهم يعيشون حياة ديمقراطية غير مسبوقة، وغير موجودة في المنطقة من حولهم، وأنه لم يبخل عليهم بالديمقراطية، وفريق من البشر بعدما رفع راية «الإسلام هو الحل» وكأنه انساق وراء هذا الصخب، فغيّر جلده، وصارت «الديمقراطية هي الحل» ومن زعم اليقظة قال: لقد بح صوتي من المطالبة بالديمقراطية، ولم تأخذوا قولي، ولم تلتفتوا لنصحي، ولقد كنت سبّاقًا قبل أن يهم الأعداء بفرضها عليكم من الخارج، فخذوا بزمام المبادرة قبل فوات الأوان...

صخب وضجيج ليس لله فيه نصيب، والدعوة لتطبيق الديمقراطية ليست اكتشافًا ولا اختراعًا، بل هي دين وعقيدة موجودة في الغرب، وقد أخذوها عن سابقيهم؛ فالكلمة يونانية الأصل، وبالتالي فبدلاً من وصف المسلمين بالرجعية والجمود والتخلف والظلامية وعدم مسايرة التطور العصري، لكونهم يُنادون بالرجوع للكتاب والسُنَّة فأحرى بنا أن نصف دعاة الديمقراطية بهذه النعوت.

ومحاولة إبهار الدنيا بأن الديمقراطية ستحقق الرخاء والحرية وتصويرها على أنها الجنة الموعودة على ظهر الأرض، ما هو إلاّ تزييف وتلبيس وغش، وخداع؛ فالخيرات والبركات ما تتحقق إلاّ بإقامة منهج الله، أما المناهج الوضعية والنظم الطاغوتية الكفرية، فما هي إلاّ شر وفساد، ودعاتها مفسدون في الأرض، وإن زعموا الصلاح والإصلاح ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)** ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

الصالحون المصلحون الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] كانوا يدعون البشر لصلاحهم في العاجل والآجل، أي في دورهم الثلاث، في حياتهم الدنيوية والبرزخية والأخروية، يدعونهم لصلاح يعقبه فلاح، وغاية ما في الدعوات المادية كالديمقراطية أن يتحقق شيء من الخير – ولن يحدث – في اللحظات الفانية، أي أنها هلكة في العاجل والآجل لمخالفتها لدين الله، وقد ركز الأنبياء في إصلاحهم البلاد والعباد على معاني التوحيد وأصول الإيمان وقضايا العقيدة، فكلهم قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ربطوا الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، وعلى أساس ذلك انصلحت كل جوانب الدنيا سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية . .

أما الديمقراطية فقد ربطت البشر بالبشر، وأجازت للمخلوق أن يشرع للمخلوق، ودارت في حلقة مفرغة، فمنهم من يقول: الإصلاح الإقتصادي أولاً، ومن قائل: السياسة هي الأصل والأساس... ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ثم السياسة والإقتصاد في النظام الديمقراطي إنما تقوم على بنيان أوهى من بيت العنكبوت، فلا خوف من الله، ولا مراقبة له سبحانه، وقد تنصلح الظواهر مع فساد البواطن، وقد وصف جلَّ وعلا المشركين بالنجاسة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فأي صلاح يُرتجى من وراء النجاسات والقاذورات، أما المسلم فهو طيب، ظاهره وباطنه سواء؛ لأنه يتعامل مع من لا تخفى عليه خافية، وقد تضعف نفسه ويتعدى حدود الله، فيذهب بنفسه لإقامة الحد عليه؛ لعلمه أنَّ فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، وهذا بعكس من يتلمس الثغرات القانونية ويروغ روغان الثعالب، ومراقبته للبشر والدنيا هي كل همه ومبلغ علمه كما هو الحال بالنسبة للكثيرين من أرباب الديمقراطية.

وكما خالف عمر ﵁ بحضرة الصحابة الكرام، التاريخ الميلادي الإفرنجي عن عمد رغم علمهم به، وابتدأوا تاريخ هذه الأمة بالعام الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ، وبشهر الله الحرام، بعد تأدية الحج وإكمال الدين بهذه الفريضة العظيمة، فكذلك كان الحرص على تجنب الكفريات والوثنيات، كالديمقراطية وغيرها، لا لجهلهم بها، فقد جاوروا فارس والروم، وتعاملوا مع اليهود والنصارى ومشركي العرب، ولكن لعلمهم أنّ من تشبه بقوم فهو منهم، وأنَّ من أحب قومًا حُشر معهم، وأنَّ تشابه الظواهر يجر حتمًا لتشابه البواطن.

وقد أكمل لنا سبحانه الدين وأتمَّ علينا النعمة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمرن: ١١٠]، فهي أفضل من أهل الكتابين، وأفضل من فارس والروم، فهل يترك الكامل إسلامه ويأخذ بديمقراطية الناقص؟! وهذه الأمة المسلمة كانت عافيتها في أولها، وخيريتها كانت واضحة، وفي تمامها في القرون الثلاثة الأول «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [متفق عليه]، والصحابة الكرام ﷺ كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلفًا، وكل صحابيّ أفضل من كل من جاء بعده، كما يقول النووي -رحمه الله- وما كانوا عليه من علم نافع وعمل صالح هو المقياس والميزان لمن جاء بعدهم ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا، فمن أراد إصلاحًا حقيقيًا للبلاد والعباد في العاجل والآجل، فعليه بالرجوع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذ دينًا فليس باليوم دينًا، ومن هنا قال إمام دار الهجرة -رحمة الله عليه-: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها»، فأوجز

وأجمل واختصر دون إخلال، وإلاَّ فتفاصيل الإصلاح السياسي والإقتصادي والإجتماعي والأخلاقي... يُرجع فيه للكتاب والسنَّة وللواقع التطبيقي في عصر النبوة، وعصور الخلفاء الراشدين بعد ذلك لحديث العرباض بن سارية «**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**».

والإمام مالك – رحمه الله – في دلالته الأمة على طريق الإصلاح لم يكتشف ولم يخترع، ولم ينهج منهج التجربة والخطأ كما هو الحال عند الماديين، ولم يضع بديلاً للآخر للإصلاح، بل حصره وقصره وقيده بالرجوع لسلف الأمة، فلا مجال عند المسلمين لتطبيق الإشتراكية، فإن فشلت جربوا الديمقراطية!! فهذه بضائع مستوردة، لم تُفصّل على مقاسنا، ولا صلاح فيها لنا، بل ولا لغيرنا، وقد رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، فكيف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، إنَّ الله هو خالق الخلق ومالك الملك، إليه المرجع والمآب، والجنة والنار بيده سبحانه، وهو العليم الحكيم، الحلال ما أحل والحرام ما حرَّم، والدين ما شرع، وليس للبشر إلاَّ أن يقولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

لم يقل الإمام مالك: لن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بالديمقراطية؛ لكون أنَّ الدنيا تطورت وتحضرت وتقدّمت، أو لكوننا في القرن الواحد والعشرين، بل قال: لن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها، فقد علم أنَّ منهج الخالق للمخلوق لا يقبل التغيير وفق أهواء البشر، وأنه المنهج الكامل الشامل لجميع نواحي الحياة، والذي يعم بخيريته وفضله الزمان والمكان، وأنَّه المنهج المحفوظ بحفظ الله له، وأنَّ الصالح المصلح هو من يقوم بهذا المنهج الرباني **﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** [الإسراء: ٩] فلا معارضة في هذا المنهج بين إقامة واجب العبودية والتمسك بالأخلاق الإيمانية وبين إقامة حضارة على منهاج النبوة،

والأخذ بأسباب التطور والتقدم، فديننا هو الذي يأمرنا بإقامة الفروض الكفائية؛ كالزراعة والصناعة والهندسة والطب والأخذ بأسباب القوة وتعمير الدنيا بطاعة الله.

وقد غيّر سبحانه بسلفنا الصالح وجه الأرض، ودانت لهم الممالك، وفتحوا قصور كسرى وقيصر وأنفقت كنوزهما في سبيل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، لا حديث في الإعلام أو التعليم إلاَّ عن الديمقراطية، والأصوات العالية المسموعة لطوائف المثقفين والتنويرين – بزعمهم – كلها تُطالب بإباحة الفسق والفجور والإرتداد عن الدين، ومهاجمة الشرائع والشعائر، وإباحة التملك بأي وسيلة ولو ربوية بزعم حرية الرأي والفكر والإبداع والتملك ويسمون ذلك إصلاحًا، ويستخدمون نعوت الإبهار العصري. فهم أصحاب المنهج العقلاني، والتفكير المنطقي والتسلسل التاريخي..

فأي عقل ومنطق في مصادمة شرع الله، وهل نأمن إذا خالفنا جبار السموات والأرض، وأنتم تُشاهدون الجيوش الجرارة لفرض الديمقراطية، والمطاردة لمخالفيها، والخوف الذي تملكنا في حال عدم تطبيقها، لقد خيل أعداء الإسلام وأذنابهم على ضعاف البصيرة حتى توهموا أنَّ الإسلام هو الديمقراطية، وأنه لا فرق بين هذا وذاك، وذلك لوجود كلمات مشتركة كالحرية والشورى، بل اعتبر البعض ضياع فلسطين بسبب غياب الديمقراطية، وأنَّ السبيل لاستعادتها وتحريرها إنما هو بتطبيق الديمقراطية!!.

والكثرة تتلمس الإصلاح من المفسدين في الأرض، وتنتظر الخير والصلاح من مناهج الشر والفساد والكفر والضلال، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، لكل هؤلاء يُقال: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها» كلمة استقاها الإمام مالك من الكتاب والسُّنَّة، وشابه بها الصحابة الأفذاذ في صياغة المنهج الإيماني في كلمات قليلة ككلمة أبي بكر رضي الله عنه

للمشركين يوم الإسراء والمعراج: «إن كان قال (أي النبي ﷺ) فقد صدق» وقوله لعمر يوم الحديبية: «الزم غرزه فإنه على الحق» وقوله يوم الردة: «أينقص الإسلام وأنا حيّ»، وقول عمر ؓ: «إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، هذا الذي بلغنا به ما بلغنا»، وقوله لأبي عبيدة ؓ: «إنّا كنّا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين فمهما نطلب العز في غيره أذلّنا الله».

وقول أنس بن النضر ؓ يوم أُحُد: «علام الحياة بعده قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه – صلوات الله وسلامه عليه –». لقد أُوتي النَّبيّ ﷺ جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه، وكان للصحابة الكرام حظهم ونصيبهم من ذلك، وقد تشبه بهم الإمام مالك – رحمه الله – عندما صاغ مشروعه الإصلاحي.

والإمام مالك (٩٣هـ – ١٩٧هـ) هو أحد الأئمة الأربعة – أصحاب المذاهب المشهورة – جلس على كرسي الإفتاء وهو دون العشرين من عمره، وما أفتى في دين الله حتَّى شهد له سبعون من العلماء أنّه أهل للفتيا، صاحب سُنَّة وفقه وحديث وعبادة وورع، وقد انتشر مذهبه في الأندلس والمغرب والبصرة ومصر، وكثير من بلاد إفريقيا... وكان مثيلاً لإمام الليث بن سعد فقيه مصر.

وقد أسس الإمام مالك مذهبه على الكتاب والسُّنَّة، واعتمد عمل أهل المدينة، دار هجرة النبيّ ﷺ وموئل الصحابة الكرام، وبها تنزل الوحي، وهي طيبة وطابة التي تنفي خبثها، كما اعتمد عمل الصحابي إذا لم يخالفه غيره من الصحابة، وقال بالمصالح المرسلة التي لم يشهد لها الشرع باعتبار ولا بإلغاء..

ما أحوجنا أن نحفظ كلمة الإمام مالك – إمام دار الهجرة – وأن نرددها دومًا على أسماعنا وأسماع الدنيا من حولنا، بل وأن نسعى لتطبيقها؛ حتَّى يعم الإصلاح الحقيقي جميع أرجاء الدنيا، فمن كان كافرًا قلنا له: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥]، الكون من حولنا محكم منظم يدل على خالقه، ودلائل القدرة والعظمة كثيرة تلوي الأعناق، وشمائل النبوة، ومظاهر الإعجاز داعية للدخول في هذا الدين ولإسلام الوجه لله.

وإن كان من أهل الكتاب قلنا له: أسلم تسلم يُؤتك الله أجرك مرتين ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ارجعوا إلى كتبكم ففيها أكثر من مئة وخمسين بشارة لرسول الله ﷺ، صفته ودعوته ومهجره.. كما أنَّ فيها الدليل على أنَّ المستقبل للإسلام بغلبته وظهوره على الأديان كلها.

أما من أسلم فنقول له : ما نحتاج لإصلاح صوفي أو معتزلي.. فلن نكون من الطائفة الناجية الظاهرة المنصورة إلاَّ إذا كنّا على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ولا يُنتظر الخير والصلاح في فرق نارية عناها الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «**وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلاَّ واحدة**» وفي رواية « **إلاَّ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» فعقيدة الحلول والإتحاد وهجران الدنيا ودخول الخرائب وصرف العبادة للمقبورين لا صلاح ولا إصلاح فيها.

إنَّ العقل والمنطق والمنهجية، والشرع قبل ذلك يؤكد مقولة الإمام مالك، كما يؤكد قيمتها في وقت غربة وجهالة، يريد فيه البعض تدمير البلاد والعباد، بزعم الإصلاح الديمقراطي، هذه الدعوة المريبة المشبوهة في ظروفها ودوافعها، وفي منهجها ودعاتها.

لابد من مدافعة الباطل الديمقراطي بالحق الإسلامي؛ ليحيى من حيّ عن بيّنة ويهلك من هلك أيضًا عن بينة، ومن تخوف على ضياع اسم ورسم الإسلام بسبب هذا الصخب الديمقراطي، قلنا له اعمل بإسلامك ولإسلامك، واعلم أنَّ

النصر عقبى الصابرين، وأنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خامساً - التفوق في العلوم المادية عند المسلمين:

نعيش في وقت انبهر بالعلم، بل فتن به، وأصبح هو الميزان الذي يفرق به بين معاني التقدم والتطور، بين معاني التأخر والتخلف، بل أصبح العلم وسيلة للتحكم في كثير من البلدان والسيطرة على الشعوب، وانقسمت الدنيا على أساس ذلك إلى عالم متحضر، وإلى دول يُطلق عليها اسم دول العالم الثالث، وأدخلوا الشعوب الإسلامية ضمن هذه الدول، كيف حدث هذا؟ وكيف وصلت هذه الأمة إلى أن تصبح في ذيل الأمم، وهي المأمورة بتوصيل الحق للخلق، وبقيادة ركب البشرية في طريقها إلى الله؟

ولا يخفى علينا أن العلوم المادية التجريبية، تؤخذ من كل من أفلح فيها كائنا من كان، وإن كانت هي بمفردها ليست قرينة على الهداية، فعلى قدر علو كعب العالم اليوم في العلوم المادية، إلا إنهم يعانون من إفلاس فيما يتعلق بالهداية والدين، فهم ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** (٧) ﴾ [الروم: ٧] ولذلك يطلق بعض علماء العصر على التطور والتقدم اسم حضارة القلق.

ولا يخفى على أحد أن الإسلام هو دين العلم والعمل، وأننا عندما نسعى لإقامة خلافة على منهج النبوة، وحضارة على منهج العبودية لله في الأرض، ونتعلم العلم النافع ونتابعه بعمل صالح، نفعل ذلك كله ابتغاء مرضاة الله سبحانه ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وميزان القبول والرفض عند المسلمين، هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، على أساس ذلك يتم التقديم والتأخير، وبهذا المنهج تحدث البصيرة والعزة

والتمكن والسيادة بالحق على الخلق، وبمقدار التخلف عن منهج الله الذي ارتضاه للعالمين، يكون الضياع وسط الأمم والإنحدار إلى هوة الضلال والعيش وسط النكبات ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

ومن المعلوم أن هذه الأمة لن يصلحها أخذ المناهج والعلوم الكفرية من الشرق أو الغرب، ولا يتصور أن يكون شيء من أمور الكفرة كاملاً قط، حتى ما يتعلق بإتقان أمور الدنيا، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم »: « والثاني إن نفس ما هم عليه من الهدى والخلق قد يكون مضرًا أو منقصًا، فينهى عنه ويؤمر بضده لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلاّ الزيادة والنقص، فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يجعله على وجه الكمال ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط، فإذاً المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا، حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنياهم، قد يكون مضراً بآخرتنا أو بما هو أهم منه من أمر دنيانا، فالمخالفة فيه صلاح لنا ... إلى أن قال رحمه الله: وحقيقة الأمر أن جميع أعمال الكافر وأموره، لابد فيها من خلل يمنعها أن تتم له منفعة بها، ولو فرض صلاح شيء من أموره على التمام لاستحق بذلك ثواب الآخرة، ولكن كل أموره: إما فاسدة وإما ناقصة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، التي هي أعظم النعم وأم كل خير كما يحب ربنا ويرضى » اهـ.

فلا صلاح حقيقي، ولا إصلاح إلا بالتمسك بدين الله، والرجوع لشرع الله، ولا تطور ولا تقدم يرضي الله عز وجل، إلا بأن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فهذا هو المنهج الذي يحقق لنا الحضارة بمفهومها الحقيقي، وليس بمعناها الزائف.

سادسًا - أهداف دراسة التاريخ

ازدادت أهمية التاريخ في العصر الحديث، واستخدم كأداة لتوجيه الشعوب

وتربيتها، كما استعان به أصحاب المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم وتأييدها، وإيجاد سند تاريخي لها، بل إن الأوروبيين ينظرون له نظرة تقديس وإجلال، ويطلبون منه تفسير الوجود وتعليل النشأة الإنسانية، أما المسلم فهو حين يطلب العلم يطلبه لغاية وهدف يخدم دينه وعقيدته.

يقول سفيان الثوري: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ» ولذلك اعتنى كبار المحدثين مثل البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وأبي زرعة والترمذي بجانب من علم التاريخ وصنفوا كتبًا في ذلك.

فينبغي أن نتحرى الإفادة من التاريخ وأن نتلقى تعليمه على منهاج سليم؛ لأنه من العلوم التي تخدم الشريعة، ومن أهم ثمار وفوائد دراسة التاريخ:

[١] الأهداف التربوية:

وذلك عن طريق تحقيق العبادة وشمول جوانبها وإن كان كمال المحبة والخضوع، هو الهدف النهائي للتربية، فالتاريخ مجال واسع لتحقيق هذا الهدف لما فيه من العظات والعبر والأسوة الحسنة بالأنبياء والمرسلين، والخلفاء الصالحين، والعلماء العاملين، والدعاة المصلحين، في صبرهم وجهادهم وتحملهم المشقة في سبيل نصرة العقيدة، مما يبعث روح الجهاد والدعوة في الناشئة، ويزهدهم في الفانية، ويستحثهم على التمسك بالإسلام والإعتزاز بأحكامه، وأن يكون الولاء لله ورسوله.

والتربية بالأحداث من أنفع وسائل التربية، كالتعقيبات القرآنية على الغزوات، هذا بالإضافة لإكساب الدارس العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير؛ لأنه طريقة تقوم على النقد والمقابلة والتحقق، ووزن قيم الأدلة، وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها.

[٢] إدراك السنن الربانية:

وذلك لأن لله سننًا في خلقه أرشدنا إليها وطلب منّا التعامل معها ﴿ **فَهَلْ**

يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣]، حوادث متشابهة ومواقف متماثلة، والتاريخ يكشف عن هذه السنن التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات، ومعرفتنا بهذه السنن تزيدنا صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث، فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق.. وهذه السنن على صورتين:

١ - خارقة على خلاف المألوف: مثل تحويل العصا إلى حية، وعدم الإحراق بالنار، ونبع الماء من الصخرة عند ضربها بالعصا، وشق القمر..

٢ - جارية وهي نوعان:

(أ) كونية مثل تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر.

(ب) سنة متعلقة بدين الله ونهيه، ووعده ووعيده، فهي ثابتة لا تتبدل، مثل نصرة الله لأوليائه، وإهانته لأعدائه، فالله سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، ولا يسوي بين المختلفين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] والسنة الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات.

نحن عندما نتعرف على مصائر الأمم وقيام الحضارات وسقوطها وأسباب ذلك يجب علينا أن نتجنب الأسباب التي قادت السابقين إلى الدمار والهلاك، وأن نسير في تعاملنا مع الكون من حولنا على النهج الذي سار عليه الأنبياء والمرسلون ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر مُمَكنًا له في الأرض غير مأخوذ من الله وهم في ذلك يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق؛ لأن السُّنَّة تستغرق وقتًا طويلاً ولكنها تلاحظ من خلال التاريخ، يقول

تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق: ١٧]، ويقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وقرأ النبيّ ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود: ١٠٢].

ومن عجيب الأمر، نسيان أن التمكين تم بمشيئة الله، وأن الإنسان قد لا يرى عواقب الإنحراف عن منهج الله في أول الطريق، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفي الكتاب أجله، ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية مرة بالإستئصال من فوقهم، أو من تحت أرجلهم ومرة بالسنين، أو يذيق بعضهم بأس بعض، والسعيد في ذلك كله من وُعظ بغيره ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر: ١٧].

وإذا كان الغرب قد تعرف على القوانين المادية للتقدم، مما جعلهم ينالون ثمرة جدهم في الحياة الدنيا، إلا أنه رخاء موبوء، وانحدار واختلال اجتماعي ولن يكون كرخاء المؤمنين وطمأنينة نفوسهم.

ومن المشاهد أن ثبات السنن يقابلها ثبات في طبيعة الإنسان وخلقته، فالحوافز والدوافع هي هي، وما يصلحهم في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فالبشر يتحملون مسئوليتهم في الرقي والإنحطاط، وفي اتباع الخير والشر، فإذا وُجدَت الأسباب فإن النتائج تتبعها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، فحدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر، وخير السنة لا يناله العبد إلا بالهدى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه: ١٢٣].

ومن السنن الربانية مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء ومن الرخاء

إلى الشدة اختبارًا وامتحانًا ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومن السنن أن زوال الأمم يكون بالترف والفساد، وإن كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية ترفض الإستقامة على منهج الله، وليس كل ثراء ترفًا يقول تعالى: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (١٦) ﴾ [الإسراء: ١٦] وفي رواية أمّرنا بالتشديد أي: جعلناهم أمراء.

ومن السنن أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم، وعدم إقامة العدل ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين (١١) ﴾ [الأنبياء: ١١]، ومن السنن أن انهيار الأمم وزوالها يكون بأجل ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (٥٩) ﴾ [الكهف: ٥٩]، وقد يرى الناس موجبات العذاب والإنهيار قد حلت بأمة، ثم لا يرون زوالها: ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥) ﴾

[الحجر: ٥].

ومن سنة الله الجارية، استحقاق المؤمنين لنصر الله إذا استقاموا على أمره وحكموا شرعه واتبعوا رسله ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) ﴾ [غافر: ٥١]، وعوامل النصر موضحة في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٦) ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٧) ﴾

[الأنفال: ٤٥ – ٤٧].

ومن السنن المهمة معرفة أن الإبتلاء للمؤمنين سنة جارية ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وهذا الإبتلاء له فوائد مثل: تربيتهم على الثبات، واتخاذ الشهداء،

وتمحيص الأنفس واختبارها، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب، فمنهم من قتل ومنهم من أُلقي في النار، ومنهم من أُخرِجَ من أرضه، و كذلك جرى لأتباعهم، فلما نجحوا في الإبتلاء، وثبتوا على الحق، تنزل عليهم نصر الله، فأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، ومكّن لهم في الأرض، وجعلهم الوارثين، وأشفى صدورهم بهزيمة أعدائهم فضلاً عما أعده لهم من الدرجات العلى في الجنة.

ومن أهم السنن الربانية الجارية سنة التدافع أو الصراع بين الحق والباطل ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأعظم معروف يقيمه الناس، هو إخلاص العبودية، وأول منكر تجب محاربته، هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات والإعراض عن شريعة الله وعدم تحكيمها، فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل، وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة، ولا حتى مئات المعارك؛ وذلك لأنه يتخذ عدة أشكال، ويمتد في مساحات طويلة تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع، وقد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في أخرى، فاستمراره يأتي من كثرة الأعداء من الداخل والخارج، ومن النفس والأقارب والأموال والأزواج، ومن الشيطان وجنوده من الكفار.

والإنسان في صراعه قد وهب من القدرات والقوى ما يستطيع به مع توفيق الله وهدايته من السيطرة والإنتصار ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)** ﴾ [النساء: ٧٦]، ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فالتدافع في القرآن لخير البشرية، وحتى يكون الدين كله لله، والصراع المحمود هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها.

[٣] الاطلاع على معالم تاريخ الإنسانية:

كيف بدأت؟ وما الأطوار التي مرت بها؟ وما أهم المعالم في تاريخها؟

كلها أسئلة تعرف إجابتها من خلال القراءة الواعية للتاريخ،فيسهل علينا أن نتابع تاريخ الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم، وأن نتعرف على سيرة النبي ﷺ وكيف ربى جيلاً خوطب بقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم كيف قام الخلفاء الراشدون من بعده بتطبيق الشريعة ونشر الإسلام وتدوين العلوم.

وتبرز من خلال قراءة التاريخ سيرة العلماء والدعاة والمجاهدين ومعرفة أثر الإسلام في حياة البشر.

[٤] التأكيد على الحقائق المهمة في حياة الإنسان:

ومنها: أن توحيد الله هو أول ما عرفت البشرية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» [رواه الحاكم].

وبعد ذلك صار تاريخها دورات متعاقبة من الهدى والضلال، فالتصورات التي تزعم أن البشرية بدأت وثنية، ثم تطورت أديانها حتى انتهت إلى التوحيد، تصورات ضالة، وعبادة الأب والطوطم والوثن هي تطور الإنحراف البشري عن العقيدة الصحيحة في عصوره المختلفة.

وهل بعث الله نبيًا من الأنبياء ليقول للناس اتركوا عبادة الطوطم واعبدوا الوثن؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

إن كل نبي كان يأتي قومه فيقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه، يقول الله تعالى: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم جاءتهم الشيطاين فاجتالتهم عن دينهم» [رواه مسلم]، وهي صبغة الله ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فالإنسان مخلوق لعبادة الله وحده وأول البشر آدم عليه السلام نبي مكلّم.

ومن هذه الحقائق المهمة: أن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق الكون كله، وأن الإنسان مُستخلف في الكون الذي سُخّر له، ولذلك لا نجد عداءً بيننا وبين الكون، بل نجد التيسير والإنسجام؛ لأن هذا الكون عابد لله مسبح له، والمؤمن عابد لله ومتبع لشرعه، ومقتضى هذا الإستخلاف أن يُعمّر الكون بشرع الله دون أن يخرج عن شرط الخلافة، وهو تلقي الهدى من الله والقيام بعبادته، وذلك بعكس الكافر فإنه شاذ عن هذا الكون الطائع؛ ولذلك يشعر بعداء ويشعر بفخر وخيلاء إذا تمكن من معرفة شيء يسير من أسرار الكون، فيعلن بكل تبجح أنه انتصر على الطبيعة، وقهرها، ويشعر أنه سيد الكون والمهيمن عليه، وأنه يعمل ما شاء كيف شاء دون ضابط.

ومن الحقائق أيضا: أن هذا الإنسان قد خلق خلقا سويًا في أحسن تقويم منذ اللحظة الأولى لخلقه، وأن الله خلقه بقصد وبعلم ولوظيفة محدودة ودور مقدر له في هذا الكون، وأن له رسالة محددة فلم يُخْلق صدفةً ولا عبثًا، ولا تطورًا من حيوانات أو حشرات، كما يزعم الذين لا يؤمنون بالله من أصحاب مدرسة النشوء والإرتقاء، يقول تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)** ﴾ [التين: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)** ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ويقول تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)** ﴾ [ص: ٧١ – ٧٣].

ومن الحقائق المهمة: المعرفة بأن الإنسان بحاجة دائمًا إلى من يذكره ويرده إلى الصواب؛ ولذلك لم يكتف ربنا سبحانه بأن ركب في العباد عقولاً وأودع لهم فطرًا، فأنزل الكتب وأرسل الرسل؛ ليحيى من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، يقول سبحانه: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)** ﴾ [الحديد: ١٦].

ومن الحقائق أيضًا: إثبات أن الأمة الإسلامية هي صاحبة الدور المؤثر والفعال في تاريخ البشرية، وأنها تمثل دور الإستقامة والعدل، فهي بمثابة المحور الذي يتحرك من حوله التاريخ تاريخ العالم؛ لأنها هي الأمة الشهيدة بسبب اهتدائها بمنهج الله ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

[٥] الصبر على المشاق:

فمن فوائد دراسة التاريخ الصبر على ما يصيب المرء أثناء قيامه بواجبه، فليس وحده الذي أصيب وابتلي وإنما سبقه علماء ودعاة ومن قبلهم الأنبياء عليهم السلام،نالهم الأذى والعذاب في سبيل الله صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله، يقول تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)** ﴾ [البروج: ٤ – ٧]، وقال النبيّ ﷺ عندما جاءه خباب شاكيًا: **«لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه»** [رواه البخاري].

ومن فوائد دراسة التاريخ أن له قيمة نفعية مادية، ولهذا كان الخلفاء والحكام والسلاطين والقادة، يعنون بدراسته؛ لأنه يكسبهم خبرة في التعامل مع الناس، كما أن فيه إعانة لهم على حسن تصريف الأمور وسياسة الناس، ويجدون فيه من التجارب وقياس الأمور المتماثلة والمتشابهة ما يفيدهم.

[٦] الحصانة ضد الخرافات:

فمن ثمرات دراسة التاريخ أنه يوجد لدى الدارس حصانة ضد الخرافات والجهل والشعوذة؛ وذلك لأنه عبارة عن منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق، وقد استخدمه ابن تيمية وتلميذاه ابن كثير وابن القيم.

يقول ابن تيمية في رسالة له ناقش فيها قضية المشهد المنسوب للحسين بمدينة القاهرة: «لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام - لا الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا المغرب - لا على قبر نبي ولا صاحب ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح أصلاً، بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس،و تفرقت الأمة، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام، وعلت فيهم كلمة البدع، وذلك في دولة المقتدر في أواخر المئة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب، ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه الأعاجم، وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوى بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى علي ﷺ بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر عليّ هناك، وإنما دُفن علي ﷺ بقصر الإمارة بالكوفة» اهـ.

وقد قام دين الصوفية والشيعة على تعظيم المشاهد، وصرف العبادة من نذر وذبح ودعاء.. للمقبورين من دون الله، بزعم أنهم الأولياء واعتذروا عن صنيعهم الشركي هذا بمثل قول الله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، وشابهوا المشركين في قولهم: ﴿**هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [يونس: ١٨]، وكأنهم لم ينتبهوا لقول الله تعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية؛ لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم أو تشويه تاريخهم وحركتهم وإساءة الظن والقول فيهم.

ومن الأمثلة على ذلك: الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي قام بدعوة إصلاحية؛ لمحاربة الشرك والخرافات والبدع، فنشر السنة وصحح العقيدة في وسط

الجزيرة العربية، فقام أدعياء العلم وأرباب المصالح والسلطة بنشر الدعاية السيئة ضده، وتشويه دعوته وصُوِّر على أنه من الخوارج و صاحب مذهب جديد، حتى أن الشيخ محمد أبا زهرة في كتابه «المذاهب الإسلامية» يجعل الوهابية مذهباً مستقلاً، ويصنفها ضمن المذاهب المنحرفة، مثل القاديانية والبهائية، لكن بعد انتشار مؤلفات الشيخ وتلاميذه في العالم الإسلامي والوقوف على حقيقتهم تصححت تلك الصورة وعُرِف للشيخ قدره وجهده.

كما أن التاريخ بما يحفظه من الحقائق والوثائق، يكشف الغطاء عن أدوار خيانية أو انحرافات عقيدية وسلوكية، مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها، بسبب مراكزهم وسلطانهم وإعلامهم، ومن هؤلاء (كمال أتاتورك) الذي وصف بالبطولة، وأنه المحرر للشعب التركي من سلطة السلاطين، وقد اتُخذ مثلاً لكثير من الثورات في البلاد العربية، حتى إن أمير الشعراء أحمد شوقي مدحه بعد الإنتصار المدبَّر على الإنجليز بقصيدة يقول فيها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب　　　يا خالد الترك جدد خالد العرب

يقصد خالد بن الوليد، ولكن ما لبث أن ظهر على حقيقته، حيث ألغى الخلافة الإسلامية واللغة العربية، حتى في الأذان، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض العلمانية اللادينية على الشعب التركي المسلم، ونزع الحجاب عن المرأة، ثم ظهرت الوثائق التاريخية مصدقة للأفعال، فأثبتت عمالته للإنجليز وصلته بالماسونية، حتى إنه عندما حضرته الوفاة استدعى السفير الإنجليزي وطلب منه أن يتولى حكم تركيا من بعده، فاعتذر السفير بلباقة؛ حتى لا تتكشف العمالة.

ومن الثمرات التي يكتسبها دارس التاريخ، فهم حاضر الإنسان والقدرة على تحليله، خاصة إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع، وفي الأمثال العربية: «ما أشبه الليلة بالبارحة» والإنجليز يقولون: «التاريخ يعيد نفسه».

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ [الذاريات : ٥٢، ٥٣]، فهم لم يتواصوا بالتكذيب بالرسل، لكن اشتراكهم في الطغيان هو الذي وحد مواقفهم من الأنبياء.

كما أن بعض القضايا الحاضرة لها جذور تاريخية بعيدة، كالصراع بيننا وبين اليهود الآن، فلابد من معرفة الماضي لكي نفهم الحاضر.

(من أفضل ما كُتب في مناهج كتابة التاريخ : رسالة ماچستير بعنوان « منهج كتابة التاريخ الإسلامي » لمحمد بن صامل العلياني، فراجعه).

مسألة تتعلق بمكتبة الإسكندرية :

فقد جرت محاولة التغريب على إلصاق حريق مكتبة الإسكندرية بالمسلمين، وجارى المستشرقين في هذه الدعوى نفر من الكتاب في مقدمتهم جورجي زيدان، وطه حسين، بينما دافع عن المسلمين بعض كتاب الغرب، مثل جيبون في كتابه « سقوط الدولة الرومانية » حيث قال : إن هذه الفرية لفقها على المسلمين أبو الفرج العبدي في كتابه « مختصر الدول » وقد تُرجم إلى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها.

فأشار جيبون إلى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الإسكندرية، وأثبت أن الذي أحرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارها لجيوش كليوباترا بقيادة يوليوس قيصر.

وقد نقض هذه الرواية واشنطون أرفنج وفليه وغيرهم، كما نقضها أرنست رينان الذي قال في خطاب له في المجمع العلمي الفرنسي : إنه لا يعتقد أن عمرًا هو الذي أحرق خزانة الإسكندرية؛ لأنها أُحرقت قبله بزمن طويل.

(راجع كتاب « الشبهات والأخطاء الشائعة » أنور الجندي).

سابعًا - تحقيق الأمن:

الأفراد والدول والجماعات - هنا وهناك - وفي هذا العصر وكل العصور ينشدون الأمن والطمأنينة، وأن تكون بلدانهم واحة للأمان، ولم تجد الكثرة من هؤلاء سبيلاً لتحقيق هذا المطلب الغالي إلاَّ عن طريق القوة المادية المتمثلة في جيوش الشرطة والمباحث وسائر الأجهزة، واستخدموا من أجل ذلك النصائح والتحذيرات والأعمال السرية والعلنية، وأجهزة التصنت والتجسس؛ لطمأنة النفوس، وحفظ المجتمع من انتشار الجرائم، ولتحقيق الأمن الإجتماعي والصناعي... كما انتشرت شركات التامين التي أسسها اليهود مصاصوا دماء الشعوب، وكثُرت المصحات النفسية لعلاج أجيال القلق والضياع الفكري.

حضارة القلق :

وقد وجد هؤلاء أن الإنسان المعاصر تائه خائف، يَنشد أمنًا لا يجده، فالمناهج الفكرية والفلسفية الموجودة لا تُلبي رغبة ولا تريح نفسًا ولا تُحقق هدفًا، فهي حالة من حالات الخوف على المصير ومن المستقبل؛ فقد ازدادت نسبة الحوادث والجرائم، بل أصبح الناس يخاف بعضهم بعضًا، ويخافون الكوارث والأمراض والرياح والمطر والأعاصير، يخافون من الإيدز والسرطان.

كما يخافون من انتشار أسلحة وعلوم الدمار والتخريب، ولذلك أطلقوا على هذه الحضارة المزعومة اسم حضارة القلق، وكيف يطمئن أمثال اللاأدرية؟! ومن أمثالهم إيليا أبو ماضي وهو يقول:

جـــئت من أين ولكنني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت

فهو لا يدري من خالقه ولماذا خلقه وإلى أين المصير، ويقول الثاني:

قـــدر أحـــمق الخطى ســحقت هامــتي خطــاه

قصور مفهوم الأمن:

ونحن لا نستغرب هذا القلق وهذا الإضطراب، وهذا الخوف الذي يسيطر على الدول والأفراد، بل نرى أنَّ هذه نتيجة حتمية لقصور مفهوم الأمن والبعد عن حياة الإيمان، فليس كل من يتمنى الخير يُدركه، ولا تكفي النوايا الطيبة، ولكن لابد من الإستقامة وصحة العمل، وأن نأتي البيوت من أبوابها.

الأمن محور الحياة:

إن الأمن الذي تبحث عنه النفوس محوره الإيمان الذي مقره القلب وتستقيم على أساسه الجوارح، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالنفس ومتطلباتها كالأمن الصحي والأمن النفسي والأمن الغذائي والأمن الإقتصادي والأمن الأخلاقي، أو ما يتعلق بالمجتمع وترابطه كالأمن في الأوطان، والأمن على الأعراض، والأمن على الأموال والممتلكات، أو ما يتعلق بالأمن على النفس من عقاب الله ونقمته بامتثال أمره وطاعة رسوله، واتخاذ طريق المتقين مسلكًا واستجلاب رحمة الله، والأمن من عذابه في نار جهنم.

هذه الحاجات وهذه الضرورات قد لا ندركها إلاَّ بفقدان أو نقصان مرتبة من مراتب الأمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**».

والنفس لا تطمئن إلاَّ إذا آمنت بقدر الله، واستسلمت لقضائه سبحانه وعلمت أن المرجع والمآب إليه سبحانه، ولا يمكن أن يسعد البشر إلاَّ بإسلام الوجه لله تعالى ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)**﴾ [الملك: ١٤].

وعود المحترفين:

فالإسلام إنما هو لمصلحة النفس ولما يسعدها، ويُحقق لها الأمن بمفهومه

الصحيح، بعكس الوعود والخيالات في الأنظمة هنا وهناك لعلمهم أنَّ الأمن والأمان من المطالب الملحة للبشر في كل زمان ومكان، ولكنها لا تزيد على كونها شعارات وهتافات وتجارات عند هؤلاء المحترفين، يُتاجرون بها على أدمغة البشر، وإلاَّ ففاقد الشيء لا يعطيه، وهؤلاء لم يمنعوا المعاصي ولا الفجور، ولم يُقيموا الدنيا على أساس من دين الله.

وصدق من قال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يُحي دينًا

يقول تعالى: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المسلمون لا يعيشون الاضطرابات:

في أمريكا وجدوا مجرمين متأصلين في الإجرام، ومن أصحاب السوابق قد أسلموا داخل السجن، فصلحوا، ولم يعودوا للسجن بعدما خرجوا منه، أما من خرج وهو على ديانته السابقة فإنه لا يلبث حتَّى يعود إلى السجن مرات، ولذلك يوجهون الدعوات للمشرفين والدعاة المسلمين للزيارة وإعطاء المحاضرات.

ويقول بعض المسئولين عن الأمن عندهم: إن الخلاص من الجريمة لا يكون إلاَّ على الإسلام والعمل وفق منهجه.

وقد خرجت دراسات الغرب تقول: «إنَّ المسلمين لا يعيشون الإضطرابات المتعددة التي وقع فيها أبناء الغرب».

فالإنسجام التام بين السُّنن الشرعية والسُّنن الكونية والروح والجسد، وبين الظاهر والباطن، العلم والعمل، والدنيا والآخرة والأرض والسماء، وبين هذا

المخلوق والكون حوله، كل هذا لا يمكن أن نجده إلاَّ بعد الدخول في الإسلام وفهمه جيداً وتطبيقه، فلا تنافر ولا نفور بين الدين والدولة، ولا بين الساعات بعضها وبعض.

الإيمان بمثابة راحة للنفس:

والحدود والتشريعات في الإسلام بمثابة راحة للنفس، ولا تكون إلاَّ بالإيمان، وإذا كان رخاء المجتمع لا يكون إلاَّ بالأمان، فالأمان ثمرة من ثمار الإيمان، وقد بُعث النَّبيُّ ﷺ رحمة للعالمين، ودعوته كانت لتأصيل العقيدة والإيمان في النفوس بما يطمئنها ويُريحها. وفي الشرع سنجد الأصول الستة للإيمان عليها مدار النفس وسعادتها في العاجل والآجل، فعقيدة التوحيد والخوف والرجاء.. كل ذلك من شأنه أن يفترق به المسلم عن الكافر، يقول تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. فالرضا والإطمئنان يسببه الإيمان عند المؤمن بعكس صبر الكافر فهو بدون احتساب، ويتشابه مع صبر البهائم لما يُحمل عليها من أثقال، ثم الكافر دائم الجزع والتسخط لقضاء الله.

ننشد أمنًا وأمانًا في الدنيا والآخرة:

الإيمان لا يحقق الأمان فقط في الدنيا، وإنما تحقيقه لذلك في الآخرة أتم وأكمل؛ فالمؤمنون تطمئن قلوبهم يوم الفزع الأكبر، وهو قبل ذلك: «**إن كان محسنًا قال: عجلوني، عجلوني، وإن كان مسيئًا يصيح يا ويلتاه أين تذهبون بي، فيسمعه كل شيء إلاَّ الثقلين الإنس والجن، ولو سمعوه لصُعقوا**». وعندما يوضع في قبره، ويرى منزلته تطمئن نفسه - كما ورد في حديث البراء بن عازب وغيره -.

لقد أراد فرعون أن يطمئن على نفسه عند غرقه فقال: ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)** ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ **آلآنَ**

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١] فهو لم يؤمن في الدنيا ولم يغتنم فرصة التوبة حتَّى يرد على ربه آمنًا. وفي الحديث: «**تُقبل توبة العبد ما لم يُغرغر**».

فباب التوبة مفتوح حتَّى تتردد الروح في الحلقوم، وحتَّى تطلع الشمس من مغربها، وقد فتح سبحانه أبواب الرجاء لعباده، فقال: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [الزمر: ٥٣].

أحكام وحدود تُشيع الأمن:

الأحكام كثيرة وكلها من شأنها أن تشيع الأمن والأمان في النفس والمجتمع، ومن ذلك تحريم الإسلام للأمور التي تتسبب معها الجريمة كالخمر والزنى والربا والميسر، وقد أعطى كل ذي حق حقه، ومنع التعدي والظلم، وقضى على كل الأمور التي تُخل بالأمن، وكانت الحدود فيه بمثابة الروادع والزواجر والجوابر في نفس الوقت، والقَصاص من أسباب الإطمئنان في المجتمع: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد حرَّم الإسلام أن يورد الإنسان نفسه موارد الهلكة أو يُحملها فوق طاقتها ونهاه عن قتل نفسه «**من قتل نفسه بشيء فهو يجؤها به في نار جهنم**» [البخاري ومسلم].

وفيما يتعلق بالمال أمر بالكتابة والإشهاد والعدالة وتحديد الأجل ومراقبة الله، وتأدية الأمانة، فرأس المال جبان، ولا يطمئن إلاَّ بالأمان، والقضاء على مثيري القلاقل، ولا أقوى من حكم الله ورسوله، وتطبيق الشريعة من شأنه أن يُخيف من تُسوِّلُ له نفسه أن يعمل بمثل عملهم، ومن المعلوم أنَّ النفس لا تُنتج عملاً في جوٍّ مضطرب، وقد أُمر المسلم أن يُحصّن ماله بالزكاة وليس بدفع أقساط التأمين.

تعدد صور الأمن:

لو تأملنا الأحكام التفصيلية لعلمنا كيف يتم تأمين النفوس من التأثيرات الخفيّة كالسحر ووساوس الشياطين بالمعوذتين وآية الكرسي، وخواتيم سورة

البقرة . . . والرضا والقناعة بما قسم الله، والأمن الأخلاقي المذكور في أحكام الإستئذان والحجاب . . والأمن الصحي المتمثل في زيارة المريض والرقية والتداوي بالمباحات . . والأمن الزراعي المذكور في سورة يوسف والنحل، وأمن العقيدة المذكور في مثل قوله سبحانه: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

والأمن الأُسري الذي دلَّت عليه عشرات النصوص مثل: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٧٤] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وقول النَّبي ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**» .

مقدمات غائبة فكيف يتحقق الأمن ؟ !

إنَّ الأمن يحدث بالمشورة والتوبة والهجرة ومجاهدة الكفار والتوكل على الله، وبالتزام كل أوامره جلَّ وعلا، فكل آدابه عالية؛ لأنها مبعث للأمن، والراحة والإطمئنان في الحياة وبعد الممات في طاعة الله، والإعراض عن ذكره سبحانه هو مبعث الخوف الحقيقي .

والمؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩] .

وأمر الله سبحانه وبأسه شديد لا يمنعه أجهزة الإنذار المبكر ولا الجيوش الجرارة، ولا كل مظاهر الأمن المادي، ونظرة سريعة على ما تُحدثه الزلازل والفيضانات كفيضان المسيسبي والأعاصير كإعصار أندرو في أمريكا وسائر صور الدمار ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢] . وكما قال سبحانه: ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] سندرك حتمًا لا

محالة أنَّ الإيمان هو سبيل تحقيق الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، للأفراد والدول والجماعات، فهيا نصبغ أنفسنا بصبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ونطرح عن أنفسنا هذا الطغيان المادي الذي علق بقلوبنا وعقولنا.

ثامنًا - تحقيق الحرية الحقيقية

الحرية كلمة براقة لها عذوبة في الأفواه ولذة في الأسماع يتغنى بها الشعراء، نادى بتحقيقها المصلحون، ووضعت المخططات للحصول عليها والتخلص من أسر العبودية، وبذلت الأمم الأموال والأرواح لتحقيقها، وجعلت اليوم الذي حصلت فيه عليها عيداً، ولا تجد أمة تستعذب طعم العبودية وتمقت الحرية، ولكن دائرة العبودية التي يهرب منها البشر دائرة ضيقة يظنون أنهم إن تخلصوا منها فقد تحرروا وواقع الأمر ليس كذلك، فتراهم يرسفون في قيود العبودية المقيتة وهم لا يشعرون ويحتفلون بأعياد الحرية وهم غرقي في أسر العبودية، ومن هنا كان لابد من ميزان وضابط نزن به الحرية الحقيقية من الخداع والزيف، وخصوصاً في وقت كثر فيه الخداع والتلبيس، ورفعت فيه الشعارات والهتافات والصيحات من أناس خفي عليهم الكلام فتكلموا.

ضابط الحرية الحقيقية:

التحرر الحقيقي يعني الخضوع لله وحده، وأخذ منهجه دون سواه والتحاكم إلى شرعه دون بقية الشرائع، والحرية في الإسلام تقرر في صورة العبودية وهي أن تُعبد نفسك لله وحده في توجهات قلبك وعقائده، وفي مسار فكرك في أقوالك وأفعالك، وفي القوانين التي تهيمن على المجتمع ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، بل المشاعر والأحاسيس والعواطف والوجدانات والخلجات إنما تخضع لهذا الميزان ولهذا الضابط أيضاً، ويتخوف المسلم على نفسه منها إن خالفت كتاب

الله أو سنَّة رسـول الله ﷺ وينزلها منزلـة الوساوس التي لئن يخر من السـماء إلى الأرض لكان أهون عليه من أن يجدها أو يشعر بها.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: « إن أناساً من أصحـاب رسول الله ﷺ سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: « **أو قد وجدتموه؟** »، قالوا: نعم. قال: « **ذلك صريح الإيمان** » وأورد الإمام مسلم في كتاب الإيمان باباً ترجم له النووي بعنوان « بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ».

فلم يجرؤ أحد من الصحابة أن يصرح بأعيان تلك الخواطر التي اعترتهم حتى بلغت منهم شدة الحذر من ذلك مبلغاً يفسره لنا حديث ابن عباس عند أبي داود قال: « جاء رجل إلى النَّبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه « يعرض بالشيء » لأن يكون حُمَمة إليه من أن يتكلم به ».

فهؤلاء الأفاضل الكرام رضوان الله عليهم جميعاً كانوا يقيسون كل شئ بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ وهذا هو ميزانهم حتى فيما يتعلق بمشاعرهم التي قد لا ينفك عنها البشر إذا غفلوا عن ذكر ربهم، فأين هذا من أصحاب الأدب الرخيص الذي يعبرون فيه عن كل ضياع، ويروجون به للفسق والرذيلة ويطلقون عليه بعد ذلك اسم الأدب المكشوف أو الأدب الغريزي أو أدب الجنس ويطلقون فيه على هذه الوساوس الشيطانية اسم صدق الحس وعمق الشعور والوجدان.

والناس حين يرفضون عبودية الله فسيعبّدون أنفسهم لا محالة إلى مخلوقات مساوية لهم أو أقل منهم شأناً لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، ولذلك يقول النَّبي ﷺ: « **تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، إن أعطي رضى وإن لم يعط سخط، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش** » [رواه البخاري]، وهذا دعاء عليه وبيان أن الإنسان إما أن يكون عبداً لله وإما أن يكون عبداً لهذه المخلوقات، والعبادة هي كمال الحب مع تمام

الخضوع والذل، فإذا اجتمع الأمران أطلق وصف العبادة، وإلا فقد يطيع زوجته أو امرأة ويخالف أمر ربه فيطلق على الأمر وصف المعصية، وقد قال الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥].

ومن عجيب الأمر في زمن امتلأ بالعجائب لما انحرف عن منهج العبودية لله سبحانه أن نجد من يطلق على المغنين والمغنيات والفاسقين والفاسقات اسم معبود الجماهير ومعبودة الجماهير، ولذلك نحتاج إلى إيمان مبصر يغرس في القلوب ويحررها من العبودية للطواغيت والأصنام حجراً كانت أم بشراً ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾[آل عمران: ٦٤].

صور ومظاهر الحرية الحقيقية:

«ذهب ربعي بن عامر رضي الله عنه إلى رستم قائد الفرس المشهور وكان الأخير قد طلب أن يعرف ماهو الإسلام؟ فلما قدم عليه ربعي قال له: من بعثكم؟، فقال ربعي: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فهذا هو المسلم وهذه هي كلماته عندما يخلص العبودية لربه جل وعلا عبارات تنطق بالنور وتعبر عن صور ومظاهر الحرية الحقيقية لا الحرية الزائفة التي يتشدق بها الناس وقد وقعوا أسرى الفلسفات والمناهج الكفرية الخربة والعقائد الباطلة، واستعبدهم البشر الذين نصبوا من أنفسهم أرباباً مع الله، ووضعوا هالة من الأساطير حولهم وزعموا أن الدماء الزرقاء تجري في عروقهم كهذا الفرعون الذي قال للناس: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾[النازعات: ٢٤]، ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي ﴾ [الزخرف: ٥١]، ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وأحياناً كانت تصرف العبادة من الناس لأناس صالحين لم يريدوا مثل هذا التقديس ولا أن يرفعوا فوق مرتبتهم كبشر، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وكانو يردون هذا الغلو على أصحابه ومثلهم الأعلى في ذلك رسول الله ﷺ فعندما أتاه البعض يمدحه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**» [رواه البخاري ومسلم]، وذلك لأن سبب شرك النصارى هو الغلو في المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، والأمر عند أهل الكتاب لم يقتصر على الغلو في عزير والمسيح وصرف العبادة لهما من دون الله، وإنما حدث غلواً أيضاً في الأحبار والرهبان ولذلك يقول الله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)**﴾

[التوبة: ٣١].

والإسلام جاء ليحرر العباد من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده، وهذا التحرر يجب أن يشمل أول ما يشمل قلب العبد ولأن القلب ملك مؤمر، وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا إن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» [رواه البخاري].

والقلب هو محل الإعتقاد وموضع الهم والإرادة والنية، وصلاح الإعتقاد بمعرفة العبد بربه وصفاته والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره، حلوه ومره، والإخلاص في ذلك لرب العزة جل وعلا ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وبتحقيق معنى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، يحقق العبد العبودية لله ربه ومولاه.

تحرير القلب يجب أن يتم بتحريره من الخوف من الآلهة المزيفة والطواغيت والظلمة، والطواغيت يحاولون في كل عصر أن يغرسوا في قلوب العباد الرهبة من أوليائهم وأندادهم وقد قص علينا ربنا قول إبراهيم في محاجته لقومه قال: ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴿٨١﴾ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]، ولما قال موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ [طه: ٤٥]، كانت الإجابة من رب العزة: ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦]، والشيطان يخوف عباد الله المخلصين، أولياءه الضالين ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والتوكل على الله فلا يتحرر العبد حقيقة إلا إذا كان تعلقه وتوكله عليه، والأنبياء والمرسلون هم أعظم الخلق توكلاً على الله عز وجل ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذه الكلمة على وجازتها جمعت معاني القرآن كله وقد اقترنت فيها العبادة بالتوكل.

وهذه الأمة إن تعد إلى ربها وتتوكل عليه سبحانه يرسل لهم نصره ويحل عليهم رضوانه كما حدث مع سلفهم الصالح يقول ربنا جل وعلا عن غزوة الأحزاب: ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿١٠﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، وكان الصحابة يومئذ على الرغم من هذا الهول وهذه الجحافل الشركية الجرارة التي أتت من كل حدب وصوب كلهم توكل على ربهم ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وكانت نتيجة المعرفة ما ذكره الله تعالى ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وكان هذا هو موقفهم دائماً من قبل ومن بعد، ففي غزوة أحد خرجوا إلى حمراء الأسد صبيحة

يوم أُحد على ما بهم من جراح وآلام نزولاً على أمر الله وتوكلاً عليه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾

[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وكان الحكام الصالحون يربون الجنود على المفاهيم الإسلامية، فكانوا ينتقلون من نصر إلى نصر، ومن عز إلى آخر، كخالد بن الوليد الذي سمع جندياً يقول قبل معركة اليرموك: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فصاح فيه خالد: بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٩]، ولما أخذ قائد الفرس يتهدد المسلمين ما كان من القائد المسلم إلا أن قال: «جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

ثم ما الذي حدث بعد ذلك هل استقامت سيرة الأمة على ما استقام عليه أوائلها ؟ كلا بل وجهوا الوجوه إلى روسيا تارة، وإلى أمريكا تارة ثانية، وإلى مجلس الأمن وهيئة الأمم وسائر اللعب اليهودية فتوالت الهزائم، وما نزل بلاء إلا بذنب كما قال عليّ بن أبي طالب، وسلطت سيوف أعداء الله المجرمين على الأمة التي ضلت عن دينها ويوم تعاود دينها سيعود لها عزها وتمكينها بإذن الله تعالى، فهناك قوة أعظم وأكبر من قوة الدول العظمى يمكنها أن تغير مسار المعارك والحروب ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾ [البروج: ٢٠].

الحريات الزائفة في النظام الديمقراطي:

تنص النظم الديمقراطية على حق الشعوب في الحرية، وإعطاء حرية العقيدة والرأي والتملك والحرية الشخصية للأفراد على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم، وتحمي هذه الحريات ولكن بشرط أن لا تستخدم هذه الحرية للتخريب وإشاعة الفتنة بين الناس، أما إذا استخدمت الحريات لهذا الغرض فإن هذه القوانين تمنع هذه الحرية وتضرب على أيدي مستغليها لذلك الغرض التخريبي الذي يؤدي في النهاية إلى هدم النظام القائم.

وهذه هي معاني الحرية وهي عبارة عن كلمات مجملة لابد من تفصيلها وتوضيح ما تنطوي عليه من معان ومخالفات لكتاب الله ولسنَّة رسول الله ﷺ، وما آل إليه واقع الحال بسبب تطبيق هذه الكلمات، ففي ظل النظام الديمقراطي أصبح البعض يطعن في الرسالة، ويكفر، ويرتد، وينشر المناهج الكفرية الخربة في وسط المسلمين تحت شعار حرية الرأي والتعبير، ويتملك المال بأي طريق حتى ولو بالربا، ولا اعتراض عليه في النظم الديمقراطية طالما أنه لم يتملكه بالإكراه.

بل ويزني ويُزنى به عملاً بالحرية الشخصية ولا عقوبة إذا وقعت الفاحشة بالتراضي بين الرجل والمرأة، وقد قرأت خبراً في جريدة الوفد مؤداه أن فتاة ذهبت إلى القضاء تشتكي شاباً زنى بها، فذهب هو والمحامي وأقر بالزنى بها ولكنه قال: إنه تم برضاها، وكأنه كان يجيد الإفلات من القوانين الوضعية، ومعلوم أن الإقرار هو سيد الأدلة، ولا شك أنها حريات خاطئة وغير عملية وكلمات الحرية حين أطلقت كانت كلمات عامة مطلقة بمثابة السيارات التي تنطلق دون فرامل، وإلا فمن الذي يحدد النسب والشرط الذي وضعته النظم الديمقراطية، وهو عدم إشاعة الفتنة والفرقة أصبح يستخدم أسوأ استخدام في الصد عن سبيل الله ومنع الحق وإعطاء الفرصة لكل باطل وكفر أن يطل برأسه تعبيراً عن نفسه وترويجاً لما هو ... وعليه من انحراف، وأصبح المحافظة على النظام العلماني هو الغاية حتى وإن كانت هذه الحرية على حساب دين الله تبارك وتعالى.

وقد حاول الغرب الإجابة على السؤال بتحديد نسب الحرية دون جدوى حتى يومنا هذا، فتارة يقولون: لا ينبغي أن تصل الحرية إلى حد الفوضى أو أنها لا ينبغي أن تكون على حساب الآخرين أو أنها تنتهي عند معارضة مصالح الآخرين أو حرياتهم.

تقول البروتوكولات عن المبادىء التى رفعتها فرنسا ويسمونها بأم المبادىء التحررية في العالم أجمع (حرية – مساواة – إخاء): «كنا أول من اخترع هذه

الكلمات التي أخذ العميان يرددونها دون تفكير »، وهذه المبادئ عبارة عن كلمات جوفاء متناقضة روج لها اليهود لضرب الدين والعقيدة، وأصبح اليهود بمقتضاها يمارسون أنشطتهم كإنسانيين، وأصبح الدين أمراً شخصياً، فالحب والإخاء يكون في سبيل الوطن أو القومية، وأصبح لا فرق بين مسلم وكافر، وكانت الحريات على قدم المساواة بين الناس جميعاً، ليس فقط لمن أراد أن يرقص ويثير الفواحش وينشرها على الملأ بل لمن وصف دين الله بأنه رجعي ومتخلف، ومن التزم به متطرف وعنده هوس ديني.

ومن عجيب الأمر وفي الوقت الذي تعطى فيه الحريات لكل كافر ومنحل وأصبح فيها الحبل على الغارب نجد تضييقاً على المسلمين وحرباً هنا وهناك، بل وفي فرنسا التي رفعت المبادئ الإنسانية والتحررية فقد رأينا كيف قامت الدنيا ولم تقعد بسبب إرتداء الفتيات للحجاب، وهناك إبادات جماعية للمسلمين تدور في روسيا على يد هذا الخبيث « جوربا تشوف » الذي أطلق الحريات كما يقولون هنا، وكأن الإنسان إذا رقص أو زنى في النظم الديمقراطية فهذه حرية شخصية، أما أن يطلق لحيته أو تتجلبب المرأة فهذه هي الرجعية والتخلف ولابد من منع اللحية والنقاب. فهل يقصدون بالحرية التفلت من شرع الله وهدم دين الله ؟.

يقول أحد القادة العرب: « لابد أن نجعل المرأة رسولاً لمبادئنا التحررية ونخلصها من قيود الدين» واستجابت بعض النسوة وخرجت تهتف وتغني: «أعطني حريتي أطلق يديّ» وأصبح من الكلمات الدارجة على الألسنة قول البعض: « كل إنسان حر»، أي في أن يفعل ما يشاء ويقول ما يريد دون رادع، وسمعنا أيضاً عمن يسمى «بأصحاب الفكر المستنير» وغيرها من الكلمات التي زخرفوا بها الباطل والضلال.

حريـــة الفكــر:

حرية الفكر لدى التقدميين تعني الإلحاد وإذا كان الإسلام لا يبيح الإلحاد

فهو إذن يبيح حرية الفكر على هذا النحو الذي تطالب به هذه النظم المارقة، وما حدث من الكنيسة في أوربا من خنق لحركة العلم، وتحريق العلماء وتعذيبهم وفرض الخرافات والأكاذيب على الناس باسم كلمة السماء، الأمر الذي ولد عندهم الدعوة لحرية الفكر وفصل الدين عن الدولة.

هذا الأمر الذي حدث في أوربا ما حاجتنا نحن إليه وما علاقة الإسلام به، وليس في العقيدة إشكال يحير الذهن فالله خالق كل شئ وإليه المرجع والمآب يحكم سبحانه لا معقب لحكمه ويقضي ولا راد لقضائه، أعطى كل شئ خلقه ثم هدى، وله الأسماء الحسنى أمر عباده أن يسلموا وجوههم له ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وسخر لهم الكون من حولهم يأخذون بأسباب التطور ويقيمون حضارة على منهج العبودية لله في أرضه وبحيث تتطابق السنن الشرعية مع السُنن الكونية، وليس في الإسلام رجال دين كالذين كانوا في أوربا، فالدين دين الله ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، والناس إما عالم أو متعلم، ولا ينبغي لأحدهم أن يكون إمعة ينساق وراء كل ريح، وأكرم الناس عند الله أتقاهم سواء كانت وظيفته مهندساً أو مدرساً أو عاملاً، ولا واسطة بين الخلق وخالقهم إلا واسطة التبليغ «فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم». والدين ليس حكراً لأحد ولا لهيئة وإنما هو لمن يحسن فهمه وتطبيقه حتى لو لم يتخرج من الأزهر، ولا يصح لأحد أن يتكلم في دين الله بغير علم: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣]، وباب الإجتهاد مفتوح لمن حصَّل أدوات النظر في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ وكانت عنده الأهلية في ذلك، ومن لم يكن كذلك فإنه يرجع لعلماء الأمة المعتبرين لمتابعة فهمهم لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ**

لَعلِمَهُ الَّذين يَسْتنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ولكل علم عالم فكما أن للهندسة علماؤها وللطب علماؤه كذلك الأمر بالنسبة لدين الله، والأزهر بوصفه معهداً علمياً دينياً ليس سلطة تحرق العلماء أو تعذبهم أو تفرض الإتاوات والخرافات كما فعلت الكنيسة بخزعبلاتها، بل لو أخطأ أحد علماء الأمة لوجب رده، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وقد رأينا كيف قال كثير من العلماء علماء الأمة: إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فخذوا بقول رسول الله ﷺ واضربوا بقولي عُرض الحائط.

ونحن عندما ننادي بتطبيق شرع الله والرجوع لدين الله فإننا نعني بذلك أن نصبغ بصبغة الإسلام أفراداً وجماعات في السياسة والإقتصاد والإجتماع والأخلاق وحينئذ ستظل الهندسة بين المهندسين وشئون الطب في يد الأطباء وشئون الإقتصاد في يد الإقتصاديين... إلخ بشرط أن تستقيم في ذلك كله على شرع الله ولا تصطدم في معنى من معانيه بكتاب الله وبسنَّة رسول الله ﷺ.

وليس في العقيدة الإسلامية ولا النظام الإسلامي ما يقف في طريق العلم المبني على أسس سليمة، والعلم الصحيح لا يتعارض مع عقيدة المسلم في أن الله هو الذي خلق كل شيء ولا يتعارض مع دعوة الإسلام للناس في أن ينظروا في السماوات والأرض ويتفكروا في خلقها ليهتدوا إلى الله، وقد اهتدي إلى الله كثير من علماء الغرب والشرق الملحدين أنفسهم عن طريق البحث العلمي الصحيح - فهل يصح بعد ذلك أن ننادي بحرية الإلحاد والكفر والإنحلال الخلقي والفوضى الجنسية بغير رادع ؟!، تلك هي حقيقة المسألة وليس الجانب الفكري إلا ستاراً يغطون به عبوديتهم للشهوات ثم يزعمون أنهم أحرار الفكر، وليس الإسلام مكلفاً أن يطيع العبيد الذين أسرفوا على أنفسهم وأسرتهم واستعبدتهم شهواتهم، والحرية الحقيقية كما نفهمها هي تحرير الفكر من الخرافة والشرك والشعوذة وتحرير الناس من الطغيان، وهذه وتلك يملكها الناس في ظل الإيمان بالله

رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فما الهدف الذي يريد الديمقراطيون تحقيقه إذن؟.

الخبر الصادق وإشاعة الفاحشة:

أصرت كثير من الصحف ووسائل الإعلام على تخصيص جانب من مساحتها وجزء من جهودها لتتبع هذه الفواحش والقاذورات ونشرها على الملأ. ويفعلون ذلك ويظنون أنهم يحسنون الصنع لتعريتهم الحقيقة كما يقولون وفضح بؤر الفساد، وعذرهم في ذلك صدق الخبر وحرية التعبير والنشر، ونذكر جميع الذين ينشرون الجرائم الخلقية والذين يقرون نشرها نذكرهم بأن الله محاسبهم على جريمتهم هذه ولهم عذاب أليم، وهذا العذاب دنيوي كما هو أخروي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

ومن العذاب الدنيوي أن يجلد من ينشر فاحشة لا يستطيع أن يقيم الأدلة والبراهين على ثبوتها – والبينة على من ادعى – ولذا شرع الإسلام حد القذف، فإذا ما اتهم شخص امرأة بالزنا – مثلاً – وليس لديه أربعة شهود فيقام عليه الحد فيجلد ثمانين جلدة، والقاذورات والخبائث يجب أن تستر ولا تنشر وخصوصاً إذا كان مرتكبوها غير مشهورين بذلك، ونشر الفواحش على هذا النحو من شأنه أن يغري ويجرئ الأبرياء والأصحاء بمقارفة الجريمة، هذا ما ضجت منه المجتمعات الغربية والذين ينشرون هذه الجرائم أنفسهم يعلمون ما تحدثه الأفلام التي تعرض الجريمة من نشر للإجرام، وترويج الصحف لا يكون بمثل هذا العمل غير المشروع ولا بنشر مثل هذه الجرائم، وليس معنى ذلك ألا يعاقب مقترفوا هذه الجرائم وألا يؤخذ على أيديهم، وإنما نريد أن لا تنشر على الملأ وتكتب في الصحف والمجلات، ولا شك أن الذين يقترفون الفواحش آثمون، والفواحش كلها نجاسات وقاذورات وخبث ودنس، والذين يشيعون الفاحشة وزرهم عظيم عند الله،

فليتقوا الله ربهم وليخشوا عذابه، وأليم عقابه وليعلموا أن الكلمة أمانة ويجب أن تستخدم في الإصلاح لا في الإفساد، وليحذروا سبيل قوم عناهم الله بقوله: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**(٢٠٥) ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فاتقوا الله في أنفسكم، واتقوه في أولادكم وبناتكم، واتقوه في مجتمعاتكم.

ضوابط وحدود لحرية الرأي:

فإبداء الرأي له حدود وضوابط لابد من مراعاتها وإلا فالحبل لا يصح أن يطلق على الغارب، ولابد من نية وصحة أو إخلاص ومتابعة، **ومن هذه الضوابط**:

[١] أن يكون قصد صاحبه بذل النصح الخالص للخليفة أو الحاكم أو المسئول، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: « **الدين النصيحة** » ثلاثاً. قلنا: لمن ؟ قال: « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » [رواه مسلم]، فلا يجوز للفرد أن يقصد في بيان رأيه في تصرفات الحكام التشهير أو تكبير سيئاتهم أو انتقاصهم أو تجرئ الناس عليهم أو نحو ذلك من المقاصد الباطلة التي لا يرد بها وجه الله ولا الخير للمنصوح ولا المصلحة للأمة.

[٢] أن يكون بيان المسلم لرأيه في تصرفات الحكام على أساس من العلم والفقه، فلا يجوز أن ينكر عليهم أو ينتقصهم في الأمور الإجتهادية التي لا نص فيها لأن رأيه ليس أولى من رأيهم ما دام الأمر اجتهادياً.

[٣] لا يجوز للأفراد إحداث الفتنة ومقاتلة المخالفين لهم بالرأي إذا لم يأخذوا برأيهم ما دام الأمر يحتمل رأيهم ورأي غيرهم ويراعى في ذلك الضوابط الشرعية، وذلك لأن شرع الله مصلحة كلها وحيثما كانت المصلحة الشرعية المنضبطة فثم شرع الله - ودرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، واختيار أخف المضرتين دفعاً لأعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين استجلاباً

لأعظمها، وما خاب من استخار الخالق واستشار المخلوق، وكل هذا يحتاج إلى بصيرة بالشرع والواقع.

[٤] لا يجوز التشهير والطعن والسباب وفاحش الكلام والإفتراء والتضليل بحجة إبداء الرأى فليس من حق أحد أن يشيع الفساد بحجة إبداء الرأى ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقد ورد في كتب أهل العلم التحذير من آفات اللسان، «وهل يكب الناس على وجوههم» أو قال النبي ﷺ: «على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» [رواه ابن ماجه والترمذي والحاكم].

[٥] لابد من العدل في الغضب والرضا، والعدل واجب حتى مع الكافر ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، ولابد أيضاً من الحذر من الفجر في الخصومة فهي من خصال المنافقين وأبغض الرجال عند الله الألد الخصم أي الذي يفجر في خصومته.

[٦] إبداء الرأى لا يتم على وجهه الصحيح إلا بتربية الأفراد على معاني العقيدة الإسلامية ومخافة الله سبحانه في السر والعلن، وقيام الحاكم بمشاورة أهل الحل والعقد لا يعني أن غيرهم من أفراد الأمة لا حق لهم في إبداء آرائهم في شؤون الحكم أو إزالة المفسدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين والولاية المنعقدة بينهم بسبب ذلك يقول تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [رواه مسلم].

والقيام بهذا الواجب يستلزم تمتع الفرد بحق إبداء الرأي بالمعروف الذي يأمر به وبالمنكر الذي يريد تغييره، وهذا الحق للأفراد متم للشورى وبه يُعان الحاكم

على معرفة الصواب وتجنب الخطأ، فقد يفوت أهل الشورى بعض الأمور التي يعرفها غيرهم من أفراد الأمة، وعلى هذا فلا يجوز للحاكم أو لغيره من أولياء الأمور الإنتقاص من هذا الحق للأفراد، كما لا يجوز للأفراد التنازل عنه أو تعطيله لأنه حق أوتوه من الشرع ليتمكنوا من أداء ما افترض الله عليهم من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا كان الحكام الصالحون يربون المسلمين ويحثونهم على إبداء الرأى، وقد حدث أن قال رجل للفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً: «اتق الله يا عمر، فما كان من عمر إلا أن قال: ألا فلتقولوها، فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها»، وفي خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني».

والبون شاسع والفارق كبير بين الحرية المضبوطة بشرع الله وبآداب الإسلام وهذه الحريات والهلاميات في النظم الديمقراطي.

حرية التملك:

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذه الوسطية محققة في كل ناحية من نواحي الحياة، ومنها جانب التملك، فبينما تمنع النظم الإشتراكية الإلحادية التملك، وتقف الرأسمالية في الجانب المقابل فأطلقت حرية التملك بلا قيد أو شرط إلا الغصب والإكراه نجد أن الإسلام قد راعي الفطرة التي أودعها الله في نفوس عباده وحقق العدل والمصالح الحقيقية للبلاد والعباد في نظام التملك، فلا بأس أن يتملك الإنسان الملايين ولكن عليه أن يأخذ المال من حله وأن يضعه في حقه، والمسلم يسأل عن ماله من أين أخذه وفيما أنفقه؟ ولذلك قال العلماء: «مصيبتان في مال العبد لم يسمع بهما الأولرن والآخرون يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله إذا مات».

والمسلم يتملك المال بوسائل كثيرة منها:

[١] العمل في الصناعة والزراعة والتجارة والصيد وإحياء الموات والمضاربة.

[٢] الميراث.

[٣] الأعطيات التي تدفعها الدولة لرعاياها.

[٤] الهدية والهبة أو الوصية.

ويحرم عليه التملك بوسائل منها:

(أ) الغش. (ب) الإحتكار.

(جـ) الغبن الفاحش. (د) الربا.

(هـ) القمار. (و) التسعير بلا ضرورة.

(ز) التأمين الذي يعتبره العلماء ربا وقماراً وغرراً مثل التأمين على الحياة وعلى الساقين والحنجرة والعينين.

ويمنع المسلم من الإسراف بل ويحجر عليه في نفقة الدرهم في حرام كما يمنع أيضاً من الهبة في مرض الموت ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ**﴾ [النساء:٥] ولا يصح له أن يزيد على الثلث في الوصية لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين هم بأن يتصدق بكل ماله: «**الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**» [رواه البخاري ومسلم] ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وددت لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع» [رواه البخاري ومسلم].

والمال إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول القمري الكامل وجب على الإنسان أن يخرج ربع العشر ويقوم ذلك تبعاً للفضة (٦٢٤ جرام) والأصناف التي تجب فيها الزكاة ومقدارها وكيفيتها موضحة في كتب الفقه وليس غرضنا هنا التفصيل والإستقصاء وإنما لنبين مدي الفارق بين الإسلام وبين غيره من النظم، وهذه الزكاة هي حق معلوم ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ**

قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠]، ومن شأنها أن تطهر المال وتنميه، وتشيع روح الأخوة والمحبة الإيمانية بين الغني والفقير، ولا يصح إستبدالها بنظام الضرائب كالضرائب التصاعدية وضرائب التركات وغيرها من صور الظلم، وإلا فمال الأغنياء لابد من صونه وعدم التطلع له، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» [رواه مسلم]، ويوم حجة الوداع قال: «**ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟** »، قالوا: « نعم » [متفق عليه].

فإذا قامت حاجة شرعية أو ضرورة مقتضية ولم تكف الزكاة لسدها لجائحة أو حرب أو مجاعة، وخلا بيت المال من المال وتنازل الحاكم وأعوانه عما لديهم حينئذ يستوجب الحاكم أن يأخذ من مال الأغنياء أكثر من أموال الزكاة، كما حدث في عهد السلطان بيبرس وقطز ويوسف بن تاشفين، وأفتى بهذا النووي والعز بن عبد السلام وعبد الله بن الفراء.

وبعد أن جربت الأمة النظم الإشتراكية والرأسمالية فانتقلت من نكبة إلى أخرى، لن نقول لها جربي الإسلام ولكن نقول: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ** ﴾ [الزمر: ٥٤]، واستقيموا على شرع ربكم ففيه الأمن والأمان والراحة والإطمئنان، وإذا كان رأس المال كما يقولون: جبان لا يطمئن إلا بالأمان والقضاء على مثيري القلائل، فلا أقوى من حكم الله ورسوله، ورقابة الإسلام أقوى من رقابة البوليس وأجهزة الأمن، وتحصين المال إنما يكون بالزكاة وليس بدفع أقساط شركات التأمين.

والربا الذي يتعامل به الأفراد والحكومات لا يمكن أن يسبب رخاءاً وعمراناً ولا أن يتقوى به الإقتصاد ورب العزة جل وعلا يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن**

تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة: ٢٧٦]، ولا طاقة لأحد بحرب الله، وأي فلاح يحدث لمن آذنه رب العزة جل وعلا بالحرب والواقع خير شاهد على ذلك، فالإطمئنان والأمان لا يحدثان إلا بالرجوع لدين الله سياسة واقتصاداً، خلقاً واجتماعاً، حرباً وسلماً، أفراداً وجماعات، فنحل ما أحل الله ونحرم ما حرم الله عز وجل، وندور مع إسلامنا حيث دار، وإذا كان الربا ثمانين باباً أيسرها مثل أن ينكح الإنسان أمه، فالواجب علينا أن ننتهي عنه تعظيماً لحرمات الله وتحقيقاً للسعادة التي ننشدها في الدنيا والآخرة بعكس الوعود والخيالات في الأنظمة الكفرية والتي تتبدد كالسراب الذي ينخدع به العطشى والظمأى ولا حقيقة له إلا الضياع والنكد.

الخاتمة

تراثنا العالمي الحضاري

ينتشل البشرية من وهدتها وكبوتها

الحضارة هي التي تقوم على أساس واجب العبودية وعلى منهاج النبوة، وما نعيشه اليوم من شرود عن منهج الله وتحلل ورذيلة وظلم وبغي لا يجوز أن نصفه بوصف الحضارة، ولو جاز ذلك فهي حضارة قلق آيلة للدمار، وشأنها في ذلك كشأن سائر الحضارات الهالكة والبائدة التي أقامها قوم نوح وعاد وثمود والفراعنة، وكل هؤلاء كانوا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

إن أمتنا هي الأحق بإقامة نظامها العالمي، وهي المؤهلة لإقامة دولة العدل والحق حتى تسعد البشرية في دنياها وأخراها قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** (١٠٧) ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** (٨٧) **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** (٨٨) ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨]، وقال: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** (١) ﴾ [الفرقان: ١].

ولننظر ما الذي فعله التتار بقيادة چنكيز خان وهولاكو، وما الذي فعله الصليبيون عندما اجتاحوا الدنيا، وما الحملات التترية البربرية الصليبية التي تشاهدونها منكم ببعيد، عندما يدمرون بلدان المسلمين الواحدة تلو الأخرى، ويقتلون الشيوخ الرُكّع والبهائم الرُتّع والأطفال الرُضّع بزعم محاربة الديكتاتورية والإرهاب ولنشر الحرية والديمقراطية والرخاء!!.

فلم يشاهد العباد منهم إلا الكفر والضلال وانتهاك الأعراض واستباحة الحرمات وإبادة الأخضر واليابس وتدمير البلاد والعباد، وكل إناء بما فيه ينضح، فهؤلاء لا يصلحون لقيادة أنفسهم فضلاً عن إقامة دولة ونظام عالمي واحد يتحكمون هم فيه؛ ولذلك كان لابد من السعي لإيجاد الشخصية المسلمة التي تأخذ بأسباب التطور والتحضر والتقدم مع استمساكها بمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، تراعي السنن الكونية والشرعية، وتشق طريقها في إقامة نظامها العالمي معتصمة بحبل الله المتين وذكره الحكيم، وصراطه المستقيم، لا تبتدع في دين الله ما ليس منه، ولا تفرط في طاعة ربها، تقف على الأرض ونظرها في السماء وتعمر الدنيا بطاعة الله وحساباتها في ذلك حسابات أخروية، لا ترضى بالإسلام بديلاً ولا تنبهر بما عليه الغرب أو الشرق، وتثق في وعد ربها وتعلم أن النصر عقبى الصابرين، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وأن العاقبة للمتقين.

إن رجوع المسلم لتراثه ولميراث النبوة يجعله يشفق شفقة حقيقية على من يعيش حياة أشبه بحياة التيه، ويسعى جاهداً في انتشال البشرية من وهدتها وكبوتها، ورائده في ذلك الأنبياء الذين بذلوا حياتهم في تعبيد الدنيا بدين الله وواصلوا الليل بالنهار لأجل ذلك مبتغين الأجر عند الله، وسار على دروبهم الصالحون، ومنهم صاحب يس، قال تعالى: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)** ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧]، لقد نصحهم حياً وميتاً بعد أن قتلوه، وهذه هي الشفقة الحقيقية عند المسلمين أصحاب منهج الحق، لا الشفقة المزعومة الموجودة عند

أرباب النظام العالمي الذين أحالوا الدنيا إلى دمار، ومصيرهم في الآخرة معلوم إن هم استمروا في كفرهم وضلالهم، ولا يشفع لهم الدموع التي يذرفونها على حال هذه الأمة فهي أشبه بدموع التماسيح، ولا ننخدع بشعارات الإصلاح والرخاء والحرية التي يرددونها ليل نهار، فلست بالخب ولا الخب الماكر يخدعني، قال تعالى: ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿ **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فلا تعزوهم وقد أذلهم الله، ولا تكرموهم وقد أهانهم الله، ولا تقربوهم وقد أبعدهم الله كما قال عمر رضي الله عنه، وثقوا في منهجكم وتراثكم فبه سعادتكم وعزكم في العاجل والآجل، وبه يتحقق مجدكم ونصركم على الأعداء، فما خاب من وصل الأرض بالسماء والدنيا بالآخرة، وتعلق قلبه بربه في جلب النفع ودفع الضر، وقال: وعجلت إليك ربي لترضى.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا أخرانا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٣
التراث في المعاجم والتفاسير	٧
بداية التراث	٢٥
العبرة من خلق آدم	٢٦
آدم أول البشر	٢٨
الأدلة على أن آدم أول البشر	٢٩
هل نظرية داروين تعارض القرآن؟	٣٠
خطأ نظرية داروين من الناحية العلمية	٣٢
الغرض الحقيقي من نظرية داروين	٣٢
انخداع بعض المثقفين بهذه النظرية	٣٣
المراحل التي مرّ بها خلق آدم	٣٥
سجود الملائكة لآدم عليه السلام	٣٦
هل إبليس من الملائكة	٣٧
خلق حواء	٣٨
أدلة الجمهور على أن الجنة هي جنة الخلد	٣٩
تغرير إبليس بآدم عليه السلام	٣٩

قصة قابيل وهابيل ابني آدم ٤٠
الحكمة من استخلاف آدم في الأرض ٤١
هل آدم من الأنبياء؟ ٤١
شبهة حول نبوّة آدم ٤٣
ما الفرق بين الملائكة والجن؟ ٤٣
الفرق بين الشياطين والجن ٤٧
العبرة من قصة آدم عليه السلام ٤٧
وفـاة آدم عليه السلام ٤٨
نهاية التراث ٥٠
تصورات بشرية لنهاية العالم ٥٠
نهاية العالم خلال خمسون عامًا ٥٧
التعليق على الخبر ٥٩
التراث بين الماضي والحاضر ٦٥
واقع المسلمين والفتنة به ٦٥
هل تطورت العقيدة عبر الزمان؟ ٦٩
القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة ٧١
تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم ٧٢
الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد ٧٢
أول انحراف عن العقيدة وأول رسول ٧٣
تصورات الأمم الضالة للمعبود ٧٨
نماذج من التصورات الضالة ٧٨

الرب عند اليونان ٧٩
الإله عند اليهود ٨٠
إنحراف العرب عن التوحيد ٨٧
تعالوا إلى كلمة سواء ٩٣
التراث والصراع الحضاري ٩٩
التراث وميراث النبوة ١٠٧
الدين واحد وإنما تعددت الشرائع ١٠٨
الدعوة إلى زمالة الأديان ١٠٩
معنى الإسلام ١١٠
علاقة الإسلام بالإيمان ١١١
المنهج المنضبط لفهم الإسلام ١١٢
المستقبل للإسلام ١١٣
الإسلام والمسلمون ١١٤
صحوة إسلامية ـ فاعملوا وأبشروا ١١٦
الإسلام ... ومصطلح التطرف ١١٦
بعض خصائص وسمات الشخصية المسلمة ١١٧
مبشرات ونذر ١١٩
(أ) وعد بطائفة ناجية ١١٩
(ب) تجديد دين الأمة ١٢١
(جـ) عودة الخلافة الراشدة ١٢٢
(د) أبشروا فالمستقبل للإسلام ١٢٤

(هـ) كثرة الفتن ١٢٥
(و) أخبار الإفتراق ووجوب لزوم الجماعة ١٢٦
(ز) كيف الأمر إذا لم تكن الجماعة ١٢٧
تعريفات مهمة ١٣٢
السلف ١٣٢
الفرقة الناجية ١٣٢
الطائفة المنصورة ١٣٣
أهل السُنَّة والجماعة ١٣٣
أهل الحديث ١٣٤
التوحيد وأصول الإيمان ١٣٤
الولاء والبراء ١٤٧
مسائل الإيمان والكفر ١٤٩
الصحابة والخلافة والإمامة ١٥٢
الإتباع ١٥٤
الإجتهاد والتقليد ١٥٤
أهل السُنَّة وأهل القبلة ١٥٦
الصفات العامة للمفارقين للسُنَّة والجماعة ١٥٨
تكريم الإنسان ١٦٠
أنواع التكريم ١٦١
تكريم المرأة ١٧٦
تكريم الأقليات في المجتمع الإسلامي ١٧٨

الآيات الواردة في تكريم الإنسان ١٧٩
الأحاديث الواردة في تكريم الإنسان ١٨١
من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في تكريم الإنسان ١٨٥
من فوائد تكريم الإنسان ١٨٩
قواعد مهمة لقراءة التراث ١٩٢
بعض القواعد المهمة في أسلوب الكتابة وطريقة العرض ١٩٦
تشويه التاريخ لهدم الخلافة الإسلامية ٢٠٠
توثيق التراث ٢٠٦
مفهوم العلم ومحتواه ٢٠٦
ضوابط منهج العلم ٢١٢
أهداف تلقي العلم ٢١٧
وسائل تلقي العلم ٢١٩
مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية ٢٢٢
مفهوم البحث العلمي ٢٢٤
التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق ٢٢٦
قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي ٢٢٨
صور من التعامل المشبوه مع التراث ٢٤٧
أولاً – الاستشراق والمستشرقون ٢٤٧
ثانيًا – الجمود المذهبي في التعامل مع التراث ٢٥٩
ثالثًا – التراث في حقبة العولمة ٢٦١
الديمقراطية صنم العصر ٢٦٦

تعريفات لا بد منها ٢٦٦
تحذير لابد منه ٢٦٧
الديمقراطية العلمانية اللادينية ومبدأ فصل الدين عن الدولة ٢٧٠
العلمانية والعلمانيون في العالم العربي والإسلامي ٢٧٢
الجذور الفكرية والعقائدية العلمانية اللادينية ٢٧٣
الأفكار والمعتقدات العلمانية ٢٧٤
الدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي ٢٧٧
الإسلام دعوة عالمية في مواجهة دعاوى كفرية ٢٨٢
تنقية التراث ٢٨٤
واقع الأمة الإسلامية ٢٨٤
أولاً – الانحرافات العقائدية ٢٨٥
ثانيًا – إنحرافات عبادية ٢٨٩
ثالثًا – في الشريعة ٢٩٠
بعث وإحياء التراث ٢٩٢
الصراع بين الحق والباطل ٢٩٢
تقريب التراث ٢٩٨
مؤتمرات التقريب بين الأديان والسنة والشيعة ٢٩٨
ما انتفعت البشرية وما انصلحت قديمًا وحديثًا بمثل تراثنا ٣٠٥
أولاً – ميزان وضابط ٣٠٨
ثانيًا – واقع البشرية ونظريات الإصلاح ٣١١
ثالثًا – بعض خصائص وسمات الإسلام ٣١٤

رابعًا – المنهج الإصلاحي لإمام دار الهجرة ٣٣١
خامسًا – التفوق في العلوم المادية عند المسلمين ٣٣٨
سادسًا – أهداف دراسة التاريخ ٣٣٩
سابعًا – تحقيق الأمن ٣٥١
ثامنًا – تحقيق الحرية الحقيقية ٣٥٧
الخاتمة تراثنا العالمي الحضاري ينتشل البشرية من وهدتها وكبوتها ٣٧٤
الفهرس ٣٧٧

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الاختيارات الفقهية

من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية

اختارها العلامة الشيخ

علاء الدين أبو الحسن علي ابن محمد بن عباس الدمشقي

المتوفى سنة ٨٠٣ هـ

شرحها وعلق عليها

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

دار العقيدة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩